جامعة الجزائر
معهد اللغة والادب العربي

الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار

اعداد الطالب : موسى بن جدو

لنيل شهادة الماجستير

اشراف الاستاذ : د. محمد ناصر

السنة الجامعية 89 / 90

المقدمــــــة :

أسباب البحث ودوافعـــه :

من أهم الاسباب التي جعلتني أختار موضوع الشخصية الدينية في روايات وطار موضوعا لبحثي هذا ما يلـــي :

(1) ـ أن للأدب عامة ، والرواية خاصة ، علاقة وطيدة بشخصية المجتمع الذي تعبر عنه ، وأن الدين مقوم أساسي لشخصية المجتمع الجزائري ، الذي حاولت روايات وطار أن تعبر عنه ، وتناقـــش قضاياه .

(2) ـ خلو الساحة الأدبية من بحث أكاديمي يتناول هذا الموضوع .

(3) ـ أن الدراسات التي تناولت أدب وطار ، ورواياته بالخصوص ، تصب في اتجاه واحد ، وتكاد تكون متماثلة في المنهج والنتائج .

(4) ـ اقتناعي بأن للاسلام ، الذي هو نظام متكامل للدنيا والآخرة ، منهجا في الفن والأدب مستمدا من هذا النظام الشامـــل .

(5) ـ أن وطار من أهم الأدباء الجزائريين المعاصريـــن ، كما أن المستوى الفني الذي يتوفـــر في رواياته ، وكثرة الشخصيات الدينيـــة فيها يحفزان على الاهتمام بهذه الأعمـــال .

خطة البحث ومنهجـــه :

لقد وجدت ـ بعد الدرس والملاحظة ، وامعان النظر ـ أن أنسب خطة لدراسة موضوع الشخصيـــة الدينية في روايات وطار ، أن أقسم البحث الى تمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمـــة .

وقد وضحت في التمهيد مفهوم الشخصية الدينية ، أو رجل الدين كما يحدده القرآن الكريـــــم والسنة النبوية ، والشريعة الاسلامية عامة . كما بينت مفهوم هذه الشخصية ، وصفاتها التي تعرف بها فـي أغلبية الروايات العربيـــة ، والجزائريـــة منهـــا على الخصـــوص . وأشرت الى ما ظهر لي أنه السبب وراء مفهوم الشخصية الدينية في الرواية العربيـــــة .

وعرضت في التمهيد كذلك لنشأة الروايـة العربية الجزائرية ولاتجاهاتها المختلفة كما تبينت لي من خلال قراءة العديد من الروايات الجزائرية المعاصرة .

وخصصت الفصل الأول للشخصية الاصلاحية كما ظهرت لي في رواية (الزلزال) ، والفصل الثاني لشخصية المجاهد كما ظهرت لي من خلال روايةِ(اللاز) . أما الفصل الثالث فقد خصصته للصحوة الاسلامية المعاصرة التي تظهر بالخصوص في رواية (العشق والموت في الزمن الحراشي) ، وفي جانب من رواية (عرس بغل) .

كما أشرت في نهاية هذا الفصل الى استخدام التراث العربي والعالمي في روايتي (عرس بغل) و (الحوات والقصر) ، وعلاقة هذا الاستخدام بالشخصية الدينية في هاتين الروايتين .

وقد حاولت الالتزام بالفكر الاسلامي في النظر الى المضامين التي ناقشتها في روايات وطار ، واتبعت من الناحية الفنية منهجا تحليليا وصفيا ، حاولت أن أمزج فيه بين المضمون والشكل ما استطعت الى ذلك سبيلا .

ولم أقتصر على الشخصيات الدينية الرئيسية في روايات وطار ، ولكني حاولت أن أدرس كل الشخصيات الروائية مهما كانت درجة حضورها في الرواية ، لألقي الضوء على الجانب الديني في تكوين هذه الشخصيات .

ولما لم يكن ممكنا فصل الشخصية الدينية عن السياق الروائي العام ، فقد تطرقت لعلاقة هذه الشخصية بغيرها من الشخصيات الروائية ، كما لم أقصد الجوانب الفنية على الشخصية الدينية فقط ، ولكني حاولت أن أربط هذه الشخصية بالخصائص الفنية في الرواية ككل ، لأن العمل الفني في نظرنا نسيج متلاحم ، لا يمكن معـــه الفصل بين شخصية وأخرى ، أو ظاهرة فنية وأخرى في الرواية الواحدة .

وفي خاتمة البحث عرضنا لأهم النتائج التي توصلنا اليها ، وجاءت هذه النتائج عامة منسجمة مع نظرتنا الكلية للفن الروائي الذي لا نستطيع — في رأينا — أن نفصل بين شكله ومضمونه .

كما ذيلنا البحث بفهارس مختلفة رأينا ها مفيدة للباحثين والمهتمين بأدب وطار الروائي .

شكر وتقديـــــــــر :

وفي الأخير لا يسعني الا أن أشكر كل الأساتذة ، والأصدقاء الذين ساعدوني على انجاز هـــذا البحث ، وهم أكثر من أن أعدد أسماءهم واحدا واحدا . ولكني أرى لزاما علي أن أذكر الدكتور الأعرج واسيني الذي أفادني بمناقشته لموضوع بحثي هذا ، وفتح لي بيته ومكتبته الأدبية الثرية .

كما أذكر الأصدقاء : الشريف مريبعي ، ومن موسى لحرش ، والدكتور محمد مخلوف ، والدكتور محمد الامين الشادلي ، وابراهيم بن شلالي ، وعمر بن جدو .

على أن الفضل الاكبر في انجاز هذا البحث يعود الى أستاذي الدكتور محمد ناصر ، الذي رعى هذا البحث بما أمدني به من نصائح وتوجيهات ومراجع ، وما سمح لي به من زيارات متكررة في بيته الذي كنت لا أتردد في أن أقصده متى شعرت بالحاجة الى ذلك ، فالله أرجو أن يجازيه على ما ذكرته من فضل له علي وما لم أذكره خير الجزاء .

ليس في الاسلام شخصية دينية ، أو رجل دين ، أو طائفة معينة ، أو فئة ذات مكانة خاصة تختص بشؤون الدين دون بقية المسلمين ، بالشكل المعروف في ديانات أخرى .

فالناس سواسية في الاسلام ، وأفضلهم أكثرهم ايمانا بالله ، وتمسكا بدينه .

وقيام الانسان بما يرسمه شرع الله ، هو التدين عند الله . وأساس هذا التدين افراده ، سبحانه عز وجل بالعبادة والاستعانة ((اياك نعبد واياك نستعين))(1) ، وامتثال أوامره ونواهيه ((اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء))(2) ، ومراقبته في السر والعلن ((الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك))(3) .

هذا هو التدين الصادق في الاسلام ، وهناك شكل آخر منحرف من التدين ، هو التدين الرمزي الذي يكتفي أصحابه بمجرد الانتساب الى الدين ، وأداء رمزه الأول ، وهو النطق بالشهادتين ، دون الالتزام بالمعاني الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، والشريعة التي ارتضاها الله لعباده .

وقد فتح هؤلاء بتدينهم الرمزي باب التحلل من القرآن والسنة والشريعة عامة في هدايتها وأحكامها وراحوا يؤثرون شرائع الغرب وآراءه ومعتقداته على شرائع الله وعقائده(4) .

وهذا النوع من التدين أقرب الى الكفر والفسوق والضلال منه الى الايمان ، قال تعالى : ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون))(5) .

ان الاسلام عقيدة وشريعة وعمل ، ونظام حياة متكامل ، يلتزم به جميع المسلمين ، وهو ليس شعائر وطقوس لا علاقة لها بحياة الناس ، أو أسرار يختص بها (رجال الدين) ، ويحتكرون معرفتها دون غيرهم .

ومن هنا فان رجال الدين في الاسلام هم أتباعه الذين يخدمونه في شتى الميادين ، ويطبقون ما أمر الله به ، كل في مجال اختصاصه .

يقول الشيخ محمد الغزالي : ((يمكن أن يستحق هذه التسمية (تسمية رجال الدين) نفر من الساسة

---

(1) الفاتحـــــة (5) .
(2) الاعـــــراف (3) .
(3) من حديث الايمان وبيان خصاله ، الجامع الصحيح للامام مسلم ، دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ وطبعة ج/ 1 ص 30 .
(4) انظر محمود شلتوت ، من توجيهات الاسلام ، دار الشروق ، بيروت ، ط/ 8 ، 1402 هـ - 1982 م ص 36/ 41 .
(5) المائـــــدة (44) .

والقادة والمهندسين والأطباء والتجار والصناع ، فهموا دينهم فهما حسنا ، وعدوا رواقه في الميادين التي يعملون فيها ، ومن ثم يكون اعزازهم للاسلام سببا كافيا لأن يرفعهم الى مصاف رجالاته المعدودين))[1]

لكن هذا الذي قلناه لا ينفي وجوب تخصص علماء في الدراسات الاسلامية . قال تعالـــى :
((وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون))[2] .

وهذا التخصص ضرورة علمية ، لأن الفقه في القرآن الكريم والسنن النبوية يتطلب الطاقة العقلية والذهنية التي يتطلبها التخصص في الأدب ، أو الصناعة ، أو التجارة ، كما أنه — أي هذا التخصص — طاعة الهية ، قال تعالى : ((فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون))[3] . وقال : ((الرحمن فاسأل به خبيرا))[4]

فما قلناه من عدم وجود كهنوت في الاسلام ، أو وساطة بين العبد وربه لا ينفي ضرورة تكوين مختصين تفقهوا في الاسلام ، ويحيطون بعلومه ، ويشرفون على تعليمه ، وهذه الطائفة ((لا ينبغي أن تتميز بملابس أو تنفرد بشارات ، وهي — وان اصطلح العرف على تسميتها برجال الدين — لا تحتكر هذه التسمية ، بـــل من الخير أن تتأبى عنها ، وأن تبرئ الاسلام من الطائفية التي تدل عليها))[5] .

ولكن مفهوم رجال الدين — كما ظهر في بعض الأعمال الفنية ، ومنها الأدب والرواية بالذات ، التي يعتبر عنصر رسم الشخصية الانسانية فيها من أهم وسائلها الفنية — يختلف عن المفهوم الذي أعطاه الاسلام لشخصية المسلم الحقيقية كما عرفناها من قبل ، بل انه يناقضه تماما .

ففي حين يتحرى الروائيون الموضوعية في رسم شخصياتهم الروائية مهما اختلفت اتجاهاتها وبواعثها فانهم يركزون في رسم الشخصية الدينية على نماذج منحرفة ، ويقصرون وصفهم عليها ، وينسبون اليها كـــل الشرور والآثام والصفات الرذيلة ، كالأنانية والحقد والجشع ، واستغلال الغير ، وحب التسلط والعبوديـــة والانحراف النفسي والخلقي .

والواقع أن الانسان المسلم ليس معصوما من الخطأ مهما كانت درجة تقواه والتزامه بالدين ، ولكـن التركيز على نماذج شاذة تستغل الدين ، وتتستر به ، واعتبارها النموذج الحقيقي الممثل للدين أمر مجانب

---

(1) محمد الغزالي : كيف نفهم الاسلام ، دار الكتب ، الجزائر 1987 ص 33 .
(2) التوبـــــة (122) .
(3) الأنبيـــــاء (7) .
(4) الفرقـــــان (59) .
(5) محمد الغزالي : كيف نفهم الاسلام ، ص 33 .

للواقع والحقيقة تماما . وتاريخ الجزائر منذ الفترة المبكرة لدخول الاسلام فيها، وتجسده واقعيا في مواقف أهاليه، ومخالطته لحياتهم، الى ثورة التحرير المباركة دليل على ما نقول .

ولهذه الظاهرة، ظاهرة تشويه الشخصية الاسلامية في الرواية الجزائرية والعربية عامة، أسبابها المتعددة . ولعل أهم هذه الأسباب بالاضافة الى التخلف الذي يعيشه المسلمون، والجهل بحقائق الاسلام، بخفوت جذوة الايمان في القلوب، هو التأثر بنظرة الغرب الذي عرف صراعا طويلا بين الكنيسة ورجال العلم والفكر والحكم . هذا الصراع الذي انتهى باستبعاد الكنيسة عن شؤون الحياة .

ونتيجة الاستعمار المباشر للعالم الاسلامي، والاستعمار الثقافي الذي ما تزال دول الغرب تنتهجه في المستعمرات السابقة، فان هذه النظرة للدين قد انتقلت الى العالم العربي الاسلامي، الذي ظهر فيه فن الرواية في وقت كانت فيه معظم أجزائه واقعة تحت الاحتلال المباشر .

ولأسباب عديدة أشرنا الى بعضها، فان الروائيين العرب لم يطوروا في كتابتهم للرواية الأشكال القصصية العديدة الموجودة في التراث الأدبي العربي، ولكنهم اعتمدوا على الرواية الغربية، ونقلوا تقنياتها الفنية، ولم يكتفوا بهذا، ولكنهم نقلوا المضامين كذلك، ومنها النظرة الى الدين ورجاله[1]، مهملين الفروق الجوهرية بين الاسلام وبقية الأديان .

وبعد ظهور المذهب الاشتراكي العلمي تعززت القطيعة بين الدين والحياة عامة في الغرب، وتأكدت أكثر في المعسكر الاشتراكي الذي اعتبر الدين حسب مقولة ماركس المعروفة أفيون الشعوب .

وقد وجد هذا المذهب تجاوبا من العديد من نقاد، وكتاب الرواية العربية[2] الذين اعتبروا أن : ((ظهور الرواية مرتبط بتراجع الايديولوجية الدينيـــة)) . ![3]

والواقع أن الدين من أقوى النظم الاجتماعية، التي عرفتها المجتمعات الانسانية، وقد صاحب الانسان منذ ظهوره للوجود، وهو الى جانب ذلك حاجة فطرية لدى الانسان الذي ان لم تنجده السماء بالوحـــي صنع الهه بنفسه، وتوسل اليه بعبادة الاصنام المادية والمعنوية، التي يقيم لها الشعائر والطقوس ليتقرب

---

(1) انظر د . شلتاغ عبود شراد، ((الروائي العربي وصورة رجل الدين))، مجلة العالم، السنـــة (7) السبت 17 فبراير 1990، العدد 314 .

(2) انظر نفس المصدر لمعرفة آراء هؤلاء النقاد والكتاب في الرواية وموقفها من الدين .

(3) د . فيصل دراج : حوار في علاقات الثقافة والسياسة _ دائرة الاعلام والثقافة _ منظمة التحرير الفلسطينية دار الجليل، ط 1، دمشق 1984 ص 110 .

من الله زلفى ، نلاحظ هذا عند العرب في جاهليتهم ، كما نلاحظه عند الفراعنة واليونانيين ، والصينيين والهنود ، وقبائل افريقيا وأمريكا وغيرهم .

وليس الدين حاجة فطرية(1) يكمل بها الانسان نقصه وضعفه أمام الغيب والموت ، والمجهول ، وكل الظواهر التي تحيره في هذا الكون اللامتناهي الذي يوجد فيه نفسه فقط ، بل ان الدين بقيمه ومبادئه عامل أساسي في معادلة الحضارة ذاتها التي ((لا تظهر في أمة من الأمم الا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا ، أو هي — على الأقل — (أي الحضارة) تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام(2) ، فكأنما قدر للانسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة الا حيث يمتد نظره الى ما وراء حياته الأرضية ، أو بعيدا عن حقبته ، اذ حينئذ تكتشف حقيقة حياته الكاملة ، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها(3))).

يمكننا — اذا — أن نقرر مع الأستاذ مالك بن نبي أن الحضارات الانسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار الدينية الاسلامية والمسيحية ، اذا يبدأ الطور الأول بظهور فكرة دينية ، ثم تتطور الى حضارة ، وعندما تركن الى جاذبية الأرض تبدأ في الأفول وتفقد الروح ثم العقل ، لتدخل بعد ذلك في ظلام التأخر والانحطاط(4) .

فالايمان هو المنبع القوي للطاقة الانسانية ، التي تصنع الحضارة ، لأن الانسان لا يعود محدودا بالفترة الزمنية التي يحياها ما دام يؤمن باليوم الآخر ، والحساب والجزاء على أعماله الدنيوية في الحياة الآخرة . وهكذا تصبح الحياة متكاملة ، تشترك في صنعها الاجيال المتعاقبة ، وتعمل بانسجام في بناء صرح الحضارة ، وتماسك المجتمع وبقائه .

وربما يتبادر الى الذهن أن الشيوعية (كحضارة) تشذ عن هذا المبدأ ، اذ لا علاقة لها بالروح ولا بالدين الذي اعتبرته (أفيون الشعوب) و ((هذا الخطأ الشائع انما يأتي أولا من تفسير أصول الشيوعية

---

(1) تصف الدكتورة مارغريت ميد وهي باحثة مشهورة في علم الاجتماع الوضع الحالي للمجتمع الغربي ، وخاصة العلاقة بين الأجيال بأنه أزمة ايمان .
انظر كتابها : الثقافة والالتزام ، ترجمة خير الدين عبد الصمد ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق 1976 ، ص 99 .

(2) ((ولو كان غيبيا من نوع زمني ، أي في صورة مشروع اجتماعي بعيد الأمد ، مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول جيل ، وتواصل بناء ، الأجيال المتتابعة)) ، تعليق للمؤلف على هامش النص .

(3) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي ، عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بدون مكان للطبع ، ولا تاريخ ، ولا طبعة ، ص 51 .

(4) نفس المصدر ، ص 53 .

باعتبارها (حضارة)، ومؤلفات ماركس وأنجلز تخفي في الواقع التكوين الحقيقي للظاهرة الشيوعية بفصلها ظاهرا عن دور الحضارة المسيحية . والحال أنها لا تجد تفسيرا اذا ما ضربنا صفحا عن الحضارة المسيحية تلك التي تكون — عند تحللها — سطح التربة الخصيب، حيث استمدت الفكرة الماركسية حيويتها .

فنحن مضطرون الى أن نعتبر الشيوعية (أزمة) للحضارة المسيحية))[1]. وقد تحـ ـ للشيوعية ما تحقق لها بفضل نشاط المؤمنين بها ، المدفوعين بهذا الايمان الذي قلنا أنه الطاقة الأساسية في بناء أية حضارة ، وهذا التقهقر السريع الذي تعرفه الشيوعية في معاقلها الأساسية ، يعود أساسا الى فتور هذا الايمان ، الذي كان يمدها بطاقة الوجود والاستمرارية والانتشار ، لا الى ضعف امكانياتها المادية والبشرية.

وفيما يخص المجتمع الجزائري ، فانه — وكل المجتمعات العربية الاسلامية الأخرى — يستمد قيمه وأخلاقه ومبادئه من الدين الاسلامي أساسا ، فهو المقوم الأساسي لشخصيته ، وهو ((القاعدة الأساسية لوحدة الشعب الروحية ، والثقافية ، واللغوية))[2] . صهر المجتمع وجعله قوة متماسكة ، وصاغ حياته ومكنه من المشاركة الايجابية في كل مظاهر الحضارة العربية الاسلامية ، كما مكنه من المحافظة على كيانه أثناء ليل الاستعمار الطويل باحباط جميع مشاريع النيل من شخصيته بواسطة سياسة الفرنسة والتجنيس والادماج .

وقد استندت كل الانتفاضات والمواجهات العسكرية ، والحركات السياسية والاصلاحية الى مبادئ الاسلام وقيمه . وقد كانت الثورة التحريرية نتيجة حتمية ، وثمرة منطقية لكل هذه الأشكال من المقاومة ، وكان دور الاسلام فيها واضحا لا يحتاج الى دليل .

يقول الأستاذ محمد الميلي : ((أن استقراء واقع الجزائر عشية قيام أول نوفمبر 1954، يكشف حقيقة أساسية تساعد على فهم الثورة الجزائرية ، وهي أن الكفاح في بلد مثل الجزائر مطبوع بالطابع العربي الاسلامي لغة، ودينا، وثقافة، لايمكن الا أن يقوم على أساس تأكيد العناصر الحضارية ، التي تبلورت حولها كل أشكال المقاومة الجزائرية منذ 1830 الى 1954))[3] .

والحقيقة أن الجزائر (...) (...) خارج السيطرة المعنوية ، بحكم تصميمها على أن تبقى مسلمة العقيدة ، عربية الثقافة))[4].

---

(1) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 54 .

(2) الميثاق الوطني ، ملحق بـ ((الشعب)) اليومية ، جانفي 1986 ص 11 .

(3) مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر، عدد أكتوبر — نوفمبر 1974 ، من مقال بعنوان : المثقفون الفرنسيون والثورة الجزائرية ، ص 12 .

(4) الميثاق الوطني ، ص 5 .

وقد عملت الحركة الاصلاحية على احياء الروح الاسلامية في المجتمع الجزائري للوصول الى هدف جوهري محدد منذ البداية ، وهو اصلاح وتغيير ما بها ، لتغير هذه النفوس محيطها وواقعها بعد ذلك ، وكان شعارها في ذلك كله الآية الكريمة: ((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[1] ، وقد ركزت لهذا السبب وطبقا للآية الكريمة على الواجبات لا على الحقوق ، وحاولت النفاذ الى الأعماق والعمل في الضمائر الفردية وقد كان الاستعمار يدرك الخطورة هذا النوع من المواجهة ، ولذلك حارب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي بلغ معها الاصلاح أوجه ، كما حارب الحركات السياسية الأخرى رغم الطابع الثقافي الذي كانت تصبغه الجمعية على نفسها بحكم طبيعة عملها .

لم يكن الاصلاح خطرا على الوجود الاستعماري فقط[2] ، ولكنه كان يحمل بذور نهضة ثقافية ، ومشروع حضاري . ((لقد كان السلفي وحده ، هو الذي يحمل فكرة النهضة ، وهو وان لم يحقق شروطها العملية بصورة منهجية ، فانه على الأقل لم يضيع هدفها الجوهري ، لقد كان يعي تماما أوضاع بيئته ، حتى أنه الح في المطالبة بأن يؤدي كل واجبه تاركا للمحدثين الضرب على نغمة الحقوق))[3].

وقد دارت معظم مقالات وخطب أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وزعمائها حول هذا المشروع الحضاري الثقافي البديل ، الذي نادت به الحركة الاصلاحية . يقول الشيخ ابن باديس رحمه الله : ((ان الاسلام عقد اجتماعي عام ، فيه جميع ما يحتاج اليه الانسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه الا باصلاح عام على مبادئ الاسلام ، فالمسلم الفقيه في الاسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة))[4].

ويقول الشيخ البشير الابراهيمي رحمه الله ، موضحا نفس الفكرة: ((من الغلط أن يقال أن جمعية العلماء جمعية دينية ، يجب أن ينحصر عملها في الاصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس ، ومن فروع هذا الغلط ما رماها به بعض مرضى العقول وصرعى الجهل من أنها خرجت عن مداها حين زجت نفسها في بعض

---

(1) الرعـــد 11 .

(2) اعتبر جاك بيرك أن العلماء كانوا يمثلون أب الاستقلال الجزائري ، فقد ((. . . أهملوا المواجهة على المستويات السطحية وركزوا على تحقيق أصالة أي استمرارية جوهرية والوصول الى دخيلة الشعب التي تشكل مصدر اشعاع للقوى العميقة)).
 8: 11 /7 /1964
نقلا عن عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 — 1967) ترجمة محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بدون تاريخ ص 21 .

(3) مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي . ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق 1402 هـ — 1981م بدون طبعة .

(4) ابن باديس (حياته وآثاره) اعداد وتصنيف د عمار الطالبي ، دار اليقظة العربية ط 1 ، 1388 هـ 1968 م بدون مكان للطبع ، الجزء الثالث ، ص 559 .

شؤون الحياة غير الدين .

والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم تكوينها للاصلاح الديني والاجتماعي ، وكل ذلك يسع الاسلام ، وكذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها". فالاسلام دين واجتماع (...) وان الاصلاح الديني لايتم الا بالاصلاح الاجتماعي))(1).

والاسلام في الجزائر ليس دينا فقط ، ولكنه دين وجنس أيضا ، فلا فرق عند عامة الجزائريين بين العربي والمسلم .

وأثناء الاحتلال الفرنسي الذي اقتطع الجزائر من الوطن العربي ، وأزال منها ، أو كاد ، معالم الثقافة العربية ، أصبح الدين هو الوطن ، وهو القومية للجزائريين ، لأن فرنسا اعترفت بالدين الاسلامي للجزائريين رغم محاربتها له وتحريفها اياه ((الاسلام الجزائري))(2) .

وقد ظلت عروبة الجزائر رغم مخططات الاستعمار ، التي سعت الى الفرنسة والادماج ، والتفرقة ، والتمييز بين الجزائريين جزء من شخصية المجتمع الجزائري ، ف((الذاتية الجزائرية (...) هي عبارة عن العروبة والاسلام مجتمعين في وطن))(3)(4) كما يقول الشيخ البشير الابراهيمي رحمه الله(5) .

والواقع أن هذه العروبة في الجزائر ليست نزعة عرقية ، أو انتماء لجنس أو عنصر معين بقدر ما هي انتماء للحضارة العربية الاسلامية وتفاعلا معها وتأثرا بها وتأثيرا فيها . ونحن لا نقول هذا ارضاء لأجناس مختلفة متعايشة في الجزائر ، أو ردا على النزعة الشعوبية في الجزائر ، والتي زرع الاستعمار بذورها ليفرق بين الجزائريين الذين عجز عن سلخهم من ثقافتهم وجعلهم امتدادا حيويا لفرنسا ، ولكن لأن كل المعطيات والنتائج العلمية

---

(1) آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي ، ش . و . ن . ت الجزائر 1398 هـ 1978 م ط 1 الجزء الأول ، ص 215 .

(2) انظر د سعد الله : الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين ، مجلة الثقافة ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، السنة السادسة ، العدد 31 ص 24 .

(3) انظر د . عثمان سعدي : عروبة الجزائر عبر التاريخ — ش . و . ن . ت الجزائر ط 1 ، 1982 .

(4) محمد البشير الابراهيمي : عيون البصائر ، دار المعارف ، القاهرة 1963 بدون طبعة .

(5) يرى الامام ابن باديس رحمه الله : ((أن الأمم التي تدين بالاسلام ، وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الاسلام ، وهو لسان العرب ، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ، ويهتدون مثلها بهدي الاسلام)) ، واستشهد على هذه الفكرة بالحديث الشريف التالي : ((أيها الناس ، الرب واحد والأب واحد ، وأن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي)) .

انظر : عبد الحميد بن باديس ، حياته وآثاره ، الجزء الرابع ص 19 .

الانثروبولوجية تفند فكرة التمييز بين البشر على أساس عرقي أو بيولوجي ، وتنبذ فكرة النقاوة العرقية ، والموهبة الفطرية التي يحظى بها شعب دون آخر (1) .

((ان العرق أو الجنس اذا كان ذا تأثير في تكوين الشعوب في مرحلة من مراحل التاريخ ، واذا كان رابطة بين أبناء الشعب الواحد والقومية الواحدة في طور من أطوار التاريخ حين كانت ضرورة حيوية للتماسك والتضامن والتعاون في مضمار الحياة ، فليس الأمر كذلك حين تتجاوز هذه الشعوب تلك المرحلة الأولى من تاريخها ، وتتعدى طورا معينا من أدوار الحضارة (2))).

وفي العصر الحديث ((فان الاتجاه في تطور العوامل المؤثرة في تكوين الأمة (...) آخذ بالانتقال من العوامل المادية كالأرض والجنس أو العرق الى العوامل المعنوية ، كالثقافة والمعتقدات الفكرية والمدينية كلما ارتقت الحياة البشرية ، وتقدمت وتطورت (3))).

420389

ورغم الطابع الاقتصادي ، الذي يبدو في الظاهر على التكتلات العالمية الحالية ، فان هذا التقارب يستند بل ويوجب التقارب الثقافي والديني بين هذه التكتلات ، والأحلاف التي يمكن أن تكون أمما متحدة في المستقبل (4) .

---

(1) تثبت النتائج والمعطيات العلمية ما قرره الاسلام في القرآن الكريم والحديث الشريف من عدم وجود فروق بين البشر في الاستعدادات والمواهب ، لأنهم من أصل واحد ، ويشكلون جنسا واحدا رغم اختلاف الألسنة والألوان . يقول ولتون ماريون كروجيمان ، وهو باحث انثروبيولوجي غربي معروف : ((وما من شيء أيسر علينا من أن نقول ان البشر يشكلون جنسا واحدا ، أو نوعا واحدا ، وأن جميع الناس يتشابهون في صفاتهم المورفولوجية ، وهذا القول صحيح ، فالبشر يلتقون في جميع التفصيلات الجسمية الرئيسية والمهمة ، في الدماغ ، والجهاز العصبي المحيطي ، والدم والأوعية الدموية ، وجميع الأحشاء والعضلات حتى في التفصيلات الخاصة بالتضميم الهيكلي ، وهذا يعني أننا في الواقع نلتقي في النمط التكويني الأساسي (...) ان أوجه الشبه تطغى كثيرا على أوجه الاختلاف)).

من مقالة بعنوان : مفهوم العرق ، الانثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، رالف لنتون ، ترجمة عبد المالك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين 1967 بدون طبعة .

(2) محمد المبارك : الأمة والعوامل المكونة لها ، سلسلة المجتمع العربي رقم (1) ، دار الفكر ، دمشق بدون تاريخ ص 48 .

(3) نفس المرجع والصفحة .

(4) مما يؤكد رأينا هذا عدم قبول تركيا في السوق الأوربية المشتركة ، مع أنها تقع في أوربا ، ورفض طلب المغرب الاقصى كذلك بالانضمام الى هذه السوق بحجة ثقافته العربية الاسلامية التي تختلف عن الثقافة المشتركة لدول السوق الأوربية المشتركة

ان الاسلام ، وهو المقوم الأساسي للشخصية الجزائرية ، ليس شعائر تعبدية وطقوسا فردية تزلكنه دين ودولة، عقيدة ونظام حياة متكامل ،[1] يرتبط ارتباطا وثيقا باللغة والتاريخ والثقافة والاخلاق والاقتصاد والسياسة ، واذا كان المجتمع الجزائري قد استطاع — كما أسلفنا — المحافظة على شخصيته بفضل الاسلام، فانه ((على الرغم من الانتصار الضخم الذي أحرزته ثورة التحرير عندما استعادت الاستقلال الوطني ، ووفرت شروط انبعاث سليم للشخصية الوطنية ، فان الخطر الذي يتهددها لم يزل بزوال الاستعمار فالشخصية الوطنية ما تزال تواجه أخطر غزو يتمثل في سلبيات عدد من الثقافات الأجنبية))[2].

ان العالم الاسلامي الذي تكون الجزائر جزءا لا يتجزأ منه ((لا يستطيع(. . .) أن يجد هداه خارج حدوده ، بل لا يمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته ، ولكن عليه أن يبحث عن طرق جديدة ليكشف عن ينابيع الهامه الخاصة))[3].

وليس معنى هذا أن يعيش هذا العالم في عزلة عن العالم الغربي وحضارته التي تمثل تجربة انسانية كبرى ، بل المهم أن ينظم علاقاته معه ، وأن يدرك أن صدق الظواهر الأوربية مسألة نسبية ،[4] وأنه لا يمكنه أن يجد كل الحلول التي يبحث عنها في هذه التجربة فيستفيد من ايجابياتها وهي كثيرة، ومن سلبياتها التي ربما كانت أكثر ((هذه التجربة التي تعد لكونها خطيرا لفهم مصائر الشعوب والحضارات، هي جد مفيدة لبناء الفكر الاسلامي ، لأنها صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الانسان من نجاح ، وأخطر ما باءت به من اخفاق وادراك الاحداث من كلا الوجهين ضرورة ملحة للعالم الاسلامي في وقفته الحالية، اذ هو يحاول ما وسعته المحاولة — منذ قضية فلسطين — أن يفهم مشكلاته فهما واقعيا ، وأن يقوم أسباب نهضته ، كما يقوم أسباب فوضاه تقويما موضوعيا))[5].

ان أخطر ما يواجهه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال هو خطر التغريب[6]

---

(1) انظر محمود شلتوت في كتابيه: ((الأسلام عقيدة وشريعة))و((من توجيهات الاسلام)) .

(2) الميثاق الوطني ص 11 .

(3) مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 126 .

(4) تؤكد هذه الحقيقة التغييرات العميقة ، الاقتصادية والاجتماعية التي تحدث في المعسكر الشرقي ، وفي غيره من الدول الاشتراكية .

(5) مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 112 .

(6) يعني مفهوم التغريب : ((خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه ، ثم تحاكم الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ، ولا سيما الحضارة الاسلامية)).

انور الجندي : شبهات التغريب في غزو الفكر الاسلامي ، المكتب الاسلامي 1398 هـ — 1978 م دمشق ، بيروت ، بدون طبعة ، ص 13 .

والغزو الثقافي الذي[1] راهن عليه الاستعمار ليبقى الجزائر في فلكه حتى بعد خروجه منها ، وقد وجد هذا الغزو الجو المناسب في ظروف جزائر ما بعد الاستقلال الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي الظروف الحضارية التي يعيشها العالم الاسلامي ككل ، فوقع استيراد الحلول والمناهج الغربية ، التي لا تنسجم مع معتقداتنا وذاتيتنا[2] الاسلامية ، وضاعت جهود معتبرة وطاقات كبيرة ، وما تزال تضيع في التكيف مع هذه الحلول التي لم تجد ولن تجدي في المستقبل بالتأكيد أن في الجزائر أو في غيرها من المجتمعات الاسلامية .

ومع أن دعاة التغريب قد طرحوا — بعد النكسة — فكرة علمنة الذات العربية ، واخراج الجيل الجديد من اطار الدين[3] ، فان ((هذه الهزيمة المباركة — أو بعبارة أدق ذلك النصر السعيد للواقع على الوهم — (قد) حررت العقل والضمائر التي كانت تخنقها الفوضى))[4] فوضى الحلول والمناهج المستوردة ، التي لم تجن منها المجتمعات الاسلامية نفعا يذكر كما أسلفنا ، ولم تعطها الفاعلية الكافية لا ستعادة طاقتها وقدرتها على الابداع التي افتقدتها بافتقاد ايمانها بربها ودينها وتمسكها بأصالتها وعقيدتها .

ويبدو الحل واضحا الآن أمام المجتمع الجزائري أو غيره من المجتمعات الاسلامية للخروج من هذا المأزق الحضاري ، الذي طال أمده ، انه تغيير النفس الذي دعا اليه القرآن الكريم لتغيير المحيط بعد ذلك وتغيير النفس معناه تمكينها من أن تتجاوز وضعها المألوف عن طريق الدين ، الذي يجدد الصلة بالله ، ويغير النفس الاسلامية . وليس المقصود بتجديد الايمان بالله هو تعليم المسلمين أمور العقيدة الاسلامية التي لم يتخلوا عنها مطلقا ، ولكن هذه العقيدة أصبحت نزعة فردية لا صلة لها بالحياة ، عقيدة ((تجردت من فاعليتها لأنها فقدت اشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية ، وصار الايمان ايمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي . وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها ، وانما المهم أن نرد الى هذه العقيدة

---

(1) استهدف الغزو الثقافي تدمير الشخصية العربية الاسلامية ، وفي مقدمتها الرسول (ص) وصحابته ، كما ركز على احياء النماذج الشاذة ، وليست هذه الطريقة بجديدة على الفكر الاسلامي ، فقد تعرض من قبل لهيمنة الفكر الوافد اليوناني والهندي والمجوسي واليهودي ، ولقد ظل المسلمون قادرين على ذلك في العصر الحديث ، ولعلهم كانوا أقدر عليه من مجال الحروب والجهاد ، وتجلى هذا في صمود الجزائريين ومقاومتهم فناء شخصيتهم العربية الاسلامية أكثر من 130 عاما .
أنور الجندي : شبهات التغريب في غزو الفكر الاسلامي ، المكتب الاسلامي 1398 هـ — 1978 م ، دمشق بيروت ، بدون طبعة ، ص 13 .

(2) ((أكثر الدعاوي الباطلة التي يثيرها التغريب هي عالمية الثقافة ، والحضارة البشرية ، ووحدة الفكر البشري وكلها دعوات لها دواخلها وغاياتها المرتبة التي تتمثل في مفهوم واحد هو (تذويب) الفكر العربي الاسلامي و(احتواؤه) وصهره وبوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمي السياسي المسيطر)) .
أنور الجندي : شبهات التغريب ، ص 18 .

(3) انظر كتاب الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر لمؤلفه السيد يسين وكتاب : قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية لمؤلفه : د . علي زيعور .

(4) مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 134 .

وفاعليتها وقوتها الايجابية ، وتأثيرها الاجتماعي))[1] ؛

فهل يمكن تحقيق هذا الشرط في حالة المجتمع الجزائري الراهنة ، وكل المجتمعات الاسلامية ؟

((ان التردد في الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب لا يدل الا على جهل بالاسلام ، وبصفة عامة بتأثير الدين في الكون، فان قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ ، فجوهر الدين حسب العبارة الشائعة صالح في كل زمان ومكان))[2].

ولعل الصحوة الاسلامية المباركة ، التي تعرفها الجزائر ـ رغم الظروف الصعبة التي تجتازها ـ أن تكون خطوة ثابتة في طريق ازدهار شخصية المجتمع الجزائري الاسلامية . وعلى كل فان هذه الصحوة ليست وليدة الصدفة أو نتيجة الظروف الداخلية والخارجية، التي يمر بها المجتمع الجزائري ، انها فكرة أصيلة في هذا المجتمع المسلم ، ومذرة من بذور الحركة الاصلاحية الدينية ، التي رعت هذه الفكرة واستودعتها تربة الجزائر الزكيـــة[3] ،

وقد اخترنا في هذا البحث دراسة الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار ، لاعتقادنا بأن الفن عامة ، والأدب خاصة عامل هام من عوامل تطور الظاهرة الاجتماعية . ((ان الكلمة لمن روح القدس، انها تساهم الى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية[4] ، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد ، اذ تدخل في سويداء قلبه ، فتستقر معانيها فيه ، لتحوله الى انسان ذي مبدا ورسالة))[5].

ان للفن علاقة قوية بالدين ، وقصة التقاء الفن بالدين ضاربة في أعماق التاريخ ، لأن ((الدين دائما وسيلة نظيفة لغاية نبيلة ، والفن الصحيح ـ هو الآخر ـ وسيلة نظيفة لغاية نبيلة، لحمتها الصدق والأصالة والوعي والاثارة المجدية والتحريض من أجل اقامة عالم أفضل ، وهكذا يلتقي الفن بالدين))[6] . فالدين والفن كلاهما يعمل على احداث التغيير الايجابي في ضمير الفرد والمجتمع .

---

(1) مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 48 .

(2) مالك بن نبي : شروط النهضـــــــة ، ص 58 .

(3) يوضح الأستاذ مالك بن نبي هذه الفكرة فيقول رحمه الله : ((ان الأفكار التي تتمكن من الضمير الانساني فتصبح جزءا منه لا يمكن أن تفنى ، وغاية الأمر أنها قد تختط طريقها أحيانا في حنايا الضمير، ثم تنبجس منطلقة في اللحظة التاريخية ، وقد اتخذ صيغة أخرى)).

مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 149 .

(4) هكذا في الترجمة ، والأنسب في رأينا : نشوء .

(5) مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 22 .

(6) نجيب الكيلاني : الاسلامية والمذاهب الأدبية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة 1405 هـ 1985 م صفحـــــة 16 .

انظر أيضا ((مدخل الى الأدب الاسلامي)) لنفس المؤلف .

ورغم ما عانته الثقافة العربية الاسلامية في الجزائر أثناء الوجود التركي[1] الذي لم يخدمها بما فيه الكفاية، والاحتلال الفرنسي الذي حاول انكارها واستئصالها بالمرة خدمة لهدفه الاستيطاني ، فان الأدب الجزائري قد ازدهر بعد ركود طويل في الشعر خاصة[2] ، وفي النثر[3] مع الحركة الاصلاحية ، وخاصة مع جمعية العلماء[4] ، التي كان من أهدافها احياء الثقافة العربية الاسلامية عن طريق التعليم والتربية والصحافة .

وقد تأخر ظهور الرواية العربية في الجزائر بشكلها الناضج الى ما بعد الاستقلال[5] ، لأسباب عديدة أهمها ما تعرضت له الثقافة العربية في الجزائر من استئصال وابادة في ظل الاحتلال وقطع لكل الصلات مع بقية البلدان العربية ، وعدم توفر الظروف المادية والنفسية والذهنية لكتابة الرواية وقراءتها ، فاتجه الأدباء قبل الثورة وأثناءها الى الشعر والقصة للدفاع عن الشخصية الوطنية وأداء الرسالة الاجتماعية وبث الحماسة والتعبير عن الانفعال الآني وواقع الحياة اليومي .

واذا كان ظهور الرواية العربية في الجزائر قد تأخر الى فترة السبعينات ، فان بذور هذه الرواية قد ظهرت قبل ذلك[6] ، لتصب في نفس السياق الذي عبر عنه الشعر والقصة ، فقد دافعت رواية ((غادة أم القرى))

---

(1) انظر عن الثقافة الجزائرية في هذه الفترة الدكتور أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16 — 20م) ، الجزء الأول والثاني .

(2) انظر الدكتور محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925 — 1975) .

(3) انظر الدكتور عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث (1830 — 1974) .

(4) انظر محمد ناصر في كتابه : المقالة الصحفية الجزائرية (1903 — 1931) والصحف العربية الجزائرية (1847 — 1939) .

(5) انظر الدكتور عبد الله ركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث .

— الطاهر روابنية : اتجاهات الرواية العربية في بلدان المغرب العربي (1945 — 1975) رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر 85/ 86 ، ص17/ 39 .

— د . سيد حامد النساج : بانوراما الرواية العربية الحديثة ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ، ط 1 ، 1982 ص218/ 219 .

(6) هذه الروايات هي :

— غادة أم القرى — رضا حوحو 1947 .

— الطالب المنكوب — عبد المجيد الشافعي 1948 .

— الحريــق — نور الدين بوجدرة ، دار النشر ، تونس 1957 .

تاريخ الانتهاء من كتابة الرواية نوفمبر 1957

— صوت الغــرام لمحمد منيــــع 196٠ .

لأحمد رضا حوحو عن المرأة المكبلة بقيود التقاليد، وعن حقها في اختيار الزوج الذي ترضاه لنفسها[1]، وتحدثت رواية الحريق التي كتبت خلال الثورة التحريرية عن مقومات الشخصية الوطنية، التي مكنت الشعب الجزائري من الصمود والمقاومة ((ما أبعد فرنسا عن الجزائر، وما أبعد الاسلام عن المسيحية، وما أبعد العربية عن اللاتينية))[2]، ودعت الى اقامة الدولة الاسلامية ((ان الحكومة الآن تتجاهل الواقع، فتدعي أنه لا يعقل للجزائر أن تكون دولة اسلامية))[3].

وحوت رواية ((الطالب المنكوب)) لعبد المجيد الشافعي، وهي قصة بسيطة في شكلها ومضمونها هموما ذاتية[4]. ولم تختلف عنها رواية ((صوت الغرام)) لمحمد منيع، رغم أنها كتبت في فترة الاستقلال[5] فاكتفت بسرد قصة حب تقليدية، ولم تشر الى مظاهر الاستقلال والتغييرات الحاصلة بفعله، والواقع السياسي والاجتماعي في البلاد عامــــة.

وقد حفلت هذه الأعمال الأدبية المذكورة بالوصف الانشائي المنفصل عن الأحداث الروائية والنبرة الوعظية والخطابة والمباشرة وعدم التسلسل، والحس الرومانسي الفج، وتعمد الاثارة والصدفة، كما خلت من التحليل العميق للدوافع النفسية، واكتفت برصد الأخبار والأحداث والوقائع الخارجية[6] بلغة تقريرية جافــة ومليئة بالأخطاء في الكثير من الأحيان. ومع هذا فان لهذه الأعمال الأدبية الرائدة فضل التأسيـــس للرواية العربية في الجزائر.

---

(1) لخص أحد الباحثين العوامل التي ساعدت حوحو على كتابة الرواية فيما يلي:
أ ـ امتلاكه لزمام اللغة الفرنسية.
ب ـ اقامته الطويلة في المشرق العربي.
جـ ـ اطلاعه عن كثب عما وصلت اليه القصة العربية على يد كتابها آنذاك (محمود تيمور، طه حسين المازني، توفيق الحكيم، يحي حقي.
د ـ وعيه الناضج بضرورة ايجاد قصة جزائرية.
الطاهر روابنية: اتجاهات الرواية العربية (رسالة ماجستير) ص 58.

(2) الحريق ص 19، انظر كذلك ص 21. 22. 32. 40. 45. 56. 70.

(3) نفس المصدر، ص 69.

(4) انظر تطور النثر الجزائري الحديث. د عبد الله ركيبي ص 198.

(5) انظر عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 ـ 1967) ترجمة د. محمد صقر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، بدون طبعة، ص 290/ 291.

(6) يعلق نور الدين بوجدرة على روايته ((الحريق)) بما يلي:
في الحقيقة يبدو هذا الكتاب كتابا اخباريا سياسيا لا قصة كاملة، لقد كان في حسباني أن أؤلف كتابا سياسيا صرفا، لكن بعد الدرس والتفكير رأيت أنه سيكون مملا، فاخترت له بطلين يقوم كل واحد منهما بدور الشاهد والساخط والمتحمس المناضل.
نور الدين بوجدرة ـ الحريق ـ ص 100.

ومع بداية السبعينات ظهرت الرواية العربية الناضجة في ظل الشروط الجديدة التي وفرها الاستقلال الوطني[1]. وكان عبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار، ومقطاش مرزاق، والأعرج واسيني، وسعيداني الهاشمي وغيرهم وجوه بارزة في مسيرة هذه الرواية.

وقد تشعبت مواضيع الرواية العربية بعد الاستقلال، وتعددت اهتماماتها، وركزت خاصة على المشاكل الاجتماعية الملحة، التي خلفها الوجود الاستعماري الطويل، وعلى الجهود المعتبرة التي بذلت في عهد الاستقلال لحلها.

كما ناقشت قضايا المجتمع الثقافية وعلاقتها بهذه التنمية، ودورها في الثورة التحريرية التي أنهت الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

واختلفت آراء الأدباء في هذه النقطة، وعبرت رواياتهم عن وجهات نظر مختلفة.

وقد حظيت هذه الرواية باهتمام الباحثين، الذين تناولوها بالدراسة والنقد، فتعددت المؤلفات والبحوث الأكاديمية التي ألقت الضوء على نشأة الرواية العربية في الجزائر، واتجاهاتها الفكرية والفنية[2] وخاصة بعد أن كثر الانتاج الروائي في فترة السبعينات وما بعدها[3]. وعندي أن أهم اتجاهات الرواية العربية الجزائرية هي التالية:

---

(1) انظر د سيد حامد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص 219، وانظر أيضا مقالا لنفس المؤلف
— فصول — المجلد الثاني 1981.
— الطاهر روابنية: اتجاهات الرواية العربية رسالة ماجستير، ص 59، 60.
— الأعرج واسيني: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (م. و. ك) الجزائر 1986 بدون طبعة
ص 88 وانظر لنفس المؤلف مجلة الطريق 3/ 4، 1981.

(2) من هذه المؤلفات:
— الرواية العربية الجزائرية الحديثة، للدكتور محمد مصايف، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1983 بدون طبعة.
— اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. د الأعرج واسيني.
— تطور ملامح البطل في الرواية الجزائرية: رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب 84/ 1985.
— الاتجاه الوطني في الرواية الجزائرية المعاصرة المكتوبة باللغة العربية (1947 — 1984)
رسالة ماجستير، عفار محمد، جامعة بغداد 1406 هـ — 1986م

الروائيين الذين نشروا روايات، ابتداء من هذه الفترة: عرعار محمد العالي، عبد الحميد بن هدوقة
... طار، جروه علاوة وهبي، عبد المالك مرتاض، عبد العزيز بو شفيرات، مرزاق بقطاش، جيلالي خلاص
... يني، محمد أمين الزاوي، اسماعيل غموقات، الهاشمي سعيداني، رابح خدوسي، علاوة بوجادي
... الشريف شاتلية، سعدي ابراهيم، محمد مفلاح، محمد حيدار، وغيرهم.

(1) الاتجاه الوطني الاصلاحـــــي :

وهو الاتجاه الذي استهلت به الرواية الجزائرية مسيرتها ، ومن أهم أعلامه أحمد رضا حوحو ((غادة أم القرى)) 1947 . ونورالدين بوجدرة ((الحريق)) 1957 . وعبد المالك مرتاض ((بانوراما 1975)) . وزهور ونيسي ((من يوميات مدرسة حرة 1979)) .

وقد جسد هذا الاتجاه الحس الوطني الاسلامي ، الذي حاولت الحركة الاصلاحية ، وخاصة جمعيـــة العلماء احياءه وبعثه في نفوس الجزائريين .

(2) الاتجاه الوطني الاشتراكـــــي :

وفي اطار هذا الاتجاه ظهرت أكثر الروايات الجزائرية المعاصرة . ومن أهم أعلامه عبد الحميـــد بن هدوقة ، الطاهر وطار ، الأعرج واسيني ، جيلالي خلاص ، اسماعيل اغموقات ، على اختلاف بين روائي هذا الاتجاه في المستوى الفني وفي المضامين كذلك .

ولكن أصحاب هذا الاتجاه يتفقون على اختلاف بينهم كما أسلفنا ، على ضرورة تبني الحل الاشتراكي للخروج من الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يعيشها المجتمع الجزائري .

وقد استند هذا الاتجاه على الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي طبقت في الجزائر بعد حركة جوان 1965 ، التي اعتبرها هؤلاء الروائيون نقطة تحول نحو الاشتراكية .

(3) الاتجاه الوطني الاسلامـــــي :

ويمثله روائيان ، هما بقطاش مرزاق ، وسعيداني الهاشمي ، وهما من أقدر الروائيين الجزائريـــين المعاصرين ، ولكنهما لم يحظيا باهتمام النقاد والدارسين ، وخاصة سعيداني الهاشمي ، الذي تثير روايته الأولى ((المضطهدون)) الانتباه في رأيي ، لما فيها من مستوى فني عال بالنسبة لرواية هي الأولى لصاحبها .

ونلمس في هذا الاتجاه بذور اتجاه اسلامي للرواية الجزائرية وان لم يتبلور بعد بما فيه الكفاية .

وروايات بقطاش مرزاق وسعيداني الهاشمي لا تقل نضجا في رأيي عن الروايات الجزائرية الأخرى فقد استفادت من تقنيات الرواية العربية والعالمية ، وحاولت التعبير عن هموم المجتمع الجزائري المادية والمعنوية وربطت ذلك بشخصيته العربية الاسلامية .

يؤمن وطار ـ الذي حاولنا بحث موضوع الشخصية الدينية في رواياته ـ بالاشتراكية العلمية ، وضرورة تطبيقها في الجزائر ، وقد تأكد لـديه هذا الايمان وازداد تحمسا له بعد حركة جوان 1965 والاصلاحات الاقتصادية الاجتماعية الى تلتها .

وقد كتب رواياته الخمس التي عرضنا لها في بحثنا انطلاقا من هذه القناعة ، فحاول في رواية ((اللاز)) الأولى ابراز دور الشيوعيين في ثورة التحرير الوطنية ، كما حاول في ((الزلزال)) مساندة قرارات الثورة الزراعية وفي ((اللاز)) الثانية أبرز حركة التطوع الطلابية للثورة الزراعية . أما في ((عرس بغل)) و ((الحوات والقصر)) فقد وظف التراث ، والتاريخ ، والأسطورة ، والذهنية الشعبية عامة ، لابراز هذه الفكرة ، التي كانت كما قلنا منطلقة في كتاباته الروائية خاصة .

الفصـــــــل الأول

الحركـــــة الاصلاحيـــــة

حظي الدين باهتمام كبير في الرواية الجزائرية ، فلم تخل رواية من الاشارة الى قيمه وأحكامه في مواقف متباينة تصل أحيانا الى حد التناقض بين رواية وأخرى . ولكن الدين في كل الاحوال كان موجودا بشكل أو بآخر في النصوص الروائية . ومن هنا تأتي أهمية الحديث عن الدين في الرواية الجزائرية خاصة ونحن نعلم مكانتـــه في تركيبة المجتمع الجزائـــري ونفسيات أفراده .

وقبل أن نبدأ الحديث عن الشخصية الدينية في روايات وطار لابد من الاشارة الى حقيقة واضحة ، وهـي أن المفهوم الحقيقي للعبادة في الاسلام ليس هو أداء الشعائر المعروفة فقط ، بل أن كل تصرف يأتيه الشخـص هو مما أباحه الله أو أوجبه أو نهى عنـه .

وهذه حقيقة واضحة حتى عند عامة المسلمين ، فكل فعل مسيء الى الغير من حقد أو أذى أو غش فـــي العمل أو تقصير في أداء الواجب يقال لصاحبه ردعا له : انك لست مسلما .

فالاسلام ينظم العلاقة بين الله والعبد من جهة ، وبين العبد والعبد ، وبين العبد والكون من حولـه ولكن هذه النظرة الشمولية للاسلام التي تجعله نظاما كاملا للحياة يشمل كل تصرف يتصرفه الانسان ، بدأت تنحصر في نفوس المسلمين بفعل الابتعاد عن الاسلام ، تحت تأثير الجهل بحقيقته من جهة ، وبفعل التأثر بنظرة الغرب الى الدين كاعتقاد شخصي محدود لا أثر له في علاقة الناس ببعضهم ، وفي نظام الحياة ككل من جهـــة أخـــرى .

ولهذا نجد الاسلام بالمفهوم الحقيقي له يكاد يكون غائبا من معظم الروايات الجزائرية ، تأثرا بالواقـع الراهـن وقصورا عنه ، بالنظر للصحوة الاسلامية التي تشهدها الجزائر ، كما تشهدها باقي الاقطار الاسلامية .

ورغم ما قدمناه من ملاحظات حول مفهوم العبادة في الاسلام ونظام الحياة فيه ، فاننا بعد قراءة روايات وطار ، وجدنا أن للشخصية الدينية صورا مختلفة تظهر بها في هذه الروايات . فخصصنا لكل صورة منها فصلا نتبين فيه ملامح هذه الشخصية الموضوعية منها والفنية دون فصل بينهما — رغم الصعوبة التي واجهناها في هـــذا المزج — ادراكا منا لاهمية النظرة المتكاملة الموحدة للعمل الادبي شكله ومضمونه .

ان روايات وطار كما أسلفنا حافلة بالشخصيات الدينية المتنوعة التي تغطي تاريخ الجزائر المعاصـــر سواء قبل الثورة أو خلالها ، أو في الفترة الآنية من تاريخ الجزائر في ظل الاستقلال ، وما جرى ويجري فيه مـــن تحولات ثقافية واجتماعية واقتصادية ، ونظرا لهـذا التنوع والتعدد في الشخصيات الدينية عند وطار فقد خصصنا لكل نوع منها فصلا نتحدث فيه عنها ، ونحاول معالجتها بالطريقة المتكاملة التي أشرنا اليها .

يرتبط الاصلاح الديني في الجزائر عند الكثيرين بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في ماي 1931. وكان أغلب أعضائها من العلماء المصلحين الذين تولوا المناصب الهامة في هذه الجمعية ولكن حركة الاصلاح اذا كانت قد نضجت وتحددت بانشاء الجمعية عام 1931 فانها قد بدأت في أوائل هذا القرن(1).

وقد حددت الجمعية لنفسها هدفا واضحا وان كان بعيد المنال، وهو اصلاح الدنيا بالدين، فعملت على الخروج من حالة التخلف المزرية التي آلت اليها البلاد تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، بالتغيير في نفوس الجزائريين، ليغيروا بعد ذلك محيطهم وواقعهم الذي يعيشونه، طبقا للآية الكريمة التي تقول: ((ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))(2) ولكن ذلك لم يكن سهلا بطبيعة الحال، نظرا لصعوبة العمل الثقافي من جهة، ونظرا أيضا لطبيعة الاستعمار الاستيطاني المطبق في الجزائر، وقد اقتصرت جهود الجمعية على الجانب الديني الثقافي دون محاولة للمواجهة المباشرة حتى تتمكن من أداء مهمتها في ظل الاستعمار، ولكن مفهوم الدين الاسلامي الذي سبقت الاشارة اليه كان سيؤدي حتما بالجمعية الى المواجهة المباشرة مع المستعمر خاصة بعد اتساع عملها وشموله ووصوله الى أنحاء عديدة من الوطن. ولم تغب هذه الحقيقة عن ذهن الاستعمار الذي قيد عمل الجمعية ونكل بأعضائها العلماء منهم والمعلمين، وأغلق مكاتبها ومدارسها.

وهكذا فان مفهوم الاصلاح عند الجمعية لم يكن مجرد ترقيع وتعمية للابقاء على الاوضاع كما هي، كما يعتقد البعض، ولكنه مواجهة ثقافية شاملة، تحرر الانسان وتنمي وعيه الحضاري واعتزازه بذاته، ليثور بعد ذلك على الوجود الاستعماري كله، كما حصل في الثورة التحريرية المجيدة التي كان للشخصية الاسلامية — التي ساهمت الجمعية في احيائها وبعثها — دور أساسي في الانتصار على العدو وتحقيق الاستقلال.

لم تخل روايات وطار ككل الروايات الجزائرية من الشخصيات الدينية الاصلاحية التي احتلت أدوارا أساسية في الكثير من هذه الروايات.

ولئن اختلفت نظرة الروائيين الجزائريين الى طبيعة هذه الشخصية من حيث دورها الايجابي أو السلبي في مسار الاحداث الروائية، فانهم جميعا قد أبرزوا طابع التدين عندها، فصاحبها يحافظ على الشعائر الاسلامية ويرتاد المساجد، ويحفظ القرآن أو شيئا منه، وغالبا ما يكون مؤديا لفريضة الحج، كما يكون على جانب من الثقافة الدينية في أغلب الاحيان، وعلى علاقة ما بجمعية العلماء، كأن يكون عضوا فيها، أو متتلمذا على

(1) انظر أبو القاسم سعد الله — الحركة الوطنية الجزائرية (1930 — 1945) ج 3، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1975. ص 88/ 93.

(2) الرعد / 11.

الشيخ بن باديس، أو على الاقل من أنصارها الحاملين لافكارها . ولعل هذا ما يحدد سن هذه الشخصية التي تنتمي الى جيل ما قبل الثورة، وتكون قد تخطت مرحلة الكهولة الى الشيخوخة ، وان بقيت في كامل قواهـا العقلية والجسدية .

ـ ولا تتحدد هذه الشخصية بما ذكرناه فقط ، فهذه صفات عامة ، ولكنها تتحدد أيضا بجملة سمات نفسية ومواقف فكرية ، تجعلنا نميز بوضوح هذه الشخصية عن غيرها .

ومن أهم الشخصيات الروائية التي جعلها الروائي وطار نموذجا للشخصية الاصلاحية شخصية عبد المجيد بو الارواح بطل رواية الزلزال التي تدور أحداثها في مدينة قسنطينة (1)، هذه المدينة التي أسهمت بقسط وافر فـي الاصلاح ، والمعروفة بمكانتها التاريخية والدينية العريقة ، والشيخ عبد المجيد ينتمي الى احدى الاسر في هذه المدينة ، وان لم يعد يقيم بها منذ مدة طويلة (الزمن الروائي).

وفي غضون ساعات قلائل هي كل زمن الرواية ، يجري وطار بمقدرة فنية متميزة أحداث الرواية ، ويرسم شخصية بو الارواح التي لا يقدمها المؤلف بنفسه بقدر ما تقدم نفسها بنفسها ، من خلال الحركة والحوار والفصل والوصـف الحي لهذه الشخصية .

وقبل أن نعالج البناء الموضوعي الفني لهذه الشخصية سنقدم تعريفا دقيقا وأمينا لهذه الشخصية كما تصفها الرواية ، دون تدخل منا أو تعليق .

عائلة بو الارواح :

ينتمي عبد المجيد بو الارواح الى عائلة عريقة في قسنطينة ، فقد كان جده الاكبر عظيما وزعيما لقومـه . قاتلت قبيلته العدو الفرنسي ببسالة في أول الامر ، لكن الفرنسيين لما لاحظوا استماتة رجال قبيلته في الدفـاع عن أرضهم اتصلوا به خفية ، ووعدوه ببقائه زعيما على قبيلته ، وباعطائه الامان والارض، فأضمر الخيانة وأمر رجاله بالهجوم بدل الدفاع ، وبعدم المبادرة بالضرب قبل أن يعطي الاشارة ، وعندما أصبح مع رجاله في الكمين أمرهم بالتسليم وفتح الباب بذلك لفرنسا . ((دخل الفرنسيون المنطقة . قتلوا كل قادر على حمل السلاح ، وحبلوا النساء وطلقـوا لابـي النياشين ، وأعلنوه زعيما ، وأعطوه أرضا كبيرة . كل الارض .))(2)

وورث جده المباشر النياشين والزعامة والارض عن أبيه ، وازدادت مرتبته عند الفرنسيين عندما أخضع أفراد قبيلته الذين اعتصموا بالجبال ورفضوا المشاركة في غزو المغرب وتونس ، ولكن المعمرين اقتسموا معه الارض

---

(1) الطاهر وطار ــ الزلزال ، دار العلم للملايين (بيروت) والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 1 ، بيروت 1974 .
(2) الزلزال ، ص 172 .

وحافظ أبوه على هذه الاملاك لمشاركته في حرب الشام ونصب قائدا ، وبقي هو الوحيد الذي يملك الارض وسط المعمرين ، وأراد أن يستكمل الجاه والمال بالعلم الذي فاته ولم يرد أن يفوت ابنه عبد المجيد الذي سيرث مجده : ((يابني عائلة بو الارواح عظيمة : عظيمة بالجاه والمال ، لكن بقيت فيها خدشة : لقد نقصها العلم التفقه في الدين واللغة)).(1)

ومن أجل استكمال هذا النقص علم ابنه ، لا حبا في الدين والعلم ولكن لأن التعلم وسيلة عظيمة أخرى الى جانب المال والجاه ، فبواسطته ينال تقدير قومه الخاضعين له ، وتقدير الفرنسيين الذين يحتاجون اليه في اخضاع السكان والتمكن من حكمهم .

واذا كان أفراد عائلة بو الارواح شديدي الحساسية لجزائريتهم ، فليس ذلك اخلاصا للوطن والوطنية ولكنه أضمن للفائدة ، وأجلب للنفع : ((أن نكون جزائريين عظماء خير من أن نكون فرنسيين عاديين)).(2) ولذلك فانهم لايرون بقية الجزائريين الا خدما وعبيدا وأحجار واد لاغير.(3)

ورث عبد المجيد كل هذه الصفات عن آبائه ، فلم يكتف بالعلم ، بل حافظ على أرض أبيه ونماها بطرق غير مشروعة سيأتي ذكرها .

تعلمه وساهمته في الاصلاح :

لاتذكر الرواية شيئا عن طفولة عبد المجيد بو الارواح ما عدا أنه كان وحيد أبويه ، اذ مات كل من سبقه من اخوته ومن جاء بعده . وأول حادثة تذكر له في طفولته زواجه المبكر وهو في سن الخامسة عشرة من عائشة ذات التسع سنوات التي لم يلبث أن فارقها بالهجرة الى تونس ليعود فيجد أن أباه قد قتلها خنقا بعد أن اغتصبها.(4) وقتل النساء في مثل هذه الظروف من عادات آل بو الارواح المتأصلة فيهم . اذ يتكرر الحديث عنه في الرواية مرات عديدة .

استجاب عبد المجيد لأبيه الذي شجعه على طلب العلم ، ورغم أن علاقة أبيه بالفرنسيين باعتباره قائدا كانت ستمكنه من التعلم بالفرنسية الا أن ذلك لم يتم لان ((الذين تعمقوا في العلوم الفرنسية لم يتميزوا بشيء قط كان أمرهم فانهم لن يكونوا خيرا من الفرنسيين.(5) ولهذا وجهه أبوه للدراسة بالعربية ، فتتلمذ على يد

(1) الزلزال ، ص 173 .
(2) الزلزال ، ص 175 .
(3) انظر نفس المصدر والصفحة .
(4) نفس المصدر ، ص 174 و 175 .
(5) نفس المصدر ، ص 173 .

الشيخ بن باديس، ثم انتقل الى جامع الزيتونة بتونس، وتخرج بعد عدة سنوات من الدراسة ليكون بعد ذلك مصدر عز وفخر للعائلة بما اكتسبه من علم، وبعد عودته من تونس هجر الريف الى مدينة قسنطينة، وانخرط في العمل مع الاصلاحيين. فساهم في التعليم والوعظ والارشاد كبقية المصلحين بزعامة الشيخ بن باديس.(1)

ولكن بو الارواح يقر هو نفسه بأنه ممن يختلف عن ابن باديس، رغم أنهم كانوا يحيطونه بحماس ظاهر فهو - أي عبد المجيد - تعلم ليكسب ويستفيد كما أسلفنا، لا ليعطي ويضحي. والدين عنده استقرار وابقاء للوضع عما هو عليه ما دام هذا الوضع في صالحه، وكل محاولة للتغيير ضلال في رأيه.(2)

ولذلك يحافظ بو الارواح على ايمانه بالأولياء والأضرحة مع أنه حاربها جنبا الى جنب مع ابن باديس ورفقائه. ((كنت ولا تزال، تبي، أن كل ما يربط العامة بالله، جائز شرعا، حتى ولو كان عبادة الاوثان. لم تجاهر برأيك ولكنك كنت شديد الايمان به.(3) لأن الفهم الصحيح للدين يبصر الناس بحقوقهم ويجعلهم يثورون لاصلاح أوضاعهم ((القول للعامة بعدم التعلق بقبور رجال العلم والدين، كالقول بعدم الصبر على قضاء الله، والثورة ضد الفقر)).(4)

وظيفتـه وأملاكـــــه :

وبعد الاستقلال تعددت وظائف الشيخ عبد المجيد الى فلاح - وان لم يكن متصلا بالارض - وأستـــاذ ومدير ورجل علم في محاولة منه للحفاظ على مكاسبه المادية والمعنوية التي ورثها عن آبائه من جهة، بالاضافة الى مكسب الوظيفة الذي حصل عليه بفضل الاستقلال. هذا الاستقلال الذي لم يشارك مواطنيه من أجل الحصول عليه.

حافظ عبد المجيد بو الارواح على ما ورثه من أراضي شاسعة عن أبيه بفضل علاقته الطيبة مع المستعمرين ((كانت لي اتصالات وثيقة بجيراني المعمرين))،(5) ووسعها على حساب أقربائه المعدمين الذين كانت الحاجة الماسة تلجئهم الى طلب مساعدته، فيستغل ظروفهم الحرجة ليأخذ أراضيهم بثمن بخس عن طريق رهنها بأثمان زهيدة يكونون في حاجة اليها، ولا يستطيعون ردها في الوقت المحدد فيستولي على أراضيهم مستعينا (بالجندرمـــة) فعل هذا مع ابن عمه عبد القادر الذي استعان به في شراء متجر للفرايل، ومع ابن خالته عيسى الذي سجـل أرضه التي تركتها له أمه باسمه دون علم منه، ومع ابن أخيه الطاهر الذي اشترى منه نصيب أبيه في ظـروف

(1) انظر الزلـــزال، ص 179 .

(2) انظر نفس المصدر، ص 18 و 41 .

(3) نفس المصـــــدر، ص 130 .

(4) نفس المصـــــدر، ص 130 .

(5) نفس المصـــــدر، ص 144 و 145 .

عائلـــــــــة .

وبهذه الطريقة توسعت ملكيته من الارض لتتجاوز الثلاثة آلاف هكتار ، تصل اليه أرباحها كل سنة ، فهو متغيب عنها يديرها عن بعد ، لاشتغاله بادارة احدى الثانويات في العاصمة .

ولم تقف شهوة كسب المال لدى بو الارواح عند حد استغلال أقاربه وابتزاز أراضيهم ، بل انه كان فـــي ماضية يتعامل بالربا أيضا . فكان يقترض المال من العجوز ايدير ملك الارض والانعام والنقود بفائدة عشرة في المائة من أجل أن يقرضه بفائدة عشرين بالمائة ويعجب هذا العجوز المرابي به فيشجعه على ذلك ((حوت يأكل حوت ... أنت تستحق نقودي فعلا ..))[1] ويبادله هو نفس الاعجاب والمحبة ((رحم الله الشيخ ايدير . كان عليا ، الى أقصى حد ، لا يستطيع المتعامل معه الا أن يتمنى له مزيدا من الثراء والجاه))[2].

شكلــــــــــه :

يجعل الكاتب من شخصية عبد المجيد بو الارواح نموذجا للاقطاعي والانتهازي ، ويرسم له شكلا يناسب هذه الصفة فيه ، فهو شيخ في حوالي الستين من العمر ، قصير القامة ، منتفخ البطن ، منقبض الاسارير ، بـادي النفور من الناس ، سرعان ما يتطاير الشرر من عينية ، وتتحول ابتسامته الذابلة الى تكشيرة حادة في وجه مـــن يحادثه . اذا مشى دفع نفسه دفعا ، وسار في التواء ((قدماه ترسمان خطوطا متقاطعة ، وبطنه وعجــزه يتلولبان ، ورأسه يرسم مرة نصف دائرة ، ومرة دائرة كاملة ، وذراعاه تتدليان))[3]. يلبس بدلة محترمة وحذاء أسود لماعا ، ويمتلك سيارة .

ولا شك أن اقامته بالعاصمة وشغله لمنصب مدير في التعليم الثانوي هما اللذان حتما عليه اللبـاس المحترم والسيارة ، ولو بقي في الريف لاكتفى بالزي التقليدي : البرنس والعباءة والعمامة لانها أنسب لعقليتـــه المحافظة ومبالغته في الحرص على المال ، ولو كان ذلك على حساب معيشته ورفاهيته الشخصية .

صفاتــه النفسيـــــة :

ان السمة التي تتميز بها عائلة بو الارواح كلها هي الانانية المفرطة ، وتتجلى هذه الصفة بوضوح لـدى عبد المجيد بو الارواح ، ويتصل بهذه الصفة الاساسية صفات أخرى ترتبط بها وتكملها ، مثل كراهية الآخرين والحقد

(1) الزلـــــزال ، ص 76 .
(2) الزلزال ، ص 76 .
(3) انظر الزلزال ، ص 62 .
(4) انظر الزلزال ص 55 .

عليهم ، واعتبارهم مجرد أحجار واد لا تصلح الا للمرور عليها . ولهذا لا يحتمل أن يصيب الخير هذا الغير، وأن ينعم الناس بنوع من العدل والمساواة ، ويستغل من أجل ذلك كل الوسائل بما فيها الدين ذاته للابقاء على جهل الآخرين وفقرهم وبؤسهم ، لأن في ذلك مصلحته الشخصية ولو كانت هذه المصلحة على حساب آلام ومعاناة غيره ومشقته .

بدأ عبد المجيد بو الارواح بأقرب الناس اليه فأذاهم واستغل عوزهم وحاجتهم لزيادة ملكيته من الارض كما أسلفنا ، كما حاول استغلالهم أيضا بعد الاستقلال ، وذلك بتقسيم الارض عليهم في الورق خوفا من تأميمها على أن تبقى عائداتها له وحده ، وألا ينتفعوا بها أو ينالوا ثمارها الا بعد موته . وموضوع الرواية هو البحث عن هؤلاء الاقارب الذين انقطعت صلته بهم منذ ما قبل الثورة ، لأنه لم يحتجهم خلال هذه الفترة كلها ولم يذكره بهم الا الاصلاح الزراعي الذي يهدد ملكياته الزراعية الواسعة .

وخلال بحثه عن هؤلاء الاقارب في مدينة قسنطينة ، يظهر الكاتب مدى الحقد والكراهية التي يكنها لغيره ويزيد هذا الحقد اشتعالا حالته النفسية ، وقد شعر بالخطر على أراضيه التي ستوزع على هؤلاء ((الرعاع)) من العمال والبطالين والمتسولين الذين هجروا قراهم ودواويرهم ، ليملأوا المدن بضجيجهم وعفنهم وفسقهم ويفقدوا قسنطينة بالذات صورتها الجميلة التي يعرفها عنها في عهد الاحتلال يوم أن كانت عامرة بالسادة المعمرين والاشراف والقادة والتجار ، وزاخرة بالغيد الاوربيات والاسرائيليات اللائي يملأن شوارعها بهجة وحبورا (1).

لذلك يتمنى أن يصيب الزلزال مدينة قسنطينة وساكنيها الجدد الذين قلبوا الامور في المدينة رأسا على عقب بدل أن يبقوا في الريف كما كانوا لصنع الفريك والسمن والصوف .

ولم تنج حتى نفسه من هذا الشر المتأصل فيه . فهو بخيل رغم أنه لا يصرف من عائداته الكبيرة الا على نفسه لانه وحيد لا زوج له ولا أبناء ، ومع هذا فهو شديد التقتير على نفسه ، يحاسبها على أتفه الامور ((راح يقرأ الحروف والارقام الدقيقة في النصف الاعلى من الصفحة .. ثمن أربع بطاريات كهربائية مستديرة من الحجم المتوسط ، زائد في مخروج شهر جويلية عن شهر جوان))(2).

الانحرافـــــ وعقمـــــــــه :

جعل الكاتب الانحراف النفسي والخلقي صفة متوارثة في عائلة بو الارواح ، ويتعدى هذا الانحراف الانانية المفرطة والبخل الشديد والحقد على الآخرين الى الشذوذ النفسي والجنسي الذي يجعل الاب لا يتورع

(1) انظر الزلـــــزال ، ص 12 .
(2) الزلـــــــزال ، ص 58 .

عن الزنى بزوجة ابنه ، والابن أيضا لا يتورع عن الزني بزوجة أبيه . كما يتصف أفراد هذه الاسرة بانحراف آخر خطير هو شهوة قتل الزوجة في نوبات صرع لا مثيل لها . يقول بو الارواح عن نفسه متحدثا عن زوجة أبيه التي قتلها خنقا بعد أن زنى بها : ((ارتميت عليها . انبهرت : استسلمت. ازورق وجهها ، وارتسمت آثار أصابعي في عنقها . دفناها . .))(1).

لقد كان عبد المجيد بو الارواح نذير شؤم على جميع أفراد أسرته ، دفنهم جميعا وبقي بعدهم ، حتى أن زوجة أبيه كانت تسميه برأس البومة ووجه النحس ، كما أنه كان عقيما انتهت به الاسرة ولم ينجب الولد الذي طالما بحث عنه وبقي وحيدا ((كالتبيب لا جار ولا قريب))(2) . وانتهى أخيرا الى الجنون ومحاولة الانتحار .

موقفه من الثورة التحريرية :

ان الصفات التي بني بها وطار شخصية بو الارواح لاتؤهلها لأن تضحي من أجل الوطن وتشارك في الثورة التحريرية التي خاضها المخلصون من أبناء هذا الوطن .

ان همه الكسب والمصلحة الشخصية — كما تصوره الرواية — وان الدين نفسه والعلم كانا عنده وسيلة عظمه ومجد ومكانة لا غير . لذا فقد كانت علاقته بجيرانه المعمرين ايام الاحتلال حسنة ، كما كان يتعاطف مع اليهود ويحبذ بقاءهم في الجزائر ((ان بقاءهم ، ربما كان يكون(3) أفضل بالنسبةلنا . لنا نحن الاشراف والاعيان مالكي الارض ، وكبار التجار ، وأصحاب الاموال ، والايمة والقضاة))(4).

لقد تأذى بالاستقلال ، لانه هدد مصالحه ، وحاول التحايل على الاصلاح الزراعي الذي سيحرمه من امتيازاته التي كان ينعم بها ، كما تأذى من العلاج المجاني الذي أكثر من الرعاع ومن انتشار الثقافة والتعليم الذي سوى بين ابن الفقير والغني والانسان العادي والسيد الشريف ، فلم يبق من يرعى الغنم ويحضر السمن والفريك .

لقد فتحت دولة الشر أعين الناس كما يقول بو الارواح فتطلعوا الى ما هو أفضل ، وهذا يضايق أمثال بو الارواح الذين هم حجر عثرة في سبيل كل تقدم وتطور وتنمية شاملة للوطن وترقية للمواطن .

هذه شخصية عبد المجيد بو الارواح كما تصفها رواية الزلزال عرضناها بأمانة ، وسنحاول فيما يلي معالجة الجوانب الموضوعية والفنية في بناء هذه الشخصية .

---

(1) الزلزال ، ص 178/ 179 .
(2) الزلزال ، ص 178 وهو مثل يضرب لمن لا قريب له ولا حبيب .
(3) هكذا في الاصل وهو خطأ .
(4) الزلزال ، ص 197 .

المعالجة الموضوعية الفنية لبناء هذه الشخصية:

قدمنا فيما سبق شخصية عبد المجيد بو الارواح كما تعرضها رواية (الزلزال) وسنحاول فيما يلي النظر في بناء هذه الشخصية مزاوجين بين الجانبين الموضوعي والفني .

يحاول وطار انطلاقا من وجهة نظره الايديولوجية التي يتبناها أن يقف في رواية الزلزال كما في غيرها من الروايات موقف المناصر لقضايا الانسان المضطهد ، ويدين من أجل ذلك مظاهر الاستغلال التي يمثلها عبد المجيد بو الارواح ، وهو شخص اقطاعي انتهازي يتستر بالدين ، ويضع مصلحته الشخصية فوق كل الاعتبارات والقيم الدينية والوطنية ، ويحاول الكاتب فضح هذا النموذج الرديء من الناس ودفعه الى أن يكشف عن سريرته ويدين نفسه بنفسه في النهاية .

وهذه الشخصية المنحرفة المستترة بالدين موجودة في الواقع كوجود الشخصية الدينية السوية ، وليس من حقنا أن نسأل وطار أو غيره من الكتاب ، لماذا اخترت هذا النموذج الروائي دون ذاك ؟ وهل يوجد مثل هذا النموذج في الواقع أم لا ؟ ولكن من حقنا أن ننظر فيما اذا كان هذا النموذج مقنعا أم لا . ودون شك فان مصداقية العمل الادبي تتوقف الى حد بعيد على الاجابة عن هذا السؤال .

1 — ربط الاقطاع والانتهازية بالدين :

في رواية الزلزال كما في روايات أخرى لوطار وغيره من الروائيين الجزائريين (1) نجد ربطا بين الاقطاع والانتهازية والدين . والشيخ عبد المجيد بو الارواح نموذج لذلك ، فهو شخصية دينية ، يملك ثقافة عربية اسلامية يساهم بها في الاصلاح ، ويجمع الى هذه الصفة أسوأ أنواع الانحراف والانانية والشذوذ . ومثل هذه الشخصية قد توجد في الواقع كما أسلفنا ، ولكن التركيز على هذا النوع السيء ممن يتستر بالدين سواء عند وطار أم غيره واعتباره النموذج الوحيد للشخصية الدينية مجانبة للصواب واغفال لمثل الخير ومبادىء الحق والعدل في الدين التي لاينكرها أحد . وما يدعو الى هذه الملاحظة هو انعدام النموذج الايجابي للشخصية الدينية عند كثير من الروائيين الجزائريين ومنهم وطار . وسوف لن ندين الرواية على هذا الاساس مع ما فيه من تجن على الحقيقة بسبب هذه المغالطة في النظر الى الدين الاسلامي من هذه الزاوية ، ولكنا سنتعامل بكل موضوعية وبالوسائل المتواضعة المتاحة لنا على اكتشاف جوانب القوة والضعف في هذا العمل الادبي .

---

(1) انظر مثلا روايات عبد الحميد بن هدوقة .

2 - مجانبة الطبيعة الانسانيــــة:

تظهر مجانبة الطبيعة الانسانية لدى شخصية عبد المجيد بو الارواح في أنه يتحدث عن الجرائم الفظيعة التي ارتكبها أفراد أسرته ويرتكبها هو نفسه ببساطة وكأنه يتحدث عن غيره ، فيحكي تفاصيل خيانة أجداده وتعاملهم مع الاستعمار ، وشذوذهم الجنسي ، وجرائم قتلهم، ويفعل هذا مع نفسه أيضا فيتحدث عن استباحـة زوجة أبيه وعن قتلها خنقا كما قتل زوجات عديدة له . ويمعن في الحديث عن لذة الانحراف وشهوة القتل دون اقناع بأن هذه الصفات - على ندرتها وشذوذها - متأصلة في هذه الشخصية الروائية ، مما يبرز بوضوح تحيز الكاتب المسبق ضد هذه الشخصية وقمع التلقائية فيها، والانسانية التي لا تجعل الانسان شرا كله أو خيرا كله وهذا التحيز الواضح هو الذي أثر سلبيا على مصداقية هذا النموذج الروائي رغم جهد الكاتب في بناء هـــذه الشخصية الغير مقنعة فنيا ، بل وحتى منطقيا في كثير من صفاتها ومواقفها وتصرفاتها .

3 - المبالغـة والتضخـيم :

من الملاحظات الهامة في رواية (الزلزال) المبالغة والتضخيم ، سواء في رسم شخصية بو الارواح أو فـي الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية التي ترصد الرواية لكثير منها وهي تصف الحياة والناس في مدينة قسنطينة ((والمبالغات اذا كانت تعمق الاحساس بالشيء الموصوف ، فانها تعطي الانطباع بانفعال الكاتب أكثر مما يلزم وبميله الى التضخيم والتكلف في العرض)).[1] وتظهر هذه المبالغة في تصرفات وأقوال عبد المجيد بو الارواح التي أشرنا اليها ، كما تظهر في كثير مما يرويه الكاتب ، أو يلتقطه من مشاهد ، وخاصة في الحديث عن مظاهر الفقر في مدينة قسنطينة حيث يقتات خلق كثير من مزبلة بو لفرايس، وليس هذا فقط ، بل تقوم المعارك حولها بالبارود وغيره للفوز بفضلاتها ومرمياتها ، ويسقط الجرحى والقتلى اثر هذه المعارك ((وجدنا عشرين قتيلا وسبعين جريحا))[2] ويؤدي هذا الفقر الى أن يبحث الانسان عن زبائن لزوجته وبناته ![3] وأن يسمح في ابنته وزوجته لغيره ، ويقبل الاختفاء الذي يفرضه عليه الشخص الذي يستغله ويستذله.[4]

ومثل هذه المبالغات كثير في رواية الزلزال ، واذا لم يكن الكاتب مطالبا بنسخ الواقع كما هو فانه مطالب على الاقل بقدر من الموضوعية فيما ينقل عن هذا الواقع. والحقيقة أن الجزائري معروف بالانفة والغيرة وأن ((بو الارواح)) بشذوذه لا يقاس عليه .

---

(1) د . محمد مصايف : الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . الدار العربية للكتاب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983 تونس ، ص 61 .
(2) الزلـــزال ، ص 68 .
(3) انظر الزلـزال ، ص 54 .
(4) انظر الزلـــزال ، ص 181 .

وعلى كل فان العمل الفني الجيد قد ينتج واقعا خاصا به أكثر اقناعا من الواقع الحقيقي ذاته .

هذه ملاحظات أولية لا تنقص من أهمية رواية ((الزلزال)) ، لأننا لا يمكن أن نحكم على عمل فني بفكرته التي يعرضها فقط ، وانما أيضا بالحوامل الفنية التي تنهض بهذه الفكرة . وهذا ما يدعونا الى التعمق أكثر في الجوانب الفنية لهذه الرواية ، ونبدأ ها بالجوانب التي لها صلة بما قدمناه من ملاحظات .

4 — المعادل الموضوعي :

رغم ما يمكن أن يوجه من ملاحظات لروايات وطار فانها تتوفر على مقدرة واضحة في بناء معادل لها الموضوعي بفضل العناية الفائقة التي يوليها للبناء الفني في هذه الروايات .

ولكن هذه المقدرة تزيد وتنقص من رواية لأخرى . وفيما يخص رواية الزلزال فقد أدى التحيز الواضح الذي لاحظناه لوطار ضد نموذجه الروائي الى الاخلال بالمعادل الموضوعي في هذه الرواية ، أو في بعض مواقفها ومشاهدها على الاقل .

ان كراهية الكاتب لهذا النموذج الرديء من الناس في الواقع الجزائري والانساني انعكس على نموذجه الروائي ((بو الارواح)) فحمل له من الحقد والعداء ما لم يتحمله البناء الفني لرواية الزلزال رغم جوانبها الفنية الرائعة التي سنشير اليها في حينها . ولهذا اضطر الكاتب للتنفيس عن هذه المشاعر الى التصوير الكاريكاتوري المضخم لهذه الشخصية ، وقد أشرنا الى جوانب من هذا التصوير فيما سبق ، كما اضطر الى الادانة اللفظية المباشرة في كثير من الاحيان ((لم تكن تتفق مع ابن باديس)).(1) ((كنت تؤمن بها (الاضرحة والمقامات) منذ كنت ، حتى وأنت تخطب في المنابر ضدها)).(2)

والواقع أن مشاعر الكاتب وأحاسيسه اذا كانت طرفا أساسيا في عملية الابداع ، فانها قد تفسد العمل الادبي ، كما قد تخدمه ، لأنها بمثابة النار التي تنضجه وتعمل على أن تلتحم أدواته الفنية لتكون مع بعضها أثرا واحدا ذا نكهة واحدة هو هذا العمل الادبي أو ذاك . وكما أن هذه النار اذا نقصت عن حدها المطلوب جاء العمل الادبي مفككا غير ناضج مهما تعددت أدواته وتنوعت فانها اذا زادت عن هذا الحد أيضا أفقدته لحمته وسداه وأثره الكلي المتأتي من الانسجام بين هذه الادوات كلها (اللغة ، الصور ، الرموز ، المشاعر الخ).

(1) الزلزال ، ص 130 .

(2) الزلزال ، ص 129 .

5 — الصراع الدرامـــــي :

أشرنا فيما سبق الى العمق والثراء والتداخل في طبيعة الانسان التي لاتجعله أسود قاتما أو أبيض ناصعا، خيرا بالمرة أو شريرا كلية، وقد رأينا أن وطار — مدفوعا بما يحمله من كراهية للظلم — قد صور شخصية عبد المجيد بو الارواح على شكل من الثبات لا تستقر عليه الطبيعة الانسانية ، وحتى اذا افترضنا أن مثل هذه الشخصية ممكنة الوجود فان هذا وحده لايعطي العمل الفني مشروعيته ((لأنه (العمل الفني) وان كان يستمد كثيرا من كيانه من مشابهته للحياة أو قدرته على الايهام بالحياة فانه — بالأخص — يستمد وجوده أو القسم الأكبر منه من قوانينه الداخلية، فهل استطاع أن يقنعنا بامكان ذلك من داخل العمل نفسه ؟))[1].

لقد ساق الكاتب بطله الى قدر محتوم رسمه له سلفا هو الجنون ومحاولة الانتحار ، فهل تصاعد الاحداث وتأزم الصراع حتى يصل الى هذه النهاية؟ .

يقول د . مصايف : ان ((المؤلف يقوم بوصف دقيق لحالة قارة ليس فيها أي عراك ولا حوار حاد ، وهو ما أضفى على الرواية نوعا من (اللاحركية) يحس به القارئ منذ الصفحات الأولى))[2]، والواقع أنه لايمكننا أن ننفي الصراع من هذه الرواية نفيا قاطعا ، ولكننا سنعرض فيما يلي لما نعتقد أنه السبب الذي من أجله خفت حدة الحركة والصراع في رواية الزلزال .

ان الكاتب يزاوج بين نوعين من الصراع ، صراع خارجي يواجه فيه بو الارواح غيره وهو يبحث ويتحرك سعيا منه لانقاذ ممتلكاته الزراعية الواسعة ، وهو صراع قليل الاهمية اذا ما قيس بصراع أهم، هو الصراع الداخلي الذي يقوم في نفس بو الارواح وهو يرى العالم يتغير من حوله ، والحياة التي يريد لها الثبات تمور بالحركة دون أن يستطيع فعل شيء يوقف به هذه الحركة التي لاتسير لصالحه ، وسنركز على هذا النوع الاخير من الصراع لأنه الاهم كما قلنـــا .

ان الوصف الرائع لمدينة قسنطينة ، والملاحظات الدقيقة التي يبديها بو الارواح ، والتي تمتد حتى نهاية الرواية تنم عن اتزان وتركيز وصفاء ذهن لا يدل على أن صاحبه سيجن في الساعات القليلة التالية ويحاول الانتحار .

صحيح أن هناك اشارات الى التأزم النفسي تظهر في دعاء بو الارواح بالزلزال على قسنطينة وساكنيهـــا كما تظهر في مثل هذه العبارة الوصفية التالية : ((قوي ثقل الشيء في ذاتـــه ، وبرز اللـــون الداكن الـــى

(1) د . محمد حسن عبد الله : الواقعية في الرواية العربية ، دار المعارف بمصر ، 1971 بدون طبعة ص 251.
(2) د . محمد مصايف : الرواية العربية الجزائرية الحديثة ، ص 77 .

عينيـه ، فلم يعد يبصر أين يتجه . .)) (1) التي ترددت أكثر من عشرين مرة في الرواية، ولكن الصفاء الذهني والتفكير المنطقي عند بو الارواح — مع هذا — يتواصل حتى نهاية الرواية تقريبا ، مما يدل على أن الكاتب نفسه هو الذي يمد نموذجه الروائي بهذا الصفاء اللازم الذي يحكم به على الناس والاشياء والحياة التي تجري حوله بصفـة عامة ، فنحن نشعر بأن الافكار الواردة على لسان بو الارواح لا تصدر عنه — وهو يعيش هذه الحالة النفسيـة وهذا الصراع الداخلي — بقدر ما هي صادرة عن المؤلف ذاته . ويظهر هذا — مثلا — في الفصل ما قبل الاخير وقبل قليل من نهاية الرواية التي سيجن فيها بو الارواح ويحاول الانتحار — حيث يورد بو الارواح تحليلا فكريا في منتهى الصفاء لعقلية اليهود ، ولنمط عيشهم ، وللخطأ الذي ارتكبوه في الجزائر عندما ارتبطوا بالاستعمار الفرنسي ، ولطبيعة الجزائريين التي لا تعرف الوسطية ، بل تنتقل من النقيض الى النقيض (2) (3). وتلا ذلك ملاحظات دقيقة للواقع من طرف ((بو الارواح)) ، وتذكر عادي لما كان يقوم به ابن باديس ، وتفقد لابواب السيارة كما يفعل أي شخص في حالة عادية ، وفجأة يقع التحول : ((الناس ، الناس ، الرجال ، النساء ، الاطفال ، وسط الخضـر والغلال ، والنفايات ، ما بال هؤلاء الناس يتبعونني اينما ذهبت)) (4). وابتداء من هذا التحول يصعد التـأزم النفسي في تصوير رائع — للحقيقة — الى أن يؤدي في النهاية الى نتيجة الجنون ومحاولة الانتحار التي أراد الكاتب أن يدلل بها على عدم صلاحية هذا النموذج من الناس للحياة بعد اليوم ، أو على الاقل على بداية النهاية لهذه الفئة من المجتمع التي لم يعد فكرها ومنطقها مجديا ، ولم تعد تخفى أساليبها الملتوية بفضل الوعـي المتنامي للمجتمع الجزائري .

لعل هذه الملاحظة التي سجلناها حول الجمع في شخصية بو الارواح بين صفاء الذهن ودقـة الملاحظة من جهة ، والتأزم النفسي الذي سينتهي بالجنون من جهة أخرى — هي التي كسرت حدة الصراع في رواية الزلزال نوعا ما ، ولكنها بالتأكيد لم تقض عليه تماما ، ولا يمكننا انكار الصراع الداخلي الذي عاناه بو الارواح وهو يتأرجح بين بصيص من الامل في العثور على أقاربه الذين سينقذ بهم أرضه التي حصل على جزء كبير منها بالتحايل على هؤلاء الاقارب أنفسهم الذين يجد في طلب عونهم اليوم ، وبين الخوف الذي يبدأ هينا ثم يشتـد شيئا فشيئا عندما يعرف مصير أقاربه وييأس تماما من امكانية العثور عليهم والاستعانة بهم . اذ ذاك يشتد رعبه

(1) الزلزال ، ص 161 ، انظر كذلك ص 15 — 20 — 22 — 35 — 40 — 71 — 78 — 113 — 199 — 217 الخ .
(2) انظر الزلزال ، ص 191 الى 195 .
(3) ========== ص 195 .
(4) ========== ص 198 .

فيتصور أن كل الناس أصبحوا أعداء له ، وينتهي به هذا الوهم الى الهلاك ، اذ يتحول تحت وطأة الخوف الشديد من هذا المصير الى حقيقة في تصوره تؤدي به الى الجنون ومحاولة الانتحار ، فقد بني الكاتب روايته كلها على هذا النوع من الصراع الداخلي النفسي ، لأنها أحادية البطل ، وهذا لا يعيب الرواية كما يعتقد البعض،(1) ولنا في الرواية العالمية نماذج من هذا النوع الاحادي البطل ، ولعل أهمها رواية ((الشيخ والبحر)) لأرنست همنغواي الروائي الامريكي التي يبلغ فيها الصراع الدرامي ذروته رغم وحدة بطلها الشيخ ((سانتياغو)) الذي يقضي معظم الزمن الروائي في عرض البحر . ويكمن الفرق في رأيي بين الروايتين المتشابهتين من بعض النواحي في أن الاصابع الخفية التي لا نكاد نلحظها وهي ترسم شخصية الشيخ ((سا نتياغو)) وتحدد مساره تبرز من حين لآخر وهي ترسم شخصية الشيخ بو الارواح وتصنع مصيره . ولعل الفرق الاكبر بين الروايتين يعود الى أن ((الشيخ والبحر)) تقوم على مشاعر التعاطف الانساني والمحبة ، بينما تقوم الزلزال على مشاعر الحقد والكراهية وقلما تتيح هذه المشاعر الأخيرة رواية خالدة كرواية ((الشيخ والبحر)) .

6 — **اللغـــــــة :**

اللغة هي المادة الاولية في رسم النموذج الروائي والادبي عامة ، وهي من أهم الوسائل الفنية المستخدمة في فن وطار الروائي . ولاشك أن كتابته للقصة القصيرة قبل الرواية قد أفادته كثيرا في اكتساب هذه القدرة الفنية (أستخدام اللغة) التي يتميز بها عن باقي الروائيين الجزائريين في رأيي ، فهو يبذل جهدا كبيرا في جعل لغته تتميز بهذه الميزات كما يحدثنا بذلك حيث يقول : ((أفكر كثيرا في الكلمة قبل أن أقولها حتى تكون لها دلالاتها التي أستطيع أن أناقشها وأن أدافع عنها))(2) ، لأن العمل الادبي الذي يسعى الى الكمال الفني ينبغي أن تصفى كلماته بكل دقـة . ووطار لا يعتمد في هذه التنقية على موهبته وثقافته فقط ، ولكنه يصارع من أجل الحصول على هذه اللغة السهلة الممتنعة ، ولا يستعمل اللغة الدارجة الا في النادر القليل من الكلمات وفي الامثال الشعبية المتناثرة في رواياته .

1 — امتزاج الاشكال اللغوية في رواية ((الزلزال)) :

تتعدد الاشكال اللغوية في رواية الزلزال وتمتزج في انسجام محكم مع غلبة ظاهرة التفكير الباطني ، وهذا التعدد أضفى على الرواية جوا من الحيوية والحركة يشد القارئ ليعيش عالم هذه الرواية الزاخر الذي لا يستطيع

(1) انظر مرزاق هداية ، الشخصية الروائية عند وطار ، رسالة ماجستير ، معهد الأدب - جامعة الجزائر 86/ 87 ص 132 و 133 .

(2) فيصل دراج : حوار في علاقات الثقافة والسياسة ، دار الجليل للطباعة والنشر ط/ 1 دمشق 1984 ص 99 .

الفكاك منه اذا دخله حتى يعيشه كاملا، وساعد على هذا الامتزاج الفني المحكم اللغة الروائية المطاوعة:
((- الوجوه أيضا تتميز في قسنطينة . الملامح تختلف من شخص لآخر ، القامات كذلك (. . .).
- الملامح كالروائح تعلن عن نفسها بنفسها بشكل صارخ في هذه المدينة .

قرر ودفع بعنف يدا متسولة تعترض طريقه ، ورفع حذاءه ، واقتحم الباب وهو يلفظ في تبرم :

- اسحبي يدك يا امرأة . لاحول ولا قوة الا بالله . المصيبة . المصايب ، من أين خرجوا ، لماذا لاتعودون الى قراكم ودواويركم ؟ .

- تسقط على رأسك ان شاء الله . المصيبة . أو تحملنا على كتفك حتى تستقلنا .[1]))

مثل هذه اللغة الحيوية الممتزجة الاشكال تمتد من أول الرواية الى آخرها . ففي هذه الفقرة القصيرة مثلا وصف وسرد ، وتفكير باطني ، وحوار ودعاء ، وفعل وحركة ، ومشاعر مضطرمة تظهر من خلال هذا كله . وسنتحدث عن كل شكل من الاشكال على حدة في مباحث تاليـــة .

<u>ب - استخدام أدوات الربـــــط :</u>

نتج عن هذا التمازج المحكم بين الاشكال اللغوية أن قل استخدام وسائل الربط المعهودة ، كحروف العطف وأدوات الربط المختلفة بدرجة ملحوظة في الرواية ، لأن أحداثها تتتالى بدون فصل بينها في ذهـــن الشخصية الأساسية ، أو من حولها (الواقع الخارجي) في الشارع والاسواق والساحات كما تتتالى المشاهـــد السينمائيــة :

((السلام عليكم .

قال الشيخ أبو الارواح وهو يقف أمام حانوت تنبعث منه رائحة الشواء وينظر في استنكار الى الشاب الذي يقف وراء النار)).[2]

جاءت هذه الفقرة مباشرة بعد تفكير باطني سبقها ، وبدون وسيلة ربط ، ومع هذا فان القارئ لا يشعر بالحاجة الى أن يخبره الكاتب بأن الشيخ بو الارواح أتم تفكيره ثم انتقل الى حانوت شواء ليسأل صاحبه عـــن شـيء مـــا .

ويستخدم الكاتب في مثل هذا الانتقال النقاط المتتالية لينتقل مثلا من السرد الى التفكير الباطني الذي

(1) الزلـــــزال ، ص 16 .
(2) الزلـــــزال ، ص 154 .

يدور في ذهن الشخصية : ((تستر تحت ظل نفق ، وسرح ببصره الى الافق البعيد ...)) (1) ، ((ظل تينسو يحملق في الفراغ ...)) (2) . ويبدأ التفكير الباطني بعد هذه العبارة السردية من المؤلف والنقاط الثلاث وأحيانا يكون الدخول في التفكير الباطني الذي تتكون الرواية من معظمه بعبارة سردية تمهد له ، ومنها مثلا: ((حاول أن ينطلق متخلصا من كل ما حوله (...)) (3) وبعدها بدأ التفكير الباطني .

ـ ويكون الانتقال من هذا التفكير الباطني الى الحوار الخارجي بنفس الطريقة الفنية التي يستغني فيها الكاتب عن أدوات الربط التقليدية ، فيتم ذلك مثلا عن طريق منبه خارجي :

ـ ((ماذا تتناول ياباباسا ؟)) (4) .

ـ بهذه العبارة ينقطع الحوار الداخلي لدى بو الارواح ليبدأ الحوار الخارجي مع النادل . ومن هذه المنبهات الخارجية أيضا الانتقال من مكان الى آخر الذي قد يؤدي أيضا الى تغيير الشكل اللغوي ، كأن يقع الانتقال من الحوار الداخلي الى السرد الوصفي في مثل الفقرة التاليـة:

((الحضريون ، بكل صفة ، هذه عادتهم . يريدون الاستئثار بالمدينة وحدهم ويعلنون بمناسبة وبدونها عن رفضهم للافـاقيين)) (5) ، وبتغيير المكان يتغير هذا التفكير الباطني الى سرد وصفي مباشرة بدون أداة ربط : ((عند مدخل الجامع الكبير ، استرعى انتباه الشيخ عبد المجيد بو الارواح من خلال وجوه المشلولين والمتسولات الذين يقفون في صف طويل مع جانب الجدار ، المطلي بالاخضر الباهت .. الخ)) (6).

ـ ولكن الكاتب مع هذا لم يستغن عن الاسلوب التقليدي الذي يعرف فيه الربط بين شكل لغوي وآخـر بعبارات محددة ، كأن يقدم للتفكير الباطني بقوله : ((قال يحدث نفسه)) (7) . أو ((استسلم الشيخ عبد المجيد بو الارواح الى خواطر راودته)) (8) ، أو يعقبه بعبارة مماثلة تشير الى أن ما سبق حوار داخلي مثل ((استغرق سعدان في خواطر عن ماض سحيق يتذكر تفاصيلـه)) (9).

---

(1) الزلـــزال ، ص 44 .
(2) ======= ص 92 .
(3) ====== ص 56 .
(4) ======= ص 56 .
(5) ======= ص 15 .
(6) ======= ص 15، 16 .
(7) ======= ص 15 .
(8) ======= ص 109 .
(9) ======= ص 109 .

جـ - السـرد :

تقل لغة السرد في رواية الزلزال، لأن الكاتب اعتمد الحوار الداخلي والخارجي والتقاط الأخبار والانفعال أساسا في هذه الرواية، وربما كان لزمن هذه الرواية المحدود جدا، حيث يقدر ببضع ساعات فقط أثر في ذلك، بعكس رواية اللاز الأولى التي احتل فيها السرد حيزا أكبر، لأن الكاتب يستعيد أحداث الثورة أو يعيد النظر في أحداثها التي امتدت ببضع سنوات. وإذا كانت الزلزال لا تعتمد الشكل السردي فإنها لم تخل من سرد لغوي امتاز - إلى جانب قلته - بالنسبة للاشكال الأخرى بما يلي :

1 - القصـر :

قلما يتجاوز السرد الفقرة، وأحيانا العبارة الواحدة ((قطع النهج واتكأ على السور بكلكله، وتنفس من أعماقه)) (1). وإذا تجاوزهما فإن الكاتب يمزجه بشكل لغوي آخر : ((اعتراه الشعور الغامض، وأحس باللون الداكن في أعماقه يتحول إلى مادة سائلة (...) تردد لحظات ثم قرر أن يقطع الساحة الصغيرة (...) تأمل مدخل المطعم (...) التفت إلى المقهى المواجه (...) واصل التأمل (...)) (2).

هذه العبارات السردية القصيرة متخللة بتفكير باطني يكسر به الكاتب رتابة السرد ويقرب القارئ أكثر من شخصية ((بو الارواح)).

وليس القصر في العبارة والفقرة فقط بل وفي الجملة أيضا فعلية كانت أم اسمية، وفي النموذج السابق دليل على قصر الجملة الفعلية في هذه الرواية وخاصة في السرد. ومن الامثلة الكثيرة على قصر الجملة الاسمية ما يلي :

((كان جسر الهواء يمتلئ من جانبية. البعض أطفال. البعض كبار. بعضهم في لباس مدني، وبعضهم في لباس عسكري. الشيخ بن باديس معهم. الطاهر بو الارواح معهم. انهم يتقدمون.)) (3).

2 - الحركـة :

من مميزات السرد في هذه الرواية أنه يركز على الحركة والفعل، لأن الشيخ بو الارواح قضى كل الزمن الروائي في البحث عن أقاربه، وهو زمن قصير كما أشرنا من قبل، فلم ينم بو الارواح ليلا في قسنطينة أو يدخل بيتا وكان كل همه البحث الدائب في مدينة كبيرة ضيقة الانهج والطرقات، غاصة بالسكان من كل الفئات، كما أن حالته

(1) الزلـزال، ص 43 .
(2) ======= ص 22 .
(3) ======= ص 223 .

النفسية لاتسمح له بالتأني والتأمل ، فهو يعيش اضطرابا نفسيا يؤدي به في النهاية الى الجنون . كل هذا جعل الرواية حافلة بالحركة ((دفعته عجوز ، تخلص منها . داس قدمه شاب ، اعترض طريقه بائع دجاجة . توقف عن السير . السيارة تقطع الطريق . طفل يمر بين رجليه . تخلص منهم جميعا .))(1).

وهذه الحركية في السرد اقتضت كثرة الافعال ، وهذا النموذج الأخير دليل على ذلك ، ففي ما لايقل عن أربعة أسطر تسعة أفعال ، كما نلاحظ في هذا النموذج نفسه بالاضافة الى الدلالة على الحركة القصر في الجملة الذي سبق وأن لاحظناه في لغة هذه الرواية عامة وفي السرد منها على الخصوص .

والملاحظ أيضا أن المؤلف يولي عناية فائقة بعلامات التنقيط والرجوع الى السطر ، وهذا ما يساعد على فهم النص رغم تداخل أشكاله وتنوعها .

3 - التنــــــــوع :

مما يلاحظ على السرد في هذه الرواية تعدد أشكاله ومستوياته ، فقد يندرج في التفكير الباطني أو الحوار الخارجي أو الخبر الملتقط ، ولا يكون السرد في هذا الشكل الأخير من المؤلف مباشرة بل من الشخصية الروائية أساسية كانت أم ثانوية ، والامثلة على هذا كثيرة في الرواية ومثل ذلك ما يحكيه بو الارواح بأسلوب سردي عن أسرته وعن نفسه(2) . ومن السرد ما يكون من طرف أشخاص ثانويين كهذا الذي نسمعه من عجوز مجهولة لا يرد ذكرها في الرواية الا مرة واحدة : ((كانت الشمس ساطعة ، ولكنها لم تكن في حرارة شمس اليوم . طفلها السابع على ظهرها . تركه أبوه في الشهر الرابع وذهب الى فرنسا . .))(3). ويتواصل السرد في هذا الخبر الملتقط الى أن تنتهي الحكاية . ومن السرد ما يغلب عليه الوصف ، وهذا النوع يكون غالبا من المؤلف ذاته : ((اصطخبت أصوات المتسولين في أذنيه بينما اقتحمت أنفه رائحة التراب منبعثة من أجسامهم ، الى جانب رائحة شواء ، الى جانب رائحة . . .))(4).

وهذه الاشكال المختلفة للسرد تؤكد ما قلناه من امتزاج محكم في أشكال لغة ((الزلزال)) ، وستتأكد هذه الفكرة أكثر فيما سيلي من مباحث اللغة في هذه الروايــــة .

---

(1) الزلـــــــزال ص 202 .
(2) انظر الزلزال ، الفصل الخامس : جسر الصعد ، من ص 171 الــى 190 .
(3) الزلـــــــزال ، ص 36 .
(4) ========= ص 20 .

د ـ التفكير الباطـــــني (الحوار الذاتي) :

يحتل التفكير الباطني أو الحوار الذاتي الحيز الاكبر في الرواية ، ويمتاز على عكس السرد بالطول، لدرجة أنه قد يشمل فصلا بكامله (1) ، وان كان الكاتب يعمد من أجل كسر رتابة هذا الشكل الانسيابي ـ الى التنويع فيـــه باخراج هذا الحوار الداخلي الى الخارج أو بالتقاط الأصوات والأخبار والمشاهد اللافتـــة .

وبطبيعة الحال يكون هذا التفكير الذاتي بصوت غير مسموع ، لأنه يتم داخل الذات المفكرة، وهي هنـــا شخصية بو الارواح ، الا أنه عند التأزم يصبح هذا التفكير مسموعا لأن بو الارواح يرفع صوته به ويكون التفكـــير بصوت مرفوع في أول الرواية قصير (2) ، ثم يتدرج في الطول وفي رفع الصوت الى أن يبلغ حد الصراخ عند اشتداد أزمة بو الارواح النفسية في آخر الرواية حيث يصرخ بما يفكر فيه في حالة هستيرية ، ويثير انتباه الأطفال بذلـــك فيتبعونه مرددين أقوالـــه (3) .

وغلبة هذا الاسلوب اللغوي ، أي الحوار الذاتي على الرواية جعل بعضهم يصنفها في المذهب التعبيري (4) .

والواقع أن ((الزلزال)) ان استفادت من هذا المذهب باستخدام تيار الوعي الا أنها تبقى أقرب الـــى الواقعية منها الى هذه المدرسة الجديدة في التعبير ، فوطار لم يتكلف التجديد في هذه الرواية على الاقل .

ونجد في لغة الحوار الذاتي نفس التنوع الذي وجدناه في لغة السرد ، ومنها التذكر الذي قد يكون مـــن الشخصية الأساسية في الرواية (5) أو من غيرها من الشخصيات الثانوية (6) ، كما نجد في هذه اللغة الباطنية الحوار (7) والوصـــف (8) ، والســـرد (9) ، والتحليـــل (10) ، وربما كان الدعاء من التفكير الباطني أيضا ، ولكنه غالبا ما يتم في الرواية بصوت مرفوع ، سواء من بو الارواح الذي تكرر منه الدعاء على قسنطينة وسكانها أو من شخصية الحضري المطربـــش الذي لا يعرف عنه في الرواية الا أنه أيضا يدعو بالزلزال على قسنطينة بصوت مرتفع في المقاهي والساحات وأماكن

(1) انظر الزلزال ، فصل جسر الشياطين ، الفصل السادس ، من ص 191 الى 209 .
(2) انظر الزلزال ، ص 15 .
(3) ======= ص 221 .
(4) الاتجاه الوطني في الرواية الجزائرية المعاصر ، رسالة ماجستير ، عفار محمد ، جامعة بغداد 1986 .
(5) انظر كمثال (الزلزال) ، ص 109 .
(6) ============ ص 107 .
(7) ============ ص 94 (95 ـ 100) ، 102 .
(8) ============ ص 24 ، 25 و 100 ، 120 .
(9) ============ ص 171 الى 180 .
(10) ========== ص 190 الى 197 .

التجمع المختلفـــــة .

ونؤكد في الاخير ما قلناه من أن الشكل اللغوي الغالب على الرواية هو الحوار الداخلي الذي يجري أغلبه داخل ذهن الشخصية الأساسية (بو الارواح) أو في أذهان الشخصيات الثانوية على قلة أهميتها وظهورها على مسرح الروايـــــة .

هـ- الحوار الخارجـــــــي :

ان الحوار الغالب في رواية (الزلزال) كما سبقت الاشارة اليه هو الحوار الذاتي أو التفكير الباطني نظرا لأحادية البطل في هذه الرواية ، ولكن الحوار الخارجي مع هذا موجود ، وسنبرز في هذا المبحث بعض خصائصه التي تميز بها في (الزلزال) خاصة ، وفي روايات وطار عامـة :

والملاحظة الأولى التي تتبادر الى الذهن هي أن لغة هذا الحوار رغم بساطتها التي تتناسب مـــــع الشخصيات الصادرة عنها تبقى فصيحة سليمة من الأخطاء المختلفة ولا تسقط في العامية والسوقية بدعوى الواقعية والصدق في التعبير عن النماذج الروائية :

((- ماسمح من فضلك أسألك .

- مرحبا بك . تفضل :

- أبحث عن قريب لي ، كان هنا . هذه مدة طويلة ، وفقدت أثره ، اسمه الطاهر :

- تعرف أن نصف سكان قسنطينة اسمهم الطاهر . أين كان حانوته ؟

- لم يكن يملك حانوتا . كان يشتغل هنا وهناك . لقبه بو الارواح ، الطاهر بو الارواح مثلي .

- ايـــه ، ايــــه . قل لي من الأول سي الطاهـــر .

- سي الطاهــــر؟

- وما أدراك ، الطاهر أنك جئت من الخارج (1) .))

مثل هذا الحوار مألوف في الشارع الجزائري ، ومفهوم في كل الجهات ، وهو بلغة فصيحة مع أن القارئ قد يشك في فصاحة هذا الحوار ، وهذا لأن الكاتب يبذل جهدا فائقا في التوفيق بين صدق التعبير عن شخصيات الرواية والمحافظة على لغة روائية فنية وسطى لايظهر فيها التعسف والتكلف ولا تستعصي على فهم القارئ العادي أو الأمي حـــتى ، ولا تسقط في الابتذال والسوقية والمحلية .

والأكيد أن مثل هذه اللغة الوسطى لاتتأتى بالسهولة البادية للعيان ، بل ان الروائي يبذل جهدا

---

(1) الزلـــــــزال ، ص 103 ، 104 .

خفيا لا يظهر للقارئ ليصل الى هذا الاسلوب السهل الممتنع سواء في اختيار المفردة أم العبارة أم النسيج اللغوي كلــه :

فالجمل — في مثل هذا النموذج الذي عرضناه وغيره كثير [1] — قصيرة مناسبة للحوار السريع الذي يستوقف فيه شخص شخصا آخر بشارع في مدينة كبيرة ليسأله عن حاجة له ، ومعظم الكلمات مألوفة ومستعملة في العامية مثل : تفضل ، الطاهر ، الحانوت ، مدة ، السكان ، نصف ، هنا ، تعرف ، اينـه .. الخ .. أو قريبة جدا من فهم العامة مثل : فقدت ، أبحث ، أثره ، يشتغل ، قدمت ، يبدو ، مع ملاحظة أن الكلمات الثلاث الأخيرة (يشتغل ، قدمته يبدو) كان يمكن أن تستبدل بكلمات فصيحة أخرى مرادفة لها ومستعملة الى حد ما في العامية الجزائرية ، هي : (يعمل جئت ، الظاهر) .

وكذلك العبارات والصيغ — في هذا النموذج من الحوار الذي عرضناه ، وفي مثله — فهي اما متداولة بنصها الحرفي مثل : من فضلك ، مدة طويلة ، اسمه الطاهر ، مرحبا بك ، كان هنا ما أدراك ، نصف سكـــان قسنطينة اسمهم الطاهر [2] ، أو بتفصيح بسيط لا يحجب فهمها عن القارئ العادي وحتى رجل الشارع مثل : أبحث عن قريب لي ، فقدت أثره ، لم يكن يملك حانوتا ، كان يشتغل هنا وهناك ، أين كان حانوته ، يبدو أنك قدمت من الخارج . والملاحظ أن هذه العبارة الأخيرة كانت ستكون أقرب الى الحوار العامي لو جاءت على الشكل التالي : (الظاهر أنك جئت من الخارج) وهي عبارة فصيحة أيضا الا أنها تستعمل في الدارجة بتسكين أواخر الكلمـــات وتسهيل همزة القطع .

ولا يمتاز الحوار عند وطار بالبحث عن هذا التوازن اللغوي للوصول الى لغة روائية وسطى فقط ، ولكنــه مع هذا يحافظ على فنيته في أغلب الأحيان ويساهم (الحوار) في الكشف عن نفسيات أبطال الرواية ، وخاصـــة بوالارواح الذي تكاد تدفعه حالته النفسية والاجتماعية الى أن لا يملك نفسه فينور في وجه كل شخص ، بسبب أو بدونه ، لأنه يرى الجميع أعداء له ، مهددين لامتيازاته ، وتظهر حالة الحقد والغضب التي تسيطر عليه فـــي حواره مع غيره حتى الأطفال منهم :

((— بابا . هيا . تسيحة أو تلميمة لحذائك .

— لا . أغرب عن وجهي . دعني (...)

— دينار فقط يا عمي ، تسيحة متقنة (...)

---

(1) انظر الزلـــــزال ، ص 30 ، 60 ، 75 ، 78 ، 155 ، 157 .

(2) تعمد الكاتب الابقاء على العبارة كما هي في الدارجة فأبقى الضمير المتصل في كلمة (اسمهم) على سكـــان لا على نصـــف .

ـ مسحكم الله من أرضه الطيبة يا نسل الاثم والرجس، اغرب عن وجهي ،(...)

ـ تسيحة جيدة لحذائك بدينار فقط يا جدي .

ـ اذ هب عني يا شيطان ، اذ هب عليك اللعنة أنت وأمك وجد تك وعمتك وحكومتك .)) (1)

ان افتقاد الطفل من طرف بو الارواح بسبب الحقد الذي يعانيه قد زاد من حدة غضبه ، لأن ذلك يهدد عائلة بو الارواح كلها بخطر الفناء الجسدي الى جانب الخطر الاجتماعي والمعنوي . وينعكس هذا الشعور بالخطر في هذا الحقد غير المبرر على طفل عرض على بو الارواح أن يمسح حذاءه ، وكان يمكنه أن يستجيب له أو أن لا يلتفت اليه اطلاقا بدل أن يصل معه الى هذا الحد من الاهتمام والحقد والغضب ، ويتدرج هذا الشعور من الزجر (دعني) الى الشتم واللعن (عليك اللعنة) ، بينما تستشف صفة الالحاح والشعور بالهوان من ماسح الاحذية الصغير الذي أفقدته هذه المهنة الوضيعة التي هي أقرب الى للاستجداء منها الى العمل الشريف ـ كرامته ، فلم يعر أي اهتمام لما انصب على رأسه من لعنات ، وبقي على الحاحه لو لم يلهه مار آخر استجاب له فانشغل بمسح حذائه .

ويظهر في هذا النموذج من الحوار ما ذكرناه من تبسيط للفصحى وتفصيح للعامية التي ينتقي وطار منها الكلمات الفصيحة أو التي هي من أصول فصيحة وان دخلها تحوير في الوزن(تسيحة، تلميعة) يكسبها لونا شعبيا ، ولا يحجب معناها حتى على القارئ غير الجزائري . وهكذا يفصح الحوار عن نفسيات الاشخاص وخلفياتهم الاجتماعية والاقتصادية . يظهر هذا عند بو الارواح الحاقد الكاره ، كما يظهر عند ماسح الاحذية الصبي الملحاح (4) وعند بالباي المستسلم الخاضع (3) ونينو المذنب النادم (2) ، وحريم آل بو الارواح الذل المستعبد كما يسهم هذا الحوار في الكشف عن ثقة الشباب الزائدة بأنفسهم ولا مبالاتهم بما يدور حولهم (5) ، وعن معاناة الفقراء والمتسولين في كسب عيشهم (6) .

ان الحوار عند وطار يضعنا بلا وساطة وجها لوجه أمام أشخاص الرواية، فهو لا يصفهم لنا فقط بل يدخلنا معهم ـ بواسطة الحوار ـ في أسواقهم ومفاهيمهم ، وينقل الينا مشاعرهم ، ويسمعنا ضجيجهم وصخبهم وهو باختصار يجعلنا نحيا معهم :

---

(1) الزلـــزال ، ص 62/ 64 .

(2) انظر الزلزال ، ص 24 الى 33 .

(3) ======== ص 90 الى 95 .

(4) ======== ص 173 الى 182 .

(5) ======== ص 80 الى 86 .

(6) ======== ص 148 الى 149 .

((— يا قهواجــي .

— حاضـــر .

— قهــــوة .

— شـــاي .

— بن هـارون .

— المزبون أولا .

— لا هذه في الطرح الأول .

— خلط الحجــر .

— حلق ربي لا .

— اللعب مكشـوف .

— لقد سقطت مني الحجـرة .

— خلط هذا لعب (اسطيف) .

— اسطيف أو عنابة . المشروبات عليكما شعتما أم كرهتما .))[1]

مثل هذا الكلام متبادل في الحوار بين العامة والاميين في المقاهي والأسواق ، ومع هذا فهو فصيح وربما استثقلت عبارة (لقد سقطت الحجرة من يدي) التي تبدو أكثر فصاحة من بقية العبارات المنقولة حرفيا من حوار دارج في مقهى شعبي ، وقد كان يمكن للكاتب حتى في هذه العبارة أن يستخدم بدلا منها التعبير الشائع بين اللاعبين والفصيح في نفس الوقت: (طاحت الحجرة من يدي)[2] .

وهذا الحوار الدارج الفصيح المنقول من المقاهي والأسواق الشعبية والأماكن العامة كثير فـــي الرواية ، وهو يتم بدقة وأمانة مما يدل على أن الكاتب قد عايش فعلا رواد هذه الأماكن ، ولعله أقام بقسنطينة مدة كتابته لهذه الرواية . وما يؤكد هذا الاعتقاد هو الوصف الدقيق لها[3] وان كانت هذه المعايشة الآنيـة وحدها لا تكفي بدون سابق تجربة وخبرة بمن تقع الكتابة عنهم ، والأكيد أن المعايشة لحظة الكتابة والتجربة السابقة معا لاينتجان رواية فنية ((كالزلزال)) ما لم يكن صاحبها يمتلك موهبة وطـــار وتجربته الفنيـــة .

(1) الزلـــــزال ص145/ 146 .

(2) طاح الشيء من يده : سقـــط : المعجم الوسيـــط ، مجمع اللغـة العربيـة ، الجـزء (2) ط (2) ص569 .

(3) في آخر الرواية اشارة الى أنها كتبت في قسنطينة ، ص224 .

و ـ التكــــرار :

من الوسائل الفنية المستخدمة في رواية((الزلزال)) التكرار ، حيث تكرر الحديث عن المادة السائلـــة الحارة الشديدة السواد التي يحس بها بو الارواح ، وعن الزلزال الذي يشعر به بو الأرواح ويدعو به على غيره أكثر من عشرين مرة في كل حالة ، بينما ذكرت كل من مقولة ابن خلدون وحديث علامات قيام الساعة والحديث عن الدابة أكثر من خمس مرات على الاقل لكل واحدة منها .

يقع التدرج في التكرار فيكون الشعور بالمادة السائلة واللون الداكن في الأول شعورا غزيبا يحـــاول بو الارواح معرفته ، ولكنه سرعان ما ينساه : ((شعر باحساس غريب ، يملأ نفسه ، حتى أنه فكر أن لو ناما داكنا جدا ، على أية حال ، انصب في قلبه ، وراح يحاول حصر هذا الاحساس ، أو اللون . ثم ، كأنما نسيه فجأة))(1). ثم يعاود ، نفس الشعور وينساه أيضا (2) ، الا أنه في معاودة أخرى يمتد ليشمل جسده كلـــه (3) فيقاومه أيضـا الا أن المادة السائلة والدكن يزدادان شيئا فشيئا الى أن يغمرانه : ((شعر عبد المجيد بو الارواح أن المادة السائلة طفحت من فمه وأنفه وعينيه وأنها تغمره ، وأن ((الدكن)) حول كل شيء في الداخل والخارج الـــى لا مرئي))(4). ويبقى بو الارواح يصارع هذا الظلام الى أن يحترق بنار هذا السائل (النار تتقد)(5) ، فيجن ويحاول الانتحـــــار .

عبر وطار بهذه الحالة التي تنتاب بو الارواح عن جانب الشر المتأصل في نفس هذا الأخير ، وخلاصـــة مشاعر الكراهية والحقد التي يحملها لغيره من الناس ، فأول احساس بهذه الحالة اقترن بالتفكير في هذه الفئة من الناس التي تهدد مصلحته وتريد أن تسطو على أرضه (6) ، ثم تزداد هذه الحالة حدة كلما ازداد شعـــوره بوجود هؤلاء الناس واصرارهم على المطالبة بحقهم في العيش الى جانب أمثاله من السادة والملاك والاشراف تتكثف هذه المشاعر وتتركز في مثل هذه النوبات التي تجعل بو الارواح يتآكل داخليا كما تتآكل صخرة قسنطينة الكبرى . لقد كان في زمنه الماضي يملك السيادة المطلقة التي تجعله ينفس عن مثل هذه المشاعر المنحرفـــة بالقتل كما كان يفعل آل بو الارواح كلهم ، ولكنه الآن لا يملك حق القتل والاعتداء على الآخرين الذين لـــم يعودوا كما كانوا أحجار واد فقط لا تصلح الا لاستخدامها والعبور عليها بل مواطنين مثلهم مثله تماما فـــي

(1) الزلــــزال ، ص 15 .
(2) انظر الزلـــزال ، ص 20 .
(3) ========= ص 40 .
(4) ========= ص 207 .
(5) ========= ص 223 .
(6) ========= ص 15 .

الحقوق والواجبات ، فارتد الشر المتأصل فيه الى داخله لأنه لم يعد يستطيع اخراجه ، فأصبح يفرغ سمه في نفسه كلما انتابته الحالة الضرية كالعقرب التي تلسع نفسها عندما لا تجد غيرها ، حتى قضى على نفسه بنفسه فانتهى الى الجنون ومحاولة الانتحار .

يجسد وطار هذه الفكرة الأساسية في الرواية بوسيلة فنية هي التكرار ، وينجح في تجسيدها وتجسيم الشر عند ((بو الارواح)) ولكن هذا التكرار اقتصر على هذه الدلالة ، وساهم بذلك في تنميط هذه الشخصية التي تتصف بالشر كله ولا تعرف من الخير مثقال ذرة ، بل لا يعتريها الضعف الانساني اطلاقا حتى وهي تواجه نفسها ، وهذا ما حرم الرواية من حدة الصراع الذي يقوم في النفس الانسانية بين الخير والشر ، وكأن ((بو الارواح)) مفطور على الشر أو كان هذا الشر غريزة فيه لا يحيد عنها ولا يعرف سواها .

إن اقتصار التكرار على هذه الدلالة رغم التغيير في التعبير عن الفكرة المكررة لم يثر الرواية فنيا لأحادية الدلالة فيه باقتصاره على هذا المعنى الواحد الذي أشرنا اليه . كما أنه يشعر القارئ بالمبالغة وتحيز الكاتب ضد نموذجه الروائي — الذي سبقت الاشارة اليه — فبو الارواح لم يعد كائنا حيا انسانيا له استقلاليته وشخصيته ووجوده الروائي الفني ، بل أصبح واضحا لدى القارئ أنه فكرة معينة أو جيلا يحمل هذه الفكرة يصب عليه الكاتب جام غضبه وحقده هو الآخر .

ونحن لا نقلل من أهمية هذه العلاقة للنموذج الفني بمن يمثله ، بل نرى أن الخلو من هذه الدلالة الاجتماعية أو الفكرية يسيء للعمل الفني ويفرغه من معناه ، ولكن هذه العلاقة لا يجب أن تكون مصنوعة أو مكشوفة الصنع على الأقل حتى يحافظ البطل أو الشخصية على صفاته الفردية الانسانية التي تجعله يتأرجح بين الضعف والقوة ، والخير والشر وان غلب أحدهما على الآخر في النهاية .

أما الزلزال الذي يتكرر الحديث عنه أكثر من عشرين مرة أيضا فله ارتباط وثيق بالاحساس السابق الذي ذكرناه آنفا ، أو هو امتداد وانعكاس له ، وان كان الأول باطنيا وهذا الأخير خارجيا ، والدليل على ذلك أنه يذكر معه ويساويه في عدد المرات ، فما ان تذكر المادة السائلة والدكن حتى يعقبها الحديث عن الزلزال .

وكما يتدرج الاحساس بالمادة السائلة يتدرج كذلك الاحساس بالزلزال ، فهو في الاول لا يشعر به وانما يسمع الحديث عنه من الحضري المطرش الذي يدعو به على مدينة قسنطينة (1) ، ولعل هذا الحضري المطرش الذي فقد عقله قد سبق بو الارواح في افتقاد المكانة الاجتماعية والمعنوية ، ولذا شعر بالزلزال قبله كما شعر به بالباي ، وتجاوز هذا الشعور الى الخضوع والاستسلام لهذا التغيير الذي فقد معه مكانته الاجتماعية

(1) انظر الزلزال ، ص 14 .

التي كان يحظى بها في ماضيه : ((انكسرت كالجوزة منذ زمن ، ولم يبق في نفسي شيء . يوم لك ويوم عليك . مرحبا . . .))[1]، ((حدث كل هذا وانتهى الأمر . مرحبا بقضائه ورضائه . والحمد لله على صحة الأبدان))[2].

يستميت بو الارواح في مقاومة الزلزال ، ويحاول اقناع نفسه بأنه مجرد احساس زائد ((لا ، لتبتعد فكرة الزلزال عن ذهني))[3]، ولكنه مع هذا لايقتنع فيبقى في انتظاره ((أنا أنتظره . . .))[4].

وعندما لايحتمل التغيرات الحاصلة من حوله ولا يستطيع الوقوف في وجهها يتعجله : ((لها يا سيدي راشد لها . حركها بهم وبكفرهم وفجورهم))[5]، وفي الأخير عندما تنهار قواه ويفشل في ايجاد مخرج من المأزق الذي آلت اليه حاله يشعر بأنه يعيش الزلزال فعلا : ((يا سكان مدينة قسنطينة ، الزلزال ، الزلزال ، الزلزال . يا آل بو الارواح الزلزال ، الزلزال))[6].

وهكذا تتنوع دلالة الزلزال في تعبيرها عن درجة الخطر الذي يتعرض له بو الارواح ، هذا الخطر الذي يحاول في الاول أن يصرفه عن نفسه الى غيره فيدعو بالزلزال على سكان قسنطينة ، وعندما يوقن بأنه معرض لهذا الخطر لا محالة يدعو به على نفسه أيضا مع هذا الغير، وأخيرا يعيشه هو وحده ، تحت وطأة الاحساس بالنهاية متخيلا بأنه شمل الجميع كما تمنى .

ولكن دلالة الزلزال مع هذا كدلالة المادة السائلة والدكن ، ينقصها الثراء الفني ، فهي أقرب الى المباشرة منها الى الايحاء[7] ، فالكاتب لايدفع هذه الشخصية الى مسخ نفسها بنفسها من حيث لا تريد ، بل انه يصب حاله تكاد تكون قارة لشخصية محتضرة ميئوس منها محكوم عليها من كل الجهات ، ويعرضها متشفيا منها حاقدا عليها متفننا في رجمها والتمثيل بها بدون اقناع فني معادل لهذا كله .

ز — الخصائص الفنية في لغة ((الزلزال)) :

يعتقد د . مصايف (رحمه الله) أن لغة رواية الزلزال ((غير متعهدة ولا منتقاة ، وفي بعض الاحيان نحس

(1) الزلزال ، ص 30 .
(2) ======== 29 .
(3) ======== 70 .
(4) ======== 113 .
(5) ======== 122 .
(6) ======== 209 .
(7) انظر د . واسيني الاعرج : اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، م . و . ك — الجزائر 1986 ، بدون طبعة . ص 545 .

أن المؤلف لا يولي أي اهتمام للاسلوب واللغة ، وكأن الامر الوحيد الذي يهمه هو (...) نقل الفكرة بكل وضوح ودون أية صنعة)) (1) .

والواقع أن وطار يهتم بالفكر كما قال المرحوم د . مصايف ولكنه يهتم أيضا بأسلوب ايصال هذه الفكرة وخاصة اذا قورن بغيره من الروائيين الجزائريين الذين يتميز عنهم بأسلوبه الفني السهل الممتنع في معظمه وان اتسم هذا الاسلوب أحيانا بالمباشرة وسيطرة الفكرة كما لاحظ المرحوم د . مصايف ، ويمكن أن نوجز أهم ما يميز لغة ((الزلزال)) فيما يلي :

1 ـ السلامة من الأخطاء المختلفة :

من بديهيات الفن الروائي القدرة على الكتابة بدون أخطاء ، واذا كان بعض الروائيين الجزائريين يتسترون بمبررات مذهبية أو فنية لاخفاء كيدهم أو عجزهم اللغوي الذي لايمكن لأي مبرر مذهبي أو فني أن يجيزه فان وطار لا يسمح لنفسه بارتكاب هذه الاخطاء ، لا لأنـه متمكن من لغته العربية فقط ، ولكن لموقف واع منها يجعله يعتز بها ويشعره أنه يشارك بعمله الأدبي في معركة مجتمعه الجزائري الذي ((يجاهد لاستعادة احدى مقومات شخصيته التي استهدفت ولا تزال تستهدف للغزو الاستعماري والامبريالي)) (2) .

كما أن وطار لا يرى في استعمال العربية الدارجة ميزة فنية تفتقدها العربية الفصيحة وان حاول الاستفادة من المفردات والصيغ الدارجة الفصيحة أصلا التي يكثر استعمالها في الرواية وخاصة في الحوار بأشكاله المختلفة وهو يحرص في هذا الاستعمال وفي كل الأحوال على السلامة اللغوية في كل رواياته وان كانت تقع منه بعض الأخطاء التي تؤكد بندرتها ما لاحظناه من احترام للغة عند وطار ، ومعظم هذه الأخطاء في التعبير كالتفكك والثقل في مثل قوله : ((في السابق من لم يتلق تعليمه الابتدائي بمدرسة ((أراغون)) يعتبر أميا بين أوساط المثقفين بالفرنسيـــة)) (3) .

وعدم الاحكام في أدوات الربط والاضطرار الى تكرارها في قوله : ((هذا شارع فرنسا سابقا . يبتدي حيث ينتهي شارع ((كراما)) حيث ثانوية ((أومـال)) .)) (4) أو في قوله : ((تأخر فتأخر حتى التصق بالجدار)) (5) ونفس الثقل والاضطراب يلاحظ في استعمال أحرف الجر مثل قوله : ((يتملقونه بالتظاهر بالدفاع عن دينه)) (6)

---

(1) د . محمد مصايف ـ الرواية العربية الجزائرية الحديثة ـ ص 85 ، انظر أيضا ص 12 ، 20 ، 86 .

(2) الطاهر وطار ، مقدمة الزلزال ، ص 6 .

(3) الزلـــــــزال ، ص 115 .

(4) ======== ص 35 .

(5) ======== ص 98 .

(6) ======== ص 49 .

أو قوله : ((وضع قائمة في الاقارب الذين يمكن أن يكونوا أحياء)) [1]. ونادرا ما يخطئ وطار في تركيب المفردة [2]. أما الخطأ في القواعد النحوية والصرفية والاملائية والتنقيط الذي يكثر في الروايات الجزائرية فانه قليل عند وطار.

2 ـ المحافظة (الكلاسيكية) :

يعتبر وطار من المؤسسين للفن الروائي في الجزائر. ومن الصعب أن نحدد تأثره بروائي معين كنجيب محفوظ أو غيره، وان استفاد بطبيعة الحال من التراث الروائي العربي والعالمي. وقد كانت لغته كذلك خاصة به الى حد بعيد. وقد بدت في (اللاز) الاولى والثانية و (الزلزال) ـ على الاقل ـ محافظة، بمعنى أنها غير مسرفة في التجديد، كما هو الحال في لغة الشعر وحتى في لغة الرواية في أقطار عربية أخرى وفي الجزائر ذاتها، بعد أن تجاوزت الرواية فيها مرحلة الظهور والتأسيس.

ففي الزلزال لم يؤثر تنويع الأساليب السردية الذي أشرنا اليه سابقا في بنية اللغة سواء على مستوى المفردات أو الصيغ والتعابير، وبقي جهد (وطار) منصبا على ايجاد لغة روائية وسطى يرتقي فيها بالدارجة ويبسط الفصحى، ويحافظ في كل ذلك على فنية اللغة وسلامتها، دون تكلف للتجديد [3]، الا ما جاء عفوا، وهو قليل لانكاد نحصريه، ويلتزم فيه وطار بقواعد اللغة، ومن ذلك مثلا على مستوى المفردة صيغة (تفاعل) التي صاغ منها وطار (تناهض) [4] و (تقاذف) [5] و (فعّال) التي صاغ منها (ندايات) و (حصارات) [6]. لأن الضرورة ألجأته الى مثل هذا النحت ليعبر عن موجودات جديدة لا أسماء لها في العربية.

3 ـ الاقتصاد والدقة في التعبير :

غالبا ما تكون لغة وطار مقتصدة ودقيقة في التعبير، ويبدو لي أن وطار يكابد جهدا شاقا قبل أن تستقر العبارة أو الفقرة في شكلها النهائي، الذي يصعب معه الزيادة أو النقصان، رغم بساطة الاسلوب البادية للعيان، المتأتية عن جهد مسبق، كما لاحظنا، ولعل هذا من الاسباب التي تجعل روايات وطار قصيرة نسبيا وقليلة العدد، اذا ما قورن بغيره من الروائيين، الا أن الملاحظ في رواية الزلزال أن ميزة الاقتصاد تحتل أحيانا وذلك للاسهاب في تفكير بو الارواح الباطني، الذي يصل أحيانا الى أن يكون فصلا بكامله، كما هو الحال في فصل (جسر الصعود).

---

(1) الزلزال، ص 57.

(2) استعمل خضوره بدل خضره ومهترئة بدل مهترئة.

(3) انظر الزلزال، ص 27، 28.

(4) الزلزال، ص 27.

(5) ======= ص 114.

(6) ======= ص 201.

4 ـ الوضوح والمباشـــرة :

يرتبط بدقة التعبير التي أشرنا اليها آنفا الوضوح الذي يجعل الرواية مفهومة عند القراء على اختلاف مستوياتهم ، وهذا الوضوح لايعود الى عدم قدرة الكاتب على التكثيف والتركيز والترميز ، ولكنه يصدر عن موقف واع يؤمن فيه الكاتب بدور الأدب في التوعية الاجتماعية في الوقت ذاته الذي يحافظ فيه على مستواه الفني على نحو لا يحجب عن القارئ العادي فهم الفكرة، والاستمتاع الفني بشكل هذه الفكرة ، وهو ما سميناه في مباحث سابقة بالسهل الممتنع في أسلوب وطار الروائي .

ولكن الكاتب لايثبت على هذا المستوى الفني في كامل الرواية، بل انه يقع في أحيان كثيرة في المباشرة الواضحة ، التي تجعله يغلب الفكرة على الأسلوب ، وعند هذا الحد تفقد اللغة قيمتها ، وتقع بدورها في المباشرة الواضحـــة (1) .

5 ـ القصور في التعبير عن المشاعـــــر :

تتميز اللغة عند وطار بمقدرة كبيرة على الوصف الخارجي ، فتصف بدقة المباني والاشياء المختلفة ، كمـــا تصف الجماعات والافراد ، ولكنها لا تتعمق هذه الموصوفات أو تبحث عن المشاعر التي تربط الانسان بها أو توحي بها ، فهي لغة خارجية جدلية منطقية مقنعة ، ولكنها لا تتعمق عواطف النماذج الروائية ، ولا تستثير مشاعــر القراء ذاتهم لهذا السبب ، بقدر ما تتوجه الى عقولهم وأفكارهم .

وأخيرا ، فانه رغم الملاحظات التي أوردناها عن لغة ((الزلزال)) فان المؤلف فيها ، وفي غيرها مـــن الروايات التي سنشير اليها فيما بعد ، قد تميز بأسلوب خاص ، اعتمد فيه على نفسه واستفاد من ثقافته العربية الاسلامية ، وخاصة القرآن الكريم ، والتراث العربي بمختلف أشكاله . كما استفاد من الرواية العالمية والعربيـــة ومن تجربته الخاصة في كتابة القصة القصيرة والمسرحيـــة .

استفاد وطار من كل ذلك في تأصيل لغة روائية فنية يفهمها القارئ العادي لبساطتها ، ولكنهـــا فصيحة ، ودعم بذلك عن وعي منه الجهود التربوية والاعلامية التي تسعى لنشر اللغة العربية ، باعتبارها أحـد المقومات الاساسية للشخصية الوطنية . كما استفاد من هذه الجهود التي أوجدت له ولغيره من الأدبـاء جمهورا قارئـــا .

---

(1) انظر الزلـــــزال ، ص130 و 191 الى 196 .

7 ـ الوصــــــف :

من عوامل النجاح عند وطار في رواية الزلزال قدرته الجيدة على الوصف التي اكتسبها بفضل لفته الفنية المطاوعة وحواسه المرهفة ، الدقيقة الملاحظة . ولكن هذه الميزة عند وطار تبرز في جوانب معينة، وتنقص في أخرى . وسنتبين في هذا البحث جوانب القوة والضعف في أسلوبه الوصفي . فالقارئ لهذه الروايـــة لا يسمع أحداثا متتالية فقط أو ينظر الى مشاهد معينة ، ولكنه يعيش حياة متكاملة يسمع فيها ويرى ويتذوق ، وذلك بفضل التنويع في الوصف باستخدام مختلف الحواس للتعبير عن حالة واحدة ، واعطاء أثر كلي يحس به القارئ ويتعلق هذا الأثر الكلي بطبيعة الحال بالشخصية الأساسية في الرواية ، (الشيخ عبد المجيد بو الارواح). كما يخرج الى جانب التعرف على الشخصية الأساسية بانطباعات وأحاسيس جانبية تعني بالخصوص الحياة فـــي مدينة قسنطينة .

أ ــ حاسة الشــــم :

تبدأ الرواية أول ما تبدأ بحاسة الشم ، ((حاسة الشم تطغى على باقي الحواس ، في مدينة قسنطينـــة في كل خطوة ، وفي كل نفس تبرز رائحة متميزة صارخة الشخصية ، تقدم نفسها لاعصاب وقلب المرء)) (1) . تدخـــل الرواية القارئ من العبارة الأولى في جوها وتمسك بتلابيبه ، فلا يستطيع الفكاك منها حتى يعيشها كاملة وتبدأ حاسة الشم فيها قوية منذ أول وصول للشيخ بو الارواح ، وبمجرد نزوله من السيارة مباشرة ، ولكنها لا تتميز عن بعضها الا بعد أن يتعمق المدينة ويطوف بحاراتها وشوارعها ، واذ ذاك تتميز الروائح : ((فويت روائـــح المأكولات ، عندما اقترب من شارع المهيدي (كذا) ، منبعثة من اليمين الى جانب رائحة البول . أدمغة مشويـــة فلفل مقلي ، بيض مسلوق ، كباب ملوخية ، بطاطس مسلوق ، كفتة ، (...) . (2)

واضح أن هذه الروائح تخص المدينة التي يجد فيها الاقطاعي نفسه غريبا ، وصالحة مرتبطة بالريف والأرض، ولذا فهو يبحث جاهدا عن رائحة التراب ، ولا يكاد يجدها ، الا بمشقة ولمرة واحدة: ((ــ هاه . رائحة التراب ، الحمد لله . أخيرا رائحة الأرض .)) (3) وربما كان هذا الاشتياق الى رائحة الأرض صادرا عن الكاتب نفسه ، لأنه من أصول ريفية . أما بو الارواح ، فانه يسكن مدينة أكبر من قسنطينـــة واشتياقه الى الأرض، هو اشتياق الى عائداتها وارباحها في الحقيقة ، لا اشتياق حنين وارتباط كما تدل عليه

(1) الزلــــــزال ، ص 9 .
(2) ======== ص 72 .
(3) ======== ص 43 .

العبارة التي أوردناها هنا .

يتركز وصف الروائح المختلفة الصادرة من شوارع المدينة وساحاتها ومطاعمها في النصف الأول من الرواية حيث استخدمت حاسة الشم أكثر من عشر مرات ، ولكنها تفقد موجاتها ابتداء من النصف الثاني من الروايـة : ((الرائحة أيضا فقدت موجاتها))(1) ، ولا يعود بو الارواح بعد ذلك الى ملاحظتها ، لأنه ربما ألف جو المدينة وتعود روائحها بعد أن قضي فيها أكثر من نصف المدة التي أقامها بها (الزمن الروائي) ، أو لأنه لم يعد ينتبه الى هذه الروائح بعد أن شعر بصعوبة تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها ، فهو الى حد الآن (بعد مرور نصف الزمن الروائي) لم يعثر على أي من أقاربه الذين يبحث عنهم .

والملاحظ في الأخير أن ما يثير انتباه بو الارواح ، هو الروائح الكريهة بالخصوص ، انسجاما مع حالتـه النفسية : ((الروائح قوية ، رائحة التعفن تقطع أوصال قلب المرء .... حتى الهواء امتصوه ، ولم يتركوا في الجو الا رائحة آباطهـم))(2) ، والغريب أن رائحة العفونة تنبعث قوية بجانب أربعة مساجد وزاوية ، ومن هذه المساجد ، مسجد بن باديس (الجامع الأخضر) . وسواء تعمد الكاتب هذا أم لم يتعمده فانه يؤكد موقفـه من الشخصية الدينية ، التي لا يراها الا على صورة بو الارواح بشكلها السلبي ، الذي حاول ابرازه وتأكيـده في هذه الرواية . وصياغة الفقرة نفسها تقوي هذا الاعتقاد : ((الجامع الأخضر ، وجامع ميمون ، وزاوية المصلى على اليمين ، وقربه جامع بالباي . جامع سيدي قموش في آخر الدرب المقابل .

الروائح قوية ، رائحة التعفن تقطع أوصال قلب المرء))(3) . وسواء كان رأينا هذا في محله أم لم يكن ، فان وطار قد برع في استخدام حاسة الشم ، وساهم بها في رسم شخصية الشيخ عبد المجيد بو الارواح .

ب — حاسـة البصـــــر :

تقوم حاسة البصر — بالتعبير الفني — من جانبها في رسم شخصية بو الارواح منذ بداية الرواية أيضـا مثلها في ذلك مثل حاسة الشم ، ففي الصفحة الثانية فقط دليل على ما نعتقد ((حملق لحظة ثم التفت الـى السيارة ، وأعاد تفقد أبوابها الأربعة ليطمئن أكثر الى أنها مغلقة .))(4) فمنـذ النظرة القصيرة الأولى الـى ما حوله اتضحت دخيلته ، وهي أنه لا يشعر بالاطمئنان ، فعاد الى تفقد أبواب السيارة الأربعة وكأنـه

(1) الزلـــــزال ، ص 128 .
(2) ========= ، ص 22 .
(3) ========= ، ص 22 .
(4) ========= ، ص 10 .

يشعر بالخطر من الجهات الأربع ، وخاصة من الحركة حركة الناس التي ترمز الى التغيير : ((لاحول ولا قوة الا بالله ما الذي يدفع الناس حتى يرتجلوا مشيتهم بهذا الشكل في هذه المدينة))[1] ، ولا يستعيد بو الارواح الاطمئنان الا بعد أن يبصر الجسر الذي من رموزه الخلاص من الوضع الحرج الذي وجد فيه نفسه : ((هذا الجسر أفضل جسور قسنطينة السبعة . عريض وقصير ، سرعان ما ينسى الانسان الهوة التي بينه وبين الوادي))[2] والهوة هنا واضحة الدلالة على الاحساس بالخطر والتردي الذي سيؤول اليه حال بو الارواح اذا لم يجد مخرجا ينقذه ، والعالم السفلي تسمية أخرى في الرواية للخطر والتردي ، ولهذا يخاف بو الارواح من هذا العالم ((النظر الى العالم السفلي من مثل هذا العلو ، يخلق الدوار في رأس الانسان))[3] .

وهناك اشارات كثيرة الى دلالة الجسور كمعبر انقاذ يأمله بو الارواح للخلاص مما هو فيه ((سيجد كبار ملاك الاراضي ، وأصحاب المصانع والمتاجر الكبيرة ، وايمة المساجد أنفسهم فوق جسر سيدي راشد ، لحظتها لحظة الشيء العظيم))[4] .

والمقصود بالشيء العظيم هو الزلزال الذي يدعو به بو الارواح على مدينة قسنطينة وينتظره من لحظة الى أخرى . ولكني أجد أن في هذه الصورة الأخيرة مباشرة واضحة وانسياق وراء الموقف الايديولوجي لا تنسجم مع الرموز الفنية المنبثة في ثنايا الروايــــة .

ومن دلالات الابصار الكثيرة أن نظر الشيخ بو الارواح يتركز على الأشياء المادية البالغة الثقل كالجسور والمباني الضخمة والاماكن المكتظة ، لأنه يشعر بثقل داخلي مماثل ، ((أحس بالمادة السائلة ، تذوب أكثر فــي نفسه وتملؤها بالثقل والدكنة ، صدره ثقيل ممتلئ))[5] .

وعندما ينتبه مرة الى المظهر الجميل لما يشاهده من مساكن جميلة ونظيفة يربط هذا الجمال بالثقــل وبالزلزال الذي يحس به داخله ، ويعكسه على ما حوله ويتوقع حدوثه من لحظة الى أخرى : ((المظهر الخارجي للدور نظيف . . ترى كم من قنطار من الدهن والطلاء أضافوه الى ثقلهم وثقل المدخرات التي يختزنونها ؟ انها ملايين أطنان من غير ريب .))[6]

(1) الزلـــــزال ، ص 11 .
(2) ======== ، ص 10 .
(3) ======== ، ص 46 .
(4) ======== ، ص 128 .
(5) ======== ، ص 35 .
(6) ======== ، ص 124 .

جـ ـ حاسة السمـــــع :

تنسجم حاسة السمع مع الحواس الأخرى في الدلالة على شخصية بو الارواح الذي جعله الكاتب غريبا عن الزمن الذي يعيش فيه ، لا يجد التجاوب الا مع نفسه بعد اندثار الطبقة التي كان ينتمي اليها واستسلام الافراد الباقين منها للأمر الواقع ، ومن هؤلاء في الرواية بالباي صاحب المطعم ، ونينو الدلال . ودلالة السمع ربما كانت أكبر من بقية الحواس ، لأن الأسلوب الغالب على الرواية كما سبق أن أشرنا اليه هو التفكير الذاتي الذي لايسمع فيه بو الارواح الا نفسه ، لأنه أصبح منبوذا من الآخرين كلهم ، ولم يعد يجد من يتفاهم معـه .

ولا تناقض بين دلالة الاصوات الخارجية والصوت الداخلي للشخصية الأساسية في الرواية الغالب على الرواية كلها ، ويظهر هذا في أمثلة كثيرة من الرواية ، ومنها صوت الحضري المطروش الذي يتجاوب معـه ((بو الارواح)) ، لأنه يدعو بالزلزال الذي يحس هذا الأخير بأنه مهدد به ويتمناه لهذا العالم الذي فقد مبررات وجوده فيـه .

ان الأصوات الخارجية تصل الى بو الارواح والى كل انسان في الحقيقة ككل المنبهات الحسية الأخرى مصبوغة بلون مشاعره ، يظهر هذا في أصوات عديدة في الرواية ، ومنها مثلا صوت القطار الذي أشعر بو الارواح بالضيق ، لأنه ذكره بالرحيل الذي يحس داخله أنه مقبل عليه بفقدانه للمكانة الاجتماعية التي ورثها عن آبائه وبقي يتمتع بها لمدة طويلة بعدهم (1) . وقد يشعر آخر بالفرح لهذا الصوت لانه ينتظر قريبا أو خبرا سارا مثلا ، وقد لا يثير انتباه آخر اطلاقا لأنه مشغول بشيء يشده اليـه .

وكما تتدرج حاسة الشم في الرواية الى أن تنتهي الى الخمود ابتداء من النصف الثاني في الروايـة تحت وطأة الاحساس بمؤثرات أخرى ، تتدرج كذلك حاسة السمع . ولعل المقارنة بين صوت القطار في أول الرواية وصوته في آخر الرواية يوضح هذه الدلالة .

في أول الرواية ورد النص التالي : ((صفر القطار ، فشعر بنوع من الضيق للصفير الذي بدا له غليظا أكثر من اللازم ، ممددا فيه أكثر مما يجب)) (2).

وفي آخر الرواية ورد على الشكل التالي : ((صفر القطار ، شعر بالانزعاج ، التفت الى الخلف ، هذا حي اليهود سابقـــا)) (3).

---

(1) انظر الزلـــزال ، ص 10 .

(2) الزلـــزال ، ص 10 .

(3) ========== ، ص 209 .

ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة لصوت الآذان الذي يشعر بو الارواح في أول الرواية بالنشاط ((ارتفع الآذان ، ونشط قلب الشيخ عبد المجيد بو الارواح)) .(1)

أما في آخرها فيشعر به ثقيلا انسجاما مع حالته النفسية التي بلغت في آخر الرواية ذروة التأزم

((ارتفع الآذان، كان ثقيلا جدا . تساءل لماذا ؟

ـ لم يجعلوا سرعة الحاكي مناسبة للاسطوانة .

قال شاب هازئا))(2)

والملاحظ أن الكاتب قد أنقص من قيمة هذه الدلالة في الاستشهاد الأخير بزيادة غير مبررة في تساؤل بو الارواح عن سبب ثقل الآذان ((تساءل لماذا ؟)) ، وأسوأ من هذه الزيادة الاجابة عنها ولو بصوت ملتقط ((لم يجعلوا سرعة الحاكي مناسبة للاسطوانة . قال شاب هازئا)) ، ويشتم من هذه الاجابة الهازئة الاعتقاد بعدم مسايرة الدين الذي رمز له بالآذان للحياة السريعة التطور .

واذا كانت حاسة الشم تبدأ قوية ، ثم تنتهي الى الخمود في النصف الثاني من الرواية فان حاسة السمع تتدرج نحو الزيادة الى أن تبلغ الذروة في آخر الرواية : ((يا لهذه الأصوات المزعجة التي تملأ أذني))(3). فقد كان في الأول لا يسمع الا صوت نفسه على شكل تفكير باطني أشرنا اليه في حينه ، واذا ما اضطر الى سماع الأصوات الخارجية الملتقطة ردها بعنف ودعا عليها باللعنة والزلزال وهرب منها ((وكأنما هو هارب من أصوات تهجو بو ناب علي))(4) ، ولكن هذه الأصوات تحاصره في الأخير : ((يا بو الارواح . يا بو الارواح))(5) حتى يفقد عقله ((ويتحدث (هو نفسه) بصوت عال))(6) ، ثم يصيح ((صاح بأعلى صوته)) ، وتنتهي به هذه الأصوات التي تحاصره الى الجنون ومحاولة الانتحار(7) .

يستخدم الكاتب في الوصف مختلف الحواس ـ كما لاحظنا ـ ويبرع في المزج بينها ((واجهته الروائح تسيل في موجاتها . الأدمغة المشوية . العرق . التوابل . ثمر الصبار . صدمته الموجة البشرية القوية .

---

(1) الزلـــزال ، ص 11 .

(2) ======= ، ص 201 .

(3) ======= ، ص 204 .

(4) ======= ، ص 140 .

(5) ======= ، ص 221 .

(6) ======= ، ص 208 .

(7) انظر الزلـــزال ص 223 .

الضجيج يرتفع بشكل فظيـــع)) .(1)

في هذه الفقرة الصغيرة يستخدم الكاتب في انسجام واحكام حواس الشم والبصر والسمع بشكل يضفـــي على النص الروائي الحيوية الزائدة التي تمتاز بها رواية الزلزال في معظمها، بل انها تمتزج فيما بينها فـــي العبارة الواحدة وتتبادل المواقع ((واجهته الروائح ، تسيل في موجاتها)).

في هذه العبارة الأخيرة تمتزج حاسة الشم : (الروائح) والبصر : (تسيل) والسمع (موجاتها) لتصف في انسجام احساســا واحدا ينتاب شخصية بو الارواح .

د ــ وصف الاماكن والأشيـــــــاء :

يحتل الوصف المادي لمدينة قسنطينة بشوارعها الضيقة ، وطرقاتها الملتوية ، وساحاتها الصغيرة وأسواقها المكتظة، وأحيائها ومبانيها ومقاهيها ومطاعمها وجسورها حيزا هاما في رواية الزلزال . واذا كان هذا الوصف ينزع أحيانا الى التقرير والمباشرة التي لاتشفعن دلالة ما ، بل تقتصر على مجرد التعريف بمعالم المدينـــة ، فانه في معظمه قد ساهم في رسم شخصية بو الارواح وأعطاها الاطار المكاني المناسب لها .(2)

وأول ما يلحظ هو أن ((بو الارواح)) لا يدخل بيتا طوال المدة التي يقيم بها في قسنطينة ، بل يظل في الخارج تحت حر الصيف في الشوارع والطرقات والساحات ، وفي ذلك دلالة على افتقاد العلاقـــات الانسانية والأسرية التي تتجسد أكثر ما تتجسد داخل البيت وليس في الشوارع والطرقات . يعاني بو الارواح من هذه الغربة ، مع أنه كان قد سكنها في السابق ، كما لا يزال أقاربه يقيمون بها ، لكنه لا يعثر لهم على أثر نتيجة الوضع الاجتماعي الجديد الذي لم يعد يسمح بالعلاقات الجائرة التي كانت سائدة بينه وبين أقاربه كما أن الكاتب قد استغل ضيق مدينة قسنطينة الواقعي في رسم شخصية بو الارواح الساخطة المتبرمة علـــى وضعها الجديد ، المتضايقة منه ، التي غالبا ما تجد نفسها في مكان أو شارع ضيق(3) ، أو ساحة صغيرة(4) ، أو طريق ملتو ، أو نهج محدود . كما قد يجد بو الارواح نفسه أحيانا محصورا بين الناس الذين تغص بهم مدينـــة قسنطينة ، يدوسه شاب برجله تارة ، وتضربه امرأة تارة أخرى بمرفقها ، ويمرق طفل كالسهم بين رجليه ، وتمتد أيادي المتسولين أمام عينيه وأنفه ، ولكنه لا يجد مخرجا مما هو فيه الا أن يدعو بالزلزال والهلاك على كـل

(1) الزلزال ، ص 76 .
(2) انظر الزلزال : الصفحات 69 . 135 . 137 . 162 .
(3) الزلـــزال ، ص 21 .
(4) ========= 9 .

ما حوله ، وهذا الضيق بما حوله والتضايق بمن حوله يعبر عن ضيق أكبر — مما ستؤول اليه حاله — يشعر بـه داخله ، سببه الشعور بضياع مصالحه وانفلات زمام الأمر من يديـــه .

يعكس ((بوالارواح)) هذا الشعور بالضيق عمن حوله ، فلا يرى حركة الناس في المدينة ، وأحاديثهم وبيعهم ، وشراءهم ، وسيرهم ، حيوية ونشاطا وتواصلا انسانيا ، بل يرى أن ((هؤلاء الناس مرضى بالسير ، وكأنهم في سجن أو في اقامة جبرية)) (1) .

يبرع وطار في وصف الأماكن العامة والأسواق الشعبية والأشياء التافهة : ((في الأسفل ، زقاق (الرامبلي) لا يزال على ما هو عليه ، سوق خردوات من كل نوع ، النساء والرجال من جميع الاعمار يجلسون وسط دخان فرن مخبزة ، وأمامهم رقاع نيلونيـــة أو ورقية وقماشية ، فوقها مفاتيح فاسدة ومسامير معوجة ، وحنفيات مكسورة أو ثياب مهلهلة ، أو أحذية متهرئة (هكذا في الأصل) وأعقاب خبز متسخة ، وسميد مغلوث ، قشور تمر الصبار فـــي كل شـــبر)) (2).

ان مثل هذه الدقة في الملاحظة والوصف الأمين للأشياء والكائنات الحية يشيعان في المذهب الطبيعي ولعل وطار قد استفاد من أعلام الرواية الطبيعية فاكتسب هذه الدقة في الوصف وهذه اللغة الوظيفية المعبرة ولكن وطار ان استفاد من قراءاته المتعددة فان تجربته الخاصة ومعايشته لواقع مجتمعه هما مصدر فنه أساسا ولم تزد المذاهب الفنية المختلفة على أن صقلت تجربته . ولعل محاولة تقيده بالواقعية الاشتراكية قد أوقعـــه في كثير من العثرات الفنية التي لم يكن ليقع فيها لو كان أمينا مع تجربته الشخصية وتجربة مجتمعه ، وان لـــم يحجب ذلك مقدرته الفنية التي لا تنكر ، رغم أنه أوقعه في أخطاء فنية أشرنا اليها في مكانها .

واذا كان وطار بارعا كما قلنا في الوصف الظاهري للأشياء المادية العظيمة منها والتافهة على الســواء فانه يكتفي بالوصف المجرد لهذه الأشياء بدون أن يظهر قيمة هذه الأشياء المعنوية ، ومدى ارتباط الانسان بها ، ولذا نجد كثيرا من المقاطع الوصفية الرائعة في الزلزال لاترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر الناس المتحركين داخل عالم الرواية ولا بمشاعر المبدع ذاته ، ولذا يحار القارئ في فهمها ويضطر للاعجاب بها وحدها ((المقاطـــع الوصفية)) منفصلة عن السياق الروائي العام ، وفي هذا تفكيك للانسجام في العمل الروائي الواحد ، ومن ذلك مثلا الوصف الرائع للأزقة والحارات والأسواق ولدور قسنطينة الكثيرة الآهلة منها والمهجورة الذي يدور في ذهن بوالارواح ولا نجد له كبير ارتباط بمشاعر الحقد والخوف المضطرمة في أحشائه التي ستنتهي به الى الجنون ومحاولة الانتحار في بضع ساعات . ومع هذا يجد الوقت الكافي والاستعداد النفسي لأن يفكر في سطوح الدور

---

(1) الزلـــــزال ، ص 70 .

المهجورة ، بل وفي أوضاع القطط التي توجد على هذه السطوح ، وكيف أن بعضها نائم وبعضها يسير وبعضها يحدق ببلاهة في الفضاء[1] ، فما علاقة وضع القطة المحدقة في الفضاء أو المستلقية أو النائمة فوق سطح مهجور بنفسية بو الارواح ومشاعره المضطربة التي ستنتهي به بعد ساعات فقط الى الجنون ومحاولة الانتحار ؟ !

ان التفاصيل في الفن عامة ، وفي الرواية خاصة قد تكون أهم الأحداث الأساسية في الدلالة على مشاعر النماذج الروائية ومواقفهم وسلوكهم اذا كان لها مثلا هذا الارتباط الوثيق بالنموذج الروائي ، أو بالانطباع الكلي للرواية أو الجزئي فيها ، لكن هذه التفاصيل قد تكون عبئا على المسار الروائي اذا لم تتوفر على هذا الارتباط الذي ذكرناه ، وربما كان قصد الكاتب بهذه التفاصيل التي أشرنا اليها أعلاه بيان مدى عزلة بو الارواح الـذي يعاني ما يعانيه وحده دون أن يشاركه غيره في هذه المعاناة التي ستقضي عليه في النهاية . ولكن ورود هذا الوصف لكل هذه التفاصيل في ذهن ((بو الارواح)) يجعل هذا الاعتقاد بعيد الاحتمال .

وفيما يخص الاحساس بالمكان — الذي يوحي به الوصف — فانه يبدأ بالشعور بضيق هذا المكان كمـا لاحظنا ، ثم بشعور الثقل (الجسور ، المباني الضخمة والعمارات الشاهقة المتواصة) . وينتهي في آخر الروايـة الى الفقدان الكلي للاحساس بهذا المكان ((أين أنا ؟ أين أنا ؟))[2] كدلالة على قرب النهاية بالجنون ومحاولـة الانتحـــــار .

وفي الأخير لابد أن نشير الى دلالة أمكنة هامة تكرر الحديث عنها في الرواية ، هي الجسور التي قسمت الرواية على أساسها . فأكثر الأماكن التي يرتبط بها بو الارواح ويثق بحصانتها ومتانتها هي هذه الجســـور : ((مهما كان هول الزلزال ، ومهما كانت قوته وعظمته ، فان هذا الجسر لن ينكسر))[3] . ان هذا الارتباط بالجسور يترجم احساسه بعدم الاستقرار ، انه يريد أن ينقل الماضي الى الحاضر مستعينا بهذه الجسور التي ترمـز الى المبررات المختلفة التي يتشبث بها ((بو الارواح)) للحفاظ على مصالحه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يلاقي مصيره المحتوم الذي ينتظر كل ظالم مهما كانت المبررات التي يستند اليها .

هـ — وصف المشاعـــــر :

كما لاحظنا في وصف المظاهر العادية للأماكن والأشياء المختلفة ، فان وطار يحتفظ بنفس القدرة علـى الوصف الخارجي للجماعات والأشخاص المبثوث في ثنايا الرواية ، وكما لم يدخل وطار بيتا وهو يصف المدينـــة

---

(1) انظر الزلزال ، ص 135 .
(2) الزلزال ، ص 209 .
(3) ====== 127 .

ويجوب طرقاتها وأزقتها وساحاتها وأسواقها ، فانه لم يتعمق سريرة أو يستشف دخيلة شخص من هؤلاء الذين وصفهم في الزلزال ، بما فيهم الشخصية الأساسية ((بو الارواح)) : ((تحت الجدار ، وعلى كامل الطوار ، عجائز وشيوخ ، وكتبة الحروز ، وكتبة عموميون ، وضاربو خط الرمل ، وقارئو الطالع)) (1) .

يقف وطار عند هذا الحد الخارجي من الوصف الخارجي العام للجماعات دون أن يتعمق مشاعرهم أفرادا أو جماعات .

ان وصف بالباي مثلا عام يمكن أن يصدق على أي شيخ في قسنطينة أو غيرها (2) ، ولا نستشف منه رائحة اليأس والاستسلام التي نعرفها عنه الى حد ما في الحوار . والأمر نفسه بالنسبة لنينو (3) الذي يبكي عندما يتذكر خيانته للثورة ، ولكننا نشعر بأن هذا البكاء مفتعل وخارجي ، وربما كان لوطار العذر في كون بالباي ونينو وغيرهما من الاشخاص الثانويين في هذه الرواية التي تعتمد الشخصية الرئيسية الواحدة . ولكن شخصية بو الارواح نفسها تعاني من هذا الفقر في تصوير المشاعر ، فقد وقع التركيز على الوصف الخارجي لأفعالها دون استكناه لمشاعرها الداخلية .

ويبدو أن مشاعر الكره التي يحملها وطار لهذا النموذج الرديء الذي يمثله بو الارواح قد زادت عن حدها ، وحالت دون أن ينصف الكاتب نموذجه الروائي كما سبق وأن ذكرنا فتمادى في وصف مشاعر الحقد والكراهية والأنانية التي جبل عليها بو الارواح ، وهذا ما حرم هذه الشخصية من التطور فولدت حاقدة كارهة وانتهت كذلك . والواقع أن هذه النمطية والثبات في المشاعر تحرم النموذج الروائي من التنوع والثراء الانساني الذي يكون الفرد معه نهبا لمشاعر مختلفة تتجاذب فيما بينها وتتصارع ، وتقوى وتضعف الى أن تؤدي في نهاية الصراع الى نتيجة ما بعد أن يحتدم هذا الصراع ويبلغ ذروته .

وهذا التحيز الواضح من الكاتب ضد نموذجه الروائي جعله يضطرب في وصف مشاعر ((بو الارواح)) ويقع في الكثير من المبالغات التي سبقت الاشارة اليها ، ومن ذلك مثلا أنه يشعر بالغبطة والصفاء لمنظر طفل يتخبط في دمائه . والواقع أن الكراهية التي يحملها العبد نحو شخص أو فئة أو فكرة لا تنتج وحدها فنا عظيما . وقد بدا التناقض واضحا بين الوصف الحميم للناس البسطاء العاديين في الزلزال ، وللاماكن الشعبية والحارات والدور والمقاهي والأسواق ، وبين شخصية ((بو الارواح)) التي تبدو نشازا وعبئا ثقيلا على هذا البناء الفني بكامله .

---

(1) الزلزال ، ص 138 .

(2) انظر الزلزال ، ص 24 .

(3) ======== 89 .

أعتقد أن شخصية متطورة نامية محبوبة ومحبة للخير كعيسى بو الارواح الذي يبدأ حياته طرقيا منعزلا في زاوية مهجورة ، وينتهي الى الفهم الصحيح لمفهوم العبادة في الاسلام، التي لاتقتضي الانقطاع عن الدنيا بل الدخول في معتركها ومجابهة الواقع وتغييره بما يضمن الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. أعتقد أن شخصية كهذه أنسب من شخصية بو الارواح النمطية الثابتة، لأنها تعطي الفرصة للمبدع لأن يعالجها بالموضوعية الممكنة ، ويقترب من التعاطف معها وهي تتحول الى ما هو أفضل.

٥ ـ الرمـــــــــــز :

لاتخلو رواية الزلزال من دلالات رمزية كثيرة، وان لم تكن رواية رمزية أساسا . وقد جاءت معظم هـــذه الرموز عفوية لا يظهر عليها أثر التكلف . ومن هذه الرموز العنوان ذاته : ((الزلزال)) الذي يتكرر في الروايـــة أكثر من عشرين مرة كما أسلفنا ، ويرمز الى التغير الحاصل في الوضع الاجتماعي ككل، والى ما أحدثه من أثر على نفسية بو الارواح .

ومن الرموز كذلك أسماء الشخصيات الروائية ، وأهمها اسم ((بو الارواح)) الذي يرمز الى أن صاحبـــه مقترف لجرائم قتل عديدة ، كما يرمز الى استماتتـــه في الدفاع عن امتيازاته ، فهو لايموت بسهولة وكأنه يملك أرواحا متعددة .

أما تسمية بالباي لصاحب المطعم الفخم السابق ، الذي فقد مكانته الاجتماعية واستسلم لهذا السقوط فهو رمز لسلالات البايات التي لا تعني الأسرة التاريخية التي حكمت قسنطينة فقط ، وانما تعني كل من كان على شاكلتهم من الاقطاعيين والمستغلين لغيرهم .

ويأخذ ((نينو)) تسمية فرنسية لتعامله السابـــق مع المخابرات الفرنسية .

أما الطفل ماسح الاحذية فلم يأخذ اسما معينا ، لأنه رمز لكل الأطفال الاشقياء الذين يعرفون المعاناة وشظف العيش منذ صغرهم .

وهناك أسماء شائعة عامة الدلالة في ذاتها ، ومقترنة بحرف الفئة التي تنتمي اليها كعمار البنـــــاء وعبد القادر الضرابلي ، والفلاح الذي لم يذكر اسمه في الرواية .

أما عيسى بو الارواح شيخ الزاوية الذي تحول فجأة الى نقابي شيوعي ، ففي اسمه دلالة على الزهد الذي ينعته به بو الارواح . وتدل تسميه الطاهر على صفة الطهر والنقاء التي تجعله يضحي بنفسه في الثورة التحريرية .

ولا تخلو تسمية النساء من هذه الدلالات الرمزية القوية الفهم ، ومنها سارة اليهودية الأصل ، واسمها

يدل على جنسها . والبسكرية التربة بفضل التركة التي ترثها في مدينة بسكرة التي تنتشر فيها ملكيات النخيل الواسعة. وليس لزوجة الفلاح وابنته تسمية معينة للدلالة المطلقة على ما تعانية هذه الفئة من النساء من اضطهاد ومشقــــة .

ويرمز اسما حنيفة وعائشة ذات التسع سنوات، التي تكرر الحديث عنها الى ما تعانيه المرأة من معاملة الرجل القاسية، ومن اهدار لكرامتها وانسانيتها، فهو لاينظر اليها الا كوسيلة لذة فقط. ولا نعتقد أن هذه النظرة عند وطار تقتصر على هذه الفئة المنحرفة، المتظاهرة بالدين مثل (بو الارواح)، فهو ينتقد في هـــذه الرواية تعدد الزوجات الذي أقرته الشريعة الاسلامية لأغراض محددة، وفي اسم عائشة وسنها بالخصوص مباشرة واضحة في الدلالة على هذه المكانة للمرأة في الاسلام كما يعتقد وطار، وفي هذه الفقرة ما يؤكد هذا الاعتقاد: ((فتاة في العاشرة تقف في الباب مستاكة مكتحلة، بيضاء، تحدق اليه في وقاحة. المرحومة عائشة، زوجتي الاولى كانت في سنها ... عليه الصلاة والسلام تزوج عائشة في التاسعة(...).)) (1) بل انه قد ذهب الى ما هو أبعد في رواية (اللاز الأولى)، وفهم الحكمة من تعدد زوجات النبي فهما خاطئا.

ولعل أهم الرموز في هذه الرواية هي الجسور السبعة التي عنون الكاتب بها فصول الرواية السبعة أيضا وليست الرموز في العلاقة بين تسمية الفصل وأحداثه رغم وجود هذه العلاقة فعلاً، ولكنها في فكرة الجسور التي هي بمثابة العقبات التي يحاول بو الارواح تجاوزها محافظا على امتيازاته اللامشروعة التي اكتسبها منتقلا بذلك من الماضي الى الحاضر، ولكن طبيعة الزمن الذي تعيشه الجزائر الآن بما جد فيه من تطورات يجعـــــل بو الارواح يفشل في آخر جسر وتنهار قواه ويجن كدلالة لعدم صلاحية الأفكار التي يحملها ويأمل بواسطتها في الابقاء على العلاقات الجائرة التي كانت سائدة قأيام الاستعمار .

وفي حين يفشل بو الارواح في تجاوز هذه الجسور، ينجح سكان البوادي والارياف في تجاوزها والاستقرار بالمدينة للاعلان عن وجودهم ورغبتهم في العيش السعيد الذي كافحوا من أجله الاستعمار الفرنسي وأخرجــــــوه .

وهكذا ترمز الجسور الى العقبات والأهوال الشائعة في الأساطير والحكايات الشعبية التي يجـــب تجاوزها لتحقيق الهدف المطلوب، وهو ما يحاوله كل من بو الارواح وسكان الريف والبادية، فينجح هؤلاء ويفشل بو الارواح وأمثاله وينهزمـــون .

ولكن هذه الدلالة للرموز شكلية لا ترتبط بالأحداث، وانما هي بمثابة الاطار الخارجي لهذه الأحداث

(1) الزلزال، ص124 .

والدليل على ذلك أنه يمكننا حذف هذه العناوين التي تحمل أسماء الجسور دون أن يؤثر ذلك على فهمنا للرواية .

والواقع أنه ليس شرطا أن تشتمل الرواية الفنية على رموز ، وإن لم تخل هذه الرواية منها كما أشرنا ولكن الملاحظ أن الرواية تصل أحيانا الى حد المباشرة الواضحة ، وعرض الأفكار المجردة .

و — استعمال القرآن الكريم :

لما كان البطل الرئيسي في هذه الرواية شخصية دينية كما عرفنا ، ولذلك أضفى الكاتب على الرواية جوا دينيا ، وجعل أحداثها تدور في مدينة قسنطينة مهد الحركة الاصلاحية ، والتي تتمتع بمكانة دينية وتاريخية وثقافية معروفة ((قسنطينة مثل الكعبة يستحب الدخول اليها يوم الجمعة)) (1) . كما وظف الكاتب كثيرا من المظاهر الدينية في محاولة للاستفادة من الطاقات الفنية والتعبيرية التي تحملها كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسيرة الصحابة ، وعناصر العقيدة عند المسلمين مثل قيام الساعة ، والجنة ، والنار .

وأهم ما استعمل في الرواية هو الآيات القرآنية الكريمة التي تجاوزت الثلاث عشرة آية في الرواية ، وترددت الآية التي تصف قيام الساعة — من أول الرواية الى آخرها عدة مرات .

وقد استفاد الكاتب من قوة الأسلوب القرآني ، ومن الطاقة التعبيرية الكامنة في الآيات القرآنية في تصوير شخصية بو الارواح ، وذلك بمحاولة الكشف عن مشاعره الشريرة الدفينة في نفسه ، فاستعمل المفارقة بين المعاني السامية التي تحملها الآيات القرآنية وبين ما يقصده بو الارواح الذي يعرف مقاصدها ، لتنسجم مع نواياه السيئة .

ومن هذه الآيات الآية التي تصف قيام الساعة، وقد كررها المؤلف في الرواية على لسان بو الارواح ليكشف عن دخيلته المضطربة ، التي تجعله يرغب في أن تقوم قيامة هذا العالم الذي لم تعد الأمور فيه تسير لصالحه كما كانت في السابق . وأحيانا يكتفي بالاقتباس من القرآن الكريم : ((ألم نشرح الله لكم صدرا (2) . عليهم اللعنة في الليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى)) (3) . كما استفاد من حديث قيام الساعة في التعريض بنظرة بو الارواح الى غيره من الناس البسطاء العاديين (4) .

والأكيد أن وطار يدرك المعنى الصحيح للآيات والأحاديث الواردة ، ولكنه كما قلنا حاول الاستفادة

(1) الزلـــزال ، ص 9 .
(2) ======== ، ص 48 .
(3) ======== ، ص 52 .
(4) ======== ، ص 29 .

من طاقتها التعبيرية ، وتوظيفها للتعريض كما قلنا بنظرة أمثال بو الارواح وسوء فهمهم للدين ، ولكن استعمال القرآن الكريم بهذه الطريقة، ومن مثل هذه الشخصية المنحرفة (بو الارواح) قد حجبت الطاقة الفنية التي أراد وطار الاستفادة منها ، لأن المسلم خاصة لايستطيع أن يستسيغ الاستشهاد بالقرآن في مثل هذه المواقف ، ومن مثل هذا الشخص، خاصة وأن الكاتب لايتحدث عن الدين في كل رواياته الا على لسان أمثال هذه النماذج الروائية المنحرفة رغم أنه قد أعلن هو نفسه في غير ما مرة عن احترامه للدين الاسلامي وقيمه الخالدة . ولا أعتقد أننا بحاجة الى هذا الاعلان من الكاتب لنتأكد من هذه الحقيقة . فرغم التجاوزات التي أشرنا اليها في الزلزال فانها لا تجرد الدين من معانيه الذاتية كما يعتقد د . واسيني الذي يقول في تعليقه على هذه الرواية : ((ان الدين ليس له معنى ذاتيا داخليا ، ولكنه يفسر طبقيا مثلما تفسر كل الثقافات الروحية الأخرى))(1) .

---

(1) د . واسيني الأعرج – اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، ص 552 .

الفصل الثاني

شخصية المجاهد

1 ـ الثورة التحريرية في الرواية الجزائريــــــــــة .

ان الثورة التحريريةفي الجزائر كانت الى حد كبير ، وعلى عكس كثيرمن مثيلاتها في تاريخ الانسانيــة الحديث رائدة للأدب وملهمة للأدباء ، ولم تكن تحريضا من هذا الأدب وتبشيرا منه .

ومن أسباب هذه الظاهرة ، أن الاستعمار الاستيطاني الفرنسي قد استهدف الثقافة العربية في الجزائر بالابادة بقصد القضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية . فحاول استئصال هذه الثقافة في عقر دارها، وقطع كل صلة لها بالعالم العربي الاسلامي .

ومما ساعد الاستعمار على ذلك ، أن هذه الثقافة كانت قد وصلت قبل الاحتلال الفرنسي الى درجة كبيرة من الضعف نتيجة التقهقر الذي وصلت اليه الحضارة العربية الاسلامية، حيث توقفت النهضة العلمية والثقافيـــة والاقتصادية، وتفككت الأمة الى دويلات متناحرة ، سهل على الاستعمار احتلالها ، الواحدة تلو الأخــــــــــرى ((ففي سنة 1830 كان الشعب الجزائري يعيش منذ زمن بعيد في حالة شبه نباتية ، لقد كان يعيش من أجل المحافظة على كيانه فقط ، دون تطور ولا تقدم))(1). فهم الدولة في العهد العثماني لم يكن منصرفا الى تطويــر المجتمع اقتصاديا وثقافيا(2).

واذا كان المستعمر الفرنسي قد وقف من الثقافة العربية هذا الموقف المعادي ، طيلة احتلاله الطويل للجزائر ، فانه لم يعمل على نشر ثقافته ، الا بالقدر الذي يمكنه من استخدام الأهالي ، واحكام قبضته عليهم فالنزر اليسير من التعليم الذي منحه للجزائريين قصره على الفئة الموالية له ، ولذلك لم تكن البداية المبكـرة للأدب في الجزائر بصفة عامة ، وللرواية خاصة(3) ممثلة لأدب جزائري حقيقي . لا لأنها باللغة الفرنسية فقط ، ولكن لأن الأدباء تنكـروا فيها لقيم مجتمعهم((ونظروا اليه من وجهة النظر الأوربيـــــــــة))(4) .

(1) مالك بن نبي : في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق ، 1398 هـ ـ 1972م ، ص 38 .

(2) أنظر د/ سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، من القرن 10 الى 14 الهجري ـ 16 الى 20 الميلادي المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1985 ، جـ 1 ص316 .

(3) ابتداء من سنة 1920 ظهر الروائيون الجزائريون الذين كتبوا بالفرنسية، ومنهم: القايد بن الشريف، حاج حمو عبد القادر ، شكري خوجة . سعيد قنون . محمد ولد الشيخ . علي بلحاج . عيسى زهار . الاخوة زناتي ماري لويس عمروش. جميلة دباش. علي حمامي . جان عمروش. الطيب جمي (جزائري ولد بالمغرب). البودالي سفير . مالك واري .

(4) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 ـ 1967 . ترجمة الدكتور/ محمد صقـــــر ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر، بدون طبعـــــة . ص 60 .

أما الرواية في شكلها ومعاييرها الفنية المعروفة،فقد ظهرت عام 1950 ، مع((ابن الفقير)) لمولود فرعون.(1) وهذا التاريخ لا يبعد كثيرا عن اندلاع الثورة التحريرية في عام 1954. بل ان المنظمة الخاصة ، وهي تنظيم عسكري سري ، قد ظهرت في هذه السنة بالذات (1950). وتطورة فيما بعد الى (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) التي أعلنت الثورة بقيادة جبهة التحرير الوطني .

وهكذا فان الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية لم تظهر بشكلها الناضج الا في الفترة ما بين 1950 – 1956 . هذه الفترة التي كانت الثورة التحريرية قد انطلقت فيها واشتدت وتوسعت الى كامل انحاء الوطن.(2)

((ويعد محمد الذيب رائدا للرواية الجزائرية الحديثة ، فقد كان من أوائل الذين طوعوا الشكل الروائي الحديث ، اي الشكل المتعارف عليه في الغرب ، لامتصاص هموم الانسان الجزائري))(3) .

ورغم ما امتازت به روايات هذه الفترة ، وخاصة ثلاثية محمد الذيب المعروفة من أصالة وعمق وقيم فنية ووطنية ، فان كتابتها باللغة الأجنبية ، قد بقيت حاجزا دون فهمها والتأثر بها . ولكنها استطاعت في حينها أن تعرف بهوية الشعب الجزائري وأصالته وعدالة مطالبه ، ومشروعيتها .

واذا كانت الرواية المكتوبة بالفرنسية ضرورة فرضتها الظروف السائدة قبل الثورة وأثناءها ، فان الأمر يختلف عن ذلك بعد الاستقلال، لأن الكتابة بالفرنسية سواء قبل الاستقلال أو بعده خدمة للأدب الفرنسي أساسا لا للأدب الوطني ، ولذلك فان أجهزة الاعلام والثقافة الفرنسية تهتم بهذا الأدب وتشجعه بالجوائز المختلفة .

---

(1) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري ، 1925 – 1967. ترجمة الدكتور/ محمد صقر ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر . بدون طبعة ، ص 61 .

(2) من الروايات التي ظهرت في هذه الفترة : ابن الفقير(1950) . الأرض والدم (1953) . الدروب الوعرة(1957) لمولود فرعون .

— الدار الكبيرة(1952) . الحريق(1954). النول(1955). من يذكر البحر(1962) لمحمد الذيب.

— نجمة ، لكاتب ياسين .

— الانطباع الأخير 1958 . سأهبك غزالة1959. التلميذ والدرس 1960 . رصيف الازهار لا يجيب 1961 لمالك حداد .

— العطش 1957 . الجزعون 1958 . أطفال العالم الجديد 1962. القنابر الساذجة 1967 لآسيا جبار (فاطمة الزهراء املاين).

(3) د/ غالي شكري : أدب المقاومة . دار الآفاق الجديدة . بيروت ، ط2، 1979 ص 45 .

كما أن ترجمة هذا الأدب المكتوب من طرف أبناء الوطن لا تختلف عن أية ترجمة أخرى ، لأن للعربية ككل اللغات أسلوبها وتراكيبها ودلالاتها التي تختلف عن غيرها .

ثم ان الابداع الحقيقي لايتم الا باللغة القومية ، ولهذا يشعر الاديب الأصيل بعدم القدرة على الابداع بلغة أجنبية . أجاب مالك حداد رحمه الله ، الأديب الفرنسي الذي قال له بأن اللغة الفرنسية هي وطني قائلا: ((اللغة الفرنسية هي منفاي))(1). ولم يكن هذا القول من مالك حداد حذلقة فكرية ، أو دفاعا عن مصلحة آنية ، ولكنه شعور عميق بما كان يراه أكثر من حقيقة .

والحقيقة أن أي أدب قومي بأتم معنى الكلمة لا يمكن أن تعبر عنه لغة أجنبية ، لأن هناك علاقة وطيدة بين لغة المجتمع وبين مشاعره وأفكاره وتقاليده ، وكل ما يميزه عن غيره ، ولذلك فان (حداد) أيضا عندما سئل عن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أجاب : ((طبعا ، ليس أدبا جزائريا ، انه أدب فرنسي ، ذو اهتمامات جزائرية))(2) .

وعلى كل فان الكتابة بالفرنسية اذا كانت في عهد سابق ضرورة حتمتها ظروف الاحتلال كما أسلفنا ، فان استمرار الكتابة بها بعد أكثر من ربع قرن من الاستقلال مظهر من مظاهر الاستعمار الثقافي الذي راهن عليه الاستعمار الفرنسي . ولا يمكن للأفراد والمؤسسات الذين يشجعون الأدب الفرنسي في الجزائر مهما حسنت نياتهم الا أن يسيروا في هذا الاتجاه .

ومن الطبيعي أن يبدأ كتاب الفرنسية ـ بعد الاستقلال ـ في التناقص ، في مقابل ازدياد كتاب العربية رغم ليل الاستعمار الطويل الذي راهن كما قلنا بعد رحيله على الثقافة الفرنسيـــة .

أما الرواية العربية فلم تظهر بشكلها الناضج الا في بداية السبعينات(3) ، ورغم أنها قد حاولت التعبير

---

(1) لمولود معمري رأي مخالف ، فقد أجاب عندما سئل عن الكتابة بالفرنسية قائلا: ((أكاد أقول أن ذلك حظ وربما تكون قيمة الكاتب الذي يعزف على وترين أفضل من قيمة من يكتفي بأن يعبر عن شعوره بلسانه الخاص ويجب اعتبار ذلك ثروة جزائرية تغني الثقافة الجزائرية ، فلا يجب أن نبتر هذا الجزء الذي هو حظ خاص بالجزائر كما أعتقـــد .)) !!!

نقل عن عايدة أديب بامية : تطور الادب القصصي الجزائري ، ص 55 .

(2) انظر محمد الميلي : المجاهد الأسبوعي ، عدد 931 ، بتاريخ 16 جوان 1972 ، ص 22 .

(3) ظهرت قبل هذه الفترة الروايات العربية التاليـــة :

ـ غادة أم القرى (1947) رضا حوحـــو .
ـ الطالب المنكوب (1948) عبد المجيد الشافعي .
ـ الحريـــق (1957) نور الدين بوجدرة .
ـ صوت الغرام 1967) محمد منيـــع .

عن الثورة التحريرية فانها لم ترق الى مستواها لأسباب عديدة أهمها أن الثورة قد اقترنت عند معظم الروائيين (1) بالمطالب المادية للمجتمع الجزائري ، وهي من الدوافع الهامة للثورة على المستعمر دون شك ، ولكن هذه المطالب كانت مقترنة أيضا ((باسترجاع القيم الثقافية وانقاذ الهوية الوطنية المهددة)) (2) ، التي يعتبر الدين الاسلامي المقوم الأساسي لها .

وقد أهملت الرواية هذه الحقيقة واصطدمت بها عند كثير من الروائيين (3) ، وعند بعضهم فان ارتباط العربية بالدين الاسلامي حاجز في طريق اكتساب الوعي الجمالي المرغوب فيه (4) ! وعندما تستلهم رواية ما قيم الدين الاسلامي — التي كانت العامل الأساسي في رفض الاحتلال ومقاومته والقضاء عليه — فانها تسقط في لعبة الاقطاع والبرجوازية ، وتصبح سلاحا يشهر في وجه كل القوى التقدمية (5) !

ومن دون شك فان نية د . واسيني وأمثاله من الأدباء تذهب الى ضرورة استكمال ثورة التحرير بثورة اجتماعية تحقق العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، وهذا هدف نبيل في حد ذاته ، ولكن ذلك يجب أن يتم من داخل المجتمع الجزائري ، وقيمه التي خرج بها منتصرا في حرب التحرير الوطنية .

((ان التحليل الدقيق لمسار الثورة التحريرية يكشف عن طبيعتها التي تحركت في عدة اتجاهات . فهي قد كانت ثورة ضد استعمار استيطاني ، استهدف الجزائر في شخصيتها وروحها العربية الاسلامية ، وحاول أن يؤبد تخلف شعبها ، ويستغل الى أقصى حد خيراتها .

ومن هنا كانت ثورة نوفمبر ذات محتوى سياسي في مواجهة الاحتلال ، وذات طابع ثقافي عقائدي في مسعاها لاسترجاع المقومات الأساسية العربية الاسلامية للشعب ، وذات مضمون اقتصادي اجتماعي في مواجهة الاستغلال الرأسمالي في أبشع صوره من جهة ، وفي مسعاها الى أن تقضي على حلفاء الاستعمار ، أي التخلف والاقطاع والاستغلال من جهة أخرى ، تحقيقا للعدالة الاجتماعية التي تضمنتها رسالة الاسلام (6) .

وقد أخفقت أغلب الروايات في تجسيد هذا الهدف ، والتعبير عن هذه المطامح الشعبية ، لأنها تنكرت

---

(1) باستثناء مرزاق بقطاش وسعيد اني الهاشمي اللذين وجد نوع من التوازن في كتاباتهما .

(2) الميثاق الوطني — ملحق الشعب 1986 ص 6 .

(3) من هؤلاء الروائيين الجزائريين ، عبد الحميد بن هدوقة ، الطاهر وطار ، الأعرج واسيني ، وغيرهم .

(4) انظر د . الأعرج واسيني — تطور ملامح البطل في الرواية الجزائرية ، رسالة دكتوراه الدولة — جامعة دمشق 1984/ 1985 . ص 403 .

(5) انظر د . الأعرج واسيني — محاولة اقتراب من الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية — مجلة الطريق 3/ 4 . 1981 ص 227 .

(6) الميثاق الوطني — ملحق بالشعب اليومي — جانفي 1986 ، ص 8 .

لقيم المجتمع والثورة ، واعتقدت أنها غير مؤهلة لتحقيق العدالة المرجوة ، بل انها قد اعتبرت هذه القيم حواجز في تحقيق هذه العدالة ((ان علينا أن نمس الذي جنى عليه التحايل في عصر النهضة: اللغة والديـــــن))[1].

ومن وسائل هذا ((المس)) عند أصحاب هذا الاتجاه الرواية ، باعتبارها الفن الأدبي الأكثر انتشارا ((ان الرواية العربية الجديدة في أساس نزوعها ، يمكن أن تكون ، ويجب أن تعبر عن ملحمة نهوض وصعود القوى الجديدة ، والانسان الجديد في مواجهة العالم القديم : الكومبرادوري ، البرجوازي اقتصاديا ، واللاهوتي وعيا وفكرا تاريخيين))[2] .

والحقيقة أن مجاهدي ثورة التحرير الذين كان الواحد منهم يطلب ممن معه أن يوثقه اذا خشي مـــن نفسه الضعف أمام العدو ، لم يكونوا يجاهدون لأنهم جياع فقط ، أو لأن الصراع الطبقي يقتضي ذلك ، ولكن لأنهم يأملون في حياة أفضل يستعيدون فيها الكرامة والحرية والعيش السعيد في هذه الدنيا ، وفي ثواب الله الـــذي سيحقق للمجاهد ما هو أفضل من ذلك كله في الآخرة .

ان رموز الاسلام الكبيرة كالله سبحانه عز وجل ، ونبيه صلى الله عليه وسلم ، والآخرة ، والجنة ، والنار والحساب والعقاب ، والثواب ، لاتبرح ذهن المجاهد وهو يقتل أو يقتل ، يضعف أو يقوى ، في النصر أو في الهزيمة ولم يكن هذا الموقف الديني مجرد اقتناع شخصي ، بل ان الروح الدينية كانت هي الغالبة على الثورة التحريريـــة ويظهر هذا في نظام الثورة الداخلي[3] ، والسياسي ، والتشريعي ، والأخلاقي[4] . كما يظهر في البعد العربـــــي الاسلامي للثورة ، وفي مواقف المساندة والدعم الذي كانت تتلقاه من البلدان العربية والاسلامية ، كما يظهر جليا في مواقف المجاهدين من خلال مذكراتهم .

ان قيم المجتمع الجزائري المستمدة من الدين الاسلامي ، كالكرامة ، والعزة ، والأنفة ، والشرف ، والاباء وعدم تحمل الذل والاستعباد ، وحب الحرية والعدالة ، والايمان بنصر الله لمبادئ المخلصين هي التي فجـرت ثورة نوفمبر المجيدة ، وساعدت على الاستماتة فيها ، وأدت الى النصر في النهاية .

---

(1) الياس خوري : الذاكرة المفقودة . دراسات نقدية . مؤسسة الأبحاث العربية ط 1 ، 1982 بيروت ، ص 19 .

(2) حيدر حيدر : الرواية العربية بين حقيقتين: النهضة والحداثة ، الطريق 3/ 4 (عدد خاص) آب أغسطس 1981 العدد الأربعون ، المجلد الأربعون ص 84 .

(3) تحمل بطاقة الاعتماد والعضوية في جيش وجبهـــة التحرير الوطني الشعارات التالية : أ ـ الآيتان التاليتان ((الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون)) ((انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير ان كنتم تعلمون)) ب ـ علم الجزائر ج ـ خريطة الجزائر .

(4) تضمن نظام العقوبات في الثورة ما يلي : ((كل مجاهد مسؤول عن كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال ، سيرة المجاهد الحسنة المتصفة بالاخلاق الاسلامية ترفع من سمعة الجيش وترغب في حب الثورة ، ومن بين المخالفات الفادحة في الثورة : سيرة مخلة بقواعد الاسلام .

واذا لم يكن للرواية دور أساسي في تفجير ثورة نوفمبر كما أشرنا فانها لم ترق الى مستواها، رغم أن معظم الروائيين الجزائريين حاولوا تصويرها واستلهام أحداثها، لانهم كما أسلفنا أهملوا ولم يؤمنوا بالقيم الاسلامية التي كانت بمثابة الروح لهذه الثورة .

ولا نغالي اذا قلنا أنه رغم الروايات الجديدة التي اتخذت الثورة التحريرية موضوعا لها، فان رواية الثورة التحريرية لم توجد بعد .

ولكن هذا لا يعني عدم وجود محاولات للوصول الى مثل هذه الرواية ، ومن هذه المحاولات رواية ((اللاز)) للروائي الطاهر وطار، التي استطاع كاتبها بصدقه ومقدرته الفنية أن يتجاوز ايديولوجيته **السياسية** ليعبر عن الروح الحقيقية للثورة التحريرية ، وان بقي مكبلا بهذه النظرة الايديولوجية التي حجمت طاقته الفنية وحالت بينه وبين الوصول الى التعبير عن نفسيات مجاهدي هذه الثورة ومشاعرهم وأسباب قوتهم وصمودهم وتحقيقهم للنصر رغم قلة الوسائل والامكانيات المادية .

2 ـ شخصية المجاهـــــــد :

تؤكد تسمية المجاهدين، وهي التسمية الشعبية والرسمية التي تطلق على أعضاء جيش التحرير الوطني الطابع الديني للثورة التحريرية. ولا يستمد الطابع الديني من هذه التسمية فقط أو من كثير من الرموز الدينية في الثورة التحريرية كالشهادة ، والآذان، والحرص على أداء الشعائر الاسلامية ، وخاصة الصلاة والصيام حتى في أقسى الظروف ، ولكنه يستمد أيضا من الاعتقاد الراسخ في أذهان أغلبية المجاهدين، وهو أنهم يدافعون بهذا الجهاد عن الاسلام ، ويرضون به الله سبحانه عز وجل، الذي يبيعونه أنفسهم، كما يستعيدون به الحرية والكرامة والعيش السعيد في الوقت ذاته .

وتسمية المجاهد والمجاهدين هي الغالبة في رواية ((اللاز))(1) . ولكن هناك تسميات أخرى أيضا للمجاهدين مثل الاخوان أو الخاوة أو الجماعة، وقد وردت تسمية ثوار كذلك ولكن لمرة واحدة في الرواية(2) . وهذه الروح الدينية لاتقتصر على الشيخ مسؤول جبهة التحرير الوطني ، فليس هو الشخصية الدينية الوحيدة في الرواية ، وان كان الروائي قد حاول أن يظهره بهذا المظهر دون غيره من الشخصيات الروائية الكثيرة ، ولكن ايديولوجية الخطاب الروائي قد تختلف عن ايديولوجية الكاتب ذاته ((فهي ليست ايديولوجية قصدية أي يقصدها الكاتب الروائي قصدا فقد يقصدها ولا تتحقق من وراء قصده ، أو لايحقق بقصده خطابا روائيا . وهي ليست تعبيرا بالضرورة عـــن

(1) اللاز. الطاهر وطار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 3 ، الجزائر 1981.
(2) نفس المصـــــــدر ، ص 213 .

ايد يولوجية الكاتب الروائي نفسه ، بل قد تختلف عن ايد يولوجيته التي يتبناها بمسلكه الخطي أو بموقفه الاجتماعي الطبقي ، وهي ليست محدودة بهذه الفكرة أو تلك ، أو هذا الموقف أو ذاك لشخصية أو أكثر من شخصيات الخطاب الروائي ، انها المضمون العام النابع من بنية الخطاب الروائي والدلالة المؤثرة لمجمل هذا الخطاب)) [1] .

ان صفة التدين الأصيلة في الانسان الجزائري قد ظهرت عند كافة أشخاص الرواية مع تفاوت طبيعي بينهم وحتى زيدان نفسه ، الشخصية الشيوعية يكن احتراما كبيرا للدين الاسلامي رغم التجاوزات التي يشعر هو نفسه بالخطأ في ارتكابها ، فالروح الدينية تطغى على الرواية كما طغت على الثورة التحريرية ، وقد تجاوز الكاتب بصدقه وعفويته ايد يولوجيته كما قلنا ، وان كانت هذه الأخيرة قد حاولت أن تربط الدين بالمصلحة الخاصة تارة ، وبالخرافة تارة أخرى [2] .

وعلى كل فان لكل شخصية في الرواية حظا من التدين ، وبهذه الروح الدينية يحتمل الشيخ الربيعي في كبره الحياة بعد استشهاد ابنه ((قدور)) وزوجته ((حيزية)) ويترحم على الشهداء جميعا في كبرياء واعتداد [3] كما احتمل من قبل جرائم العسكر الفرنسي واهاناته له ولزوجته ، وقد كان يستعين بتلاوة القرآن الكريم ويستمد منها قوة لتحمل في مثل هذه المواجهة غير المتكافئة مع المستعمر الحاقد ، الذي لا يراعي في المسلم الا ولا ذمة .

وهذه الروح الدينية هي التي تمكن زوجة الربيعي حيزية من تحمل فراق ابنها وتشجيعه على المشاركة في الثورة ، وقد كان قدور يعتقد أنها على غير علم بذلك ، ولكنها تفاجئه عند لحظة الفراق بمعرفة ما كان يعتقد أنها لا تحتمله ، بل تشجعه على المضي فيه [4] ، كما تحملت اهانات العسكر الذي قتل ((مريانة)) أم اللاز أمام عينيها واستشهدت في الأخير حيث قتلها (بعطوش) بعد أن اعتدى على كرامتها [5] . وبهذه الروح أيضا يشعر ابنهما قدور باختلافه عن الفرنسيين [6] ، ومنها يستمد كثيرا من الصفات العالية المعروفة عند سكان البادية كالحزم ، والجد ، والحذر والصراحة ، وعدم الكذب ، ونقاء السريرة ، والمحافظة على السر [7] . وهذه الصفات هي التي دفعته كما دفعت أغلبية من سكان الريف الى الجهاد والاستشهاد رغم أن ((قدور)) تاجر ميسور الحال اذا ما قورن بغيره من سكان القرية .

و ((لحمو)) مسؤول فرقة الفداء — بالاضافة الى حساسيته الخاصة تجاه الظلم والعوز المادي — نفس

---

(1) الرواية العربية بين الواقع والايد يولوجية : محمود أمين العالم ، يمنى العيد ، نبيل سليمان ، دار الحوار ط 1 ، 1986 ، سورية ص 16 .

(2) سنوضح هذه الفكرة في مباحث تالية .

(3) انظر ((اللاز)) ص 10 و ص 275 .

(4) ======= ص 34 و 35 .

(5) ======= ص 190 الى 192 .

(6) ======= ص 42 .

(7) ======= ص 51 .

هذه الصفات الريفية ، المستمدة في معظمها من الدين الاسلامي ، هذه الصفات التي تجعله أمينا على المبالغ المالية الهامة التي تضعها الثورة تحت تصرفه رغم فقره الشديد .

يقتنع ((حمو)) بكلام أخيه ((زيدان)) وان لاحظ عليه ما يدل على أن ((زيدان)) يختلف عن غيره من الجزائريين . فهو لا يستعمل ألفاظ الأخ ، والمجاهد ، والكافر . كما أنه يجرد الثورة من دافعها الديني ، فقد أجابه عندما سأله عن سبب عدم استعمال مثل هذه المصطلحات قائلا : ((لسنا في حروب صليبية))(1) . ومع هذا يعجب حمو بمنطق أخيه المثقف زيدان ، لأنه أمي لا يجد من نفسه أو من غيره القدرة على فهم البعد الديني للدين الذي لا يدرك أنه لا يصلح للأخوة فقط ، ولكنه اذا طبق على حقيقته ، فسيقضي على حالة الفقر الشديد التي تردى اليها أمثالــه .

والدافع الديني أيضا هو السبب في توبة الخونة والمنحرفين واستيقاظ ضمائرهم ، فيعودون الى رشدهم بعد أن يقعوا في الخطأ ، ويسيئوا الى وطنهم ومواطنيهم . ومن هؤلاء في الرواية ((بعطوش)) و ((اللاز)) و ((رمضان)) وكثير من المجندين المسلمين في صفوف الاحتلال .

فبعطوش الذي خان وطنه ، وارتكب جرائم عديدة كالقتل ، والاعتداء على المحرمات ، وشرب الخمـــر فعل ذلك تحت تأثير الجهل والعوز المادي الذي جعله يتذمر ويتضايق من كونه عربيـــا : ((لم ولد عربيا في هذا البلد التعيس؟))(2) .

وقد أدى الجهل والفقر الى نقص الوعي الديني عنده ، هذا الوعي الذي ظل رغم نقصه يؤرقه ، ويهـــز ضميره ، فلا يفتأ يردد ((خالتي يا ربي سيدي)) ، الى أن تمكن في النهاية من الانتصار على نفسه ، وقد كان الطاهر يدرك هذه الحقيقة عند الجزائريين أمثال بعطوش الذي ((كان خائفا من أن يصحو ضميره))(3) ، وخوف الطاهر كان في محله ، سواء عند ((بعطوش)) أو ((رمضان)) الذي شارك في الحرب العالمية الثانية ، كما شارك أبوه في الحرب العالمية الأولى الى جانب فرنسا . وقد التحق رمضان بصفوف الثورة التحريرية وأبلى فيها بــلاء حسنــا ، بفضل خبرته العسكرية وشجاعته ، وبفضل الهدف الواضح الذي أصبح يخوض الحرب من أجله الـــى جانب اخوانه من الجزائريين المسلمــين .

أما ((اللاز)) الثمرة السيئة لظروف الاحتلال ، فقد حاول أن يتحدى واقعه بضرب كل القيم ، لعلــه بذلك يتجاوز صفة اللقيط التي يعاني منها ، دون أن يكون له دخل فيها . ولكن ذلك لم يخلصه من الــــلاز

---

(1) ((اللاز)) ص 107 .

(2) ==== ص 129 .

(3) ==== ص 130 .

ولد مريانة . فما العمل اذ ن ؟ انه يهتدي في الأخير بالفطرة ، وبوحي من قيم مجتمعه الى أن الخلل فـــي طريقة التحدي والظهور التي كان يسلكها ، والتي لم تزد المجتمع الا حقدا عليه ((لو وجدوا جثتي ملقاة في الشارع مخربة برصاص العسكر ، لتركوها في مكانها تتعفن ، بل قد يبصق علي الكثيرون))[1].

وينتهي ((اللاز)) الى الاقتناع بأن العمل بمقتضى القيم الرفيعة هو الذي يخلصه من صفة اللقيط ولد مريانة ، ولهذا ينضم الى الثورة حامية هذه القيم ويسترد بذلك قيمته واعتباره في نظر نفسه وفي نظر غيره. ويتوجه الى الله طالبا منه العون في لحظات الشدة ((يا ربي سمعنا خيرا ، يا ربي سيدي أعنا واحفظنا))[2].

ففي النهاية ، وكما يقول المثل الشعبي الذي يردده ((اللاز)) دائما ((ما يبقى في الواد غير حجاره)) ، لا يبقى غير (الصح) كما يقول حمو ، والصح في المجتمع الجزائري هو القيم الاسلامية لا الايديولوجية الشيوعية كما تحـــاول الرواية أن تظهره من خلال مقولات زيدان الكثيرة ، وتحليلاته السياسية المباشرة في كثير من الأحيان[3] .

وبالنسبة لزيدان الذي تثقف في مدارس فرنسا وموسكو ، وعاد (بالشيوعية) منهما فانه لم يواجه الديـــن مباشرة ، بل انه يحتفظ بعاطفة دينية دفينة تربطه بالاسلام ورموزه الأساسية ، وان حاول في الظاهر صد هـــا واخفاءها ، وعدم التقيد بها[4] ، وهو يدرك الصعوبة التي تعترض الفكر الشيوعي في الجزائر ، ويشبه الشيوعيين أمثاله ببراعم نبتت في سبخة لا تلبث أن تذبل وتجف[5] . ولكنه لا يرد هذا الى أن المجتمع الجزائري مشبع بالقيم الاسلامية التي تتجاوز مجرد الارتباط العاطفي وترتبط بالواقع العملي ، بل انه يهرب من هذه الحقيقة ، ويغالي في وصف المجتمع الجزائري بالتخلف الشديد . هذا المجتمع الأشد تخلفا من مجتمعات القرون الوسطى ، والضارب فـــي التأخر والانغلاق على حد تعبيره[6] . ولعله قد قصد التخلف المادي والفقر الشديد الذي يعاني منه معظـــم الشعب الجزائري آنذاك ، ولكن الظاهر أنه يقصد التخلف الحضاري ككل الثقافي ، المعنوي والمادي ، لأنـــه يتجاهل انتماء الجزائر للحضارة العربية الاسلامية ، ويقفز بعيدا عنها ليحكم على الجزائر بأنها لم تولد بعـــد وأنها لاتزال نطفة في أحشاء التاريخ[7] ، لكن هل تخوض نطفة في أحشاء التاريخ ثورة عظمى كثورة التحرير ضد دولة

---

(1) اللاز ، ص 124 .

(2) === ص 199 .

(3) انظر اللاز ، ص 161 ، 162 .

(4) يفكر زيدان في النبي صلى الله عليه وسلم ويشعر بحبه (ص 111) ، وعندما يخطيء في حقه يعود فيتراجع ويقول اني اهذي (اللاز 168) .

(5) انظر ((اللاز)) ص 109 .

(6) ======= ص 109 .

(7) ===============.

كبى تنكر عليها حقها في الوجود ؟ !

ان هناك عاملا آخر يخفي على زيدان أو يخفيه عن نفسه ، لا يجعل الجزائر نطفة مضمرة أو وليدا في المهد على الاكثر ، كما كان يقول ، بل انسانا راشدا يدافع عن نفسه في الوجود .

ولما كان زيدان يدرك أن هذا العامل ليس هو العقيدة الشيوعية التي يؤمن بها ، فانه يكتفي في مرحلة أولى بالاحساس الوطني وحب الحرية (.. المهم في الوقت الراهن أن يقوى ايمانهم بو لنهم ، وحريتـــه (1)) الا أنه يستدرك بعد ذلك بقليل فيقول : ((هذه الحركة (يعني الثورة التحريرية) يجب أن تتبنى الصراع الطبقي من الآن (2))) لانه يعلم أنها ليست كذلك ، ولهذا يجعل زيدان مهمته في الجبل تـالي جانب المشاركة في الكفاح المسلح — توعية المجاهدين بضرورة تبني الصراع الطبقي ، وان لم يكن يعلن ذلك صراحة ، لانه لمس بنفسه الروح الدينيـة العالية التي يتمتع بها المجاهدون الذين كان معظمهم من العمال والعاطلين والفلاحين الشديدي التديـن ومعلمي القرآن .

وليس هذا وحده ما يعرقل جهد زيدان وهدفه في أن تبنى الثورة على أساس الصراع الطبقي ، بل انه يجابه بما كان تجاهله في السابق وهو انتماء الجزائر للحضارة العربية الاسلامية ، فيعترف بأن ((وضع الشيوعيين في هذا الهيكل العظمي ، المسمى بالعالم العربي كان سيئـــا (3))) .

وخليفة زيدان الذي اختاره بنفسه وزكته الجماعة بالانتخاب يدل على أن زيدان لم يترك الأثر الـذي كان يأمله حتى في المجموعة القليلة العدد التي كان يتزعمها ، فبعد اعلان السبتي خليفة لزيدان خاطبه هـذا الأخير قائلا : والآن ايها الرفيق السبتي يجب أن تقول كلمة ، فرد عليه خاطبا في الجماعة يقول : ((أشكر الاخ زيدان على اختياري لهذه المهمة الخطيرة (...) بارك الله فيكم ، عاشت ثورتنا ، الله أكبر (4))) .

ويبدو أن المؤلف نفسه كان مقتنعا بالدور المحدود الذي كان للشيوعيين في الثورة التحريرية . فقـــد أنهى وجودهم في الثورة بانتهاء زيدان وجنون ((اللاز)) الذي حاول أن يبعثه من جديد في الجزء الثانـي من هذه الروايــــة (5) .

وعلى كل فان زيدان رغم اقتناعه الظاهر بالايديولوجية الشيوعية ، فانه لا يشذ عن كل الجزائريين فـي

---

(1) ((اللاز)) ص 161 .
(2) ===== ص 162 .
(3) ===== ص 200 .
(4) ===== ص 183 .
(5) يخصص الفصل الموالي للحديث عن هذا الجـــزء .

امتلاكه لحظ من التدين لايمكن أن ينعدم في كل الظروف . وقد لاحظنا عليه ذلك في اشارة سابقة ، ولهذا فان ترديد زيدان لنشيد الأممية عند مقتله بدل الشهادة التي يختم بها كل مسلم حياته لاينسجم مع هذه الحقيقة الكامنة في نفسه ، اذ لم يبد منه ما يدل على الحاد ، حتى لا يردد الشهادة عند موته .

ان الاحساس الديني الذي اثبتناه لزيدان من خلال أقواله هو نفسه ، يكون أكثر حضورا عند مواجهة الموت . ولكن الظاهر أن المؤلف خشي من أن يكون في ذكر زيدان للشهادة دلالة على تراجعه عن الايديولوجية الشيوعية التي أراد له أن يموت مخلصا لها ، في حين أن واقع زيدان نفسه وطبيعة مشاعره وأفكاره في حياته العادية حتى قبل أن يواجه خطر الموت ، لم تكن تنبئ بهذا الموقف الذي أراد المؤلف أن يختم به مسلسل جزائي حياته .

واذا لم تكن الرواية تقصد الى اظهار الجانب الديني لدى الشخصيات السالفة الذكر ، فالامر يختلف بالنسبة لشخصية ((الشيخ)) مسؤول جبهة التحرير الوطني الذي تعمد الكاتب أن يظهره بمظاهر المتدين الرجعي البرجوازي المتسلط ، الذي ينفذ حكم الاعدام الصادر من ((الشيوخ)) في القاعوة على زيدان والاوربيين الخمسة .(1) تكتفي الرواية بهذا الموقف للشيخ ، ولا تزيد عليه شيئا ولكنها قد ربطت أيضا في غير شخصية ((الشيخ)) بين الدين والخيانة والتعامل مع الاستعمار . فالشايب السبتي مثلا يجمع بين صلاة الفجر وملازمة المسجد والخيانة والشامبيط ((أكبر خائن على الاطلاق))(2) ، يقيم الحد على اللاز فيجلده ، قبل أن يقرر توبته ويطلق سراحه .(3) كما تعرض الرواية الأئمة والحجاج بمظهر الخونة ، وتقارنهم بالمعمرين المحتلين .(4)

ولما لم يكن ممكنا نسبة الخيانة للمجاهدين الشديدي التدين في معظمهم ، فقد حاولت الرواية ربط هذا التدين الذي كان مصدر صمود هم وقوتهم بالخرافة والأمية والجهل ، الذي يجعل تدينهم هذا مثارا للسخرية والاستهزاء . ومن هؤلاء المسؤول السياسي ومعلم القرآن السابق الذي تعرضه الرواية بهذه الصفة ، ويعيب عليه زيدان استلهام صور الصحابة ، ويصعد هذه الفكرة عنده ليرفعها الى درجة الخرافة التي تجعله مصدر سخرية لغيره .(5)

ومع هذا القصد الى تشويه صورة الشخصية الدينية للمجاهد ، فان الرواية قد صورت الجو الديني للثورة وظهر ذلك في مصطلحاتها التي أشرنا الى بعضها ومنها : الاخوان ، المجاهدون ، الجماعة ، الشهداء ، الخيانة . .

---

(1) انظـر اللاز ص269/ 270 .

(2) اللاز ص 87

(3) انظر اللاز ص13، 14 .

(4) ======== ص25، 46، 119، 151 .

(5) ======== ص173/ 174 .

كما ظهر في رموز العقيدة الاسلامية التي تتردد في الرواية ، ومنها : الله سبحانه عز وجل ، النبي صلى الله عليه وسلم ، القرآن ، الأحاديث ، الصحابة ، جنود الله . وفي الاعتقادات الدينية كالايمان بالله والايمان بالقدر ، والايمان بيوم الحساب ، فقد كان الجميع ، بما فيهم زيدان يستحضر هذه الحقيقة ، وخاصة عند استشهاد أحد المجاهدين ، وعبارة ((الله يرحم الشهداء))[1] مألوفة في الرواية ، كما كانت مألوفة في واقع الثورة اليومي ، وفي الشعائر الاسلامية كالشهادة ، والصلاة ، والحج ، والآذان ، وان كانت الرواية تعرض لبعضها بسخرية أو تقرن بينها وبين الخيانة والعمالة ، وفي المحرمات كالتبغ ، والخمر ، والزنـى ، وخيانة الوطن . وفي التصرفات والمواقف كالتضحية بالنفس في سبيل الله ، والدعاء للمجاهدين بالنصر ، والدعاء على الخونة ، وفي الصبر على الأذى المعنوي ، والتعذيب الجسدي ، وحتى في الشعارات والأقوال ، كالله أكبر وسبحان اللـه .

[2] [3] [4] [5] [6] [7] [8] [9] [10] [11]

وقد شاركت المرأة بدافع من هذه الروح الدينية ، وشجعت ابنها وزوجها ، وتحملت هي نفسها الأذى وتعرضت كالرجل للتعذيب ، والقتل . فقد شجعت ((حيزية)) ابنها ((قدور)) على الجهاد ، واستشهدت هي نفسها . كما استشهدت ((مريانة)) أم السلاز ، وضحت احدى النساء بزوجها الخائن ، فكشفت مخبأه للمجاهدين وأعانت الثورة بمبلغ مالي هام ، وأبدت رغبتها للمشاركة بنفسها في الجهاد[12] . فعلت كل ذلك ((اعانة لله في سبيل اللـه))[13] كما قالت هي نفسها ، ومع أنها فقدت زوجها فقد بقيت مرتاحة الضمير[14] ، لأنها فعلت ذلك في سبيل الله .

يبقى أن نلاحظ في الأخير أن الجانب الديني في شخصية المجاهدين – رجالا كانوا أم نساء – ان كان احساسا يحض على الجهاد ، ويبعث على الصمود ، فانه لم يكن فكرا واضحا ومنهجا للحياة في الحرب والسلم

(1) انظر ((السلاز)) ص 173/ 174 ، 199 .
(2) ============ ص 9 ، 10 ، 142 ، 276 .
(3) ============ ص 152 .
(4) ============ ص 168 .
(5) ============ ص 106 .
(6) ============ ص 106 .
(7) ============ ص 155 .
(8) ============ ص 134 .
(9) ============ ص 134 الى 137 .
(10) ============ ص 183 .
(11) ============ ص 103 .
(12) ============ ص 166 .
(13) ============ ص 155 .
(14) ============ ص 155 .

كما يلاحظ زيدان ((معظم هؤلاء المجاهدين ، وان كان ينقصهم التفكير الواضح لاتنقصهم الجرأة وروح التضحية والفـــداء ..))[1] .

وبطبيعة الحال فان هذا لا يعود الى الاسلام الذي هو منهج متكامل لأمور الدين والدنيا ، ولكنـــه يعود الى طبيعة المجتمع الجزائري آنذاك ، وربما لاتزال أغلبيته تجهل هذه الحقيقة الى اليوم ، نظرا للجهل والأمية ومحاربة الدين بشتى الطرق من طرف المستعمر الفرنسي الذي كان يهدف الى القضاء على الشخصيـــة الجزائرية ، والحاق الوطن الجزائري نهائيا بفرنسا . وبعد الاستقلال استمر الغزو الثقافي الأوربي ، بل ازداد ومن بين أهم أهدافه محاربة الاسلام الذي كان ولا يزال الحصن المتين الذي يحمي الشخصية الجزائرية من خطر الاعتداء الخارجي والتمزق الداخلي كليهما .

استعرضنا فيما سبق شخصية المجاهد ، وتعرفنا على الطابع الديني لثورة التحرير الجزائرية ، ولم نتعرض للبناء الفني لشخصيات الرواية وأحداثها ، لأننا خصصنا لذلك مبحثا مستقلا هو المبحث المواليـي :

3 ـ بناء الروايـــــــــــة :

تتميز رواية ((اللاز)) بانسجام وتماسك داخلي محكم رغم المدة الطويلة التي استغرقتها كتابتها منذ بداية التفكير فيها الى نهايتها[2] . والواقع ان الاعداد لكتابة أي قصة ناضجة يستغرق سنوات . ويمكن القول أن بداية التفكير فيها هي فترة الاعداد ، وان ما يليها هو سلسلة من العمليات النفسية المعقدة . وفي خلال العمليـة الطويلة للكتابة يتم اختزالها الى كلمات على الورق ، وقد يكون ذلك بنسبة الثلث أو جزء من عشرين ، أو جزء مـن مائـــة[3] .

ظهرت هذه الرواية الأولى للطاهر وطار قوية ناضجة متميزة في الرواية الجزائرية والعربية على السواء حتى أن كاتبها نفسه لم يستطع تجاوزها فيما تلاها من روايات .

ولا يعود نجاح هذه الرواية الى تقنياتها الحديثة ، مع أن الكاتب استفاد من هذه التقنيات ، بقـدر ما يعود الى الانفعال بمضمونها ، والعفوية والصدق اللذين كتبت بهما . يقول وطار ((اني أبي أن التكتيـك يتدرج في الكتابة ، وبمجرد كتابة الفصل الأول يبدأ مسار الرواية وسياق الاحداث بالتوالد تلقائيا من داخـل

(1) انظر ((الـــلاز)) ص 216 .
(2) استغرقت رواية اللاز سبع سنوات من التفكير ، وسبع سنوات من الكتابة . مقدمة اللاز ص 7 .
(3) انظر برنارد دي فوتو ، (عالم القصـــة) ص 74 .

الموضوع والمضمون))[1]، ((فالتكنيك عند وطار جزء من المضمون والموضوع الروائي أولا وقبل كل شيء))[2] ، فهو لا يتصور مسبقا شكل الرواية التي سيكتبها ((ليس لدي تصورات مسبقة للرواية مهما خططت ومهما نويت أن يكون التكنيك بهذا الشكل أو ذاك))[3]

تحتوي رواية ((اللاز)) على 24 قسط ، ويتراوح عدد صفحات كل قسم بين صفحتين وخمس وعشرين صفحة . وتنتظم وقائع الرواية عبر هذه الاقسام بشكل تركيبي متداخل . فالأحداث لا تبدأ من زمن وحدث معينين ، وتسير في خط مستقيم نحو نهاية محددة . ولكنها تعرض علينا متداخلة ، حيث تبدأ من النهاية وتتكشف تدريجيا عن طريق اللوحات أو المشاهد أو الفصول الأربعة والعشرين التي تتكون منها الرواية ، ومع هذا تحافظ على خيط حكائي سردي مشحون بالعقد والمفاجآت التي ينتهي بها كل قسم تقريبا ، فتغري القارئ باستكمال القراءة ليعرف مصير الأحداث والشخصيات بهذه العقد المتنامية ، وحلولها ، والمفاجآت التي تحطها . وتنتهي الرواية بالنهاية الحزينة التي ابتدأت بها ، ولكن نبرة الحزن هذه لا تبعث على الاستسلام واليأس والتسليم بالأمر الواقع ، بل تحفز الهمم وتوقظ الضمائر وتذكر برسالة الشهداء التي دفعوا حياتهم من أجلها .

أ ـ بناء الشخصيات والأحداث الروائيـــــة :

تتجاوز الشخصيات في رواية اللاز الثلاثين ، من بينها كثير من الشخصيات التي لها أدوار أساسية ، ومنها اللاز ، زيدان ، حمو ، قدور ، بعطوش ، رمضان ، الشيخ ، وقد أولى الكاتب عناية خاصة بهذه الشخصيات ، لأنها تمثل فئات المجتمع الجزائري التي شاركت في الثورة التحريرية .

والبطل الأساسي هو ((اللاز)) الذي تحمل الرواية اسمه ، ويهتم الكاتب به ، فيصف طفولته المضطربة (.. هذا اللقيط الذي لا تتذكر حتى أمه من هو أبوه ، وكأنما التقطته من الرماد مثل الدجاجة .. برز الى الحياة يحمل كل الشرور .. كان في صباه لا يفارق أبواب وساحات المدارس ، يضرب هذا ، ويختطف محفظة ذاك ويهدد الآخر ان لم يسرق له النقود من متجر أبيه ، أو الطعام من مطبخ أمه))[4] ، يهدد الاطفال بالخنجر يضرب حتى الموت[5] ، لكنه لا ينهزم ، وقح ، شرير ، سكير ، سارق ، قمار ، لا يكاد يفارق السجن الا ليعود اليه تأذى منه الجميع وتمنوا هلاكه ، لكن أملهم خاب وخاصة بعد أن توطدت العلاقة بينه وبين الحاكم العسكري

---

(1) حوار في علاقات الثقافة بالسياسة ، فيصل دراج ، ص 101 .
(2) نفس المرجـــــــع ، ص 100 .
(3) =========== ص100/ 101 .
(4) الـــــلاز ، ص 12 .
(5) انظر الـــلاز ، ص 12/ 13 .

الفرنسي للمنطقة ، فأقام معه علاقة مريبة ، لم يجد سكان القرية لها تفسيرا مقنعا ، ويستغل ((اللاز)) هذه العلاقة في خدمة الثورة ، ويسترد بذلك قيمته وكرامته . ويساعد ((اللاز)) على تهريب المجندين الجزائريين الى أن يكتشف أمره ويتعرض للتعذيب الشديد فيتجمله ، حتى يمكن قدور الذي يتعاون معه على تهريب المجندين الجزائريين من الالتحاق بالجبل ، وينتهي به الأمر الى الفرار هو كذلك ، بمساعدة مجندين جزائريين ولكنه يصطدم في الجبل بمقتل والده أمامه فيسقط مغشيا عليه ، وتنتهي حياته في الرواية بالجنون لهول هذه الصدمة .

ان اللاز بالصورة التي يظهر بها في الرواية نموذج للانحراف والتشويه الذي لحق شخصية الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي ، تحت ضغط التشريد والتفقير والتجهيل والظلم وانعدام القيم كما أسلفنا . وقد جاءت تصرفاته وأفعاله منسجمة مع شخصيته دون أثر للتكلف أو التزيد فيها ، فهو يتصرف وفق طبيعته الشاذة المنحرفة ، ولا يخضع لأوامر المؤلف وتخطيطه المسبق لما سيقوم به . فكل الشرور الصادرة عنه تجاه من حوله مبررة بظروف نشأته ، وبالازدراء وعدم الاعتبار الذي كان يعامله به الناس ، فقابل ذلك بالتحدي والسخط على الجميع رجالا وأطفالا ونساء ، ثم كان الانعطاف في حياته بالمشاركة في الثورة ، في اطار البحث عن الذات دائما واثبات الوجود ، حيث انسجم مع قيم المجتمع التي تعبر عنها الثورة ، الهادفة الى تحقيق الحرية والكرامة والعدالة للجميع ، واسترد بذلك كرامته وقيمته . واقترنت هذه المرحلة باكتشاف الأب الذي أعاد اليه اعتبار النسب . كما أعادت اليه الثورة اعتبار القيم التي كان قد تمرد عليها بدافع التحدي كما قلنا . وتحول حقده الى المحتل الفرنسي بعد أن كان موجها الى المجتمع من حوله .

واذا كانت شخصية ((اللاز)) متماسكة نسبيا في بنائها الفني ، فان شخصية زيدان ذات الدور الأساسي في رواية ((اللاز)) لا تحمل مثل هذا التماسك في البناء ، والعفوية في التصرف ، فهي تظهر جاهزة منذ البداية . وأول اشارة اليه في الرواية تدل على نضجه السياسي . فعندما يسأل قدور صديقه حمو عن أخيه زيدان يجيبه قائلا : ((يا ابن عمي ، زيدان مريض ، ضايع ، ملكته السياسة ، كل يوم في مكان)) (1) .

تعلم زيدان في مدارس فرنسا وموسكو وقضى مدة ست عشرة سنة عضوا دائما في الحزب الشيوعي . ولكن الرواية لا تذكر شيئا عن هذه التجربة في النضال ، بل تظهر زيدان جاهزا كما أشرنا ، يتولى مهمة القيادة والاشراف على التوعية في الوسط المدني ، ثم العسكري بعد التحاقه بالجبل . فلم تنم هذه الشخصية نموا منطقيا طبيعيا في اطار الأحداث الروائية كما هو الحال مع اللاز مثلا أو حمو أو قدور . وكما أن بناء هـــذه

---

(1) الـــلاز ، ص 26 .

الشخصية غير متماسك ، فان أعمالها وتصرفاتها غير مقنعة في كثيرمن الأحيان . ولهذا لم يقتنع الا ((اللاز)) و ((حمو)) بفكرته الايديولوجية، وهما ابنه وأخوه كما نعلم . أما نظرة الاحترام التي ينظر بها اليه من كان معه من المجاهدين ، أمثال قدور ، ورمضان ، ومسؤولوا الفرقة التي كان يتزعمها ، فتعود الى تقدير الناس للرجولة والاستقامة والاخلاص لدى أي شخص كان ، مهما كان اعتقاده ، وخاصة في وقت الثورة الذي كانت فيه الطاعة والانضباط واحترام المسؤول من أهم واجبات المجاهد . كما أن زيدان لم يكن يفصح مباشرة عن أيديولوجيته ويدعو لها في وسط المجاهدين .

ورغم هالة التواضع والوقار التي تحيط بها الرواية زيدان ، فانه لم يكن يخلو بينه وبين نفسه من الغرور والتعالي الذي يجعله مثلا يقول عن أحد المجاهدين : ((بذلت قصارى جهدي لأنفخ فيه الـروح الطبقيـة (1))) ، ويحكم بدقة على نسبة تطوره ((وقد تطور بنسبة أربعين في المائة (2))) ، ونظرا لاحساسه الزائد بقيمة نفسه فانه يوكل لها وحدها ودون غيرها مهمة اعداد القادة ، قادة الثورة ((كان المفروض أن لا أوزع طاقتي في تربية الجميع دفعة واحدة ، وأن أكون القادة أولا . الطليعة الطليعية . . كنت أرى أن جيشنا لابد وأن يضخم في يوم من الأيام فجأة . . فتكون هذه النواة متخرجة في فن القيادة (3))).

وهذا التقدير الزائد للنفس هو الذي يجعل زيدان يشعر بصعوبة وجود من يخلفه ((مهما يكن فمن يخلفني ؟ لمن أسلم هذه المهمة التاريخية الخطيرة (4))) مهمة خلافة زيدان !! . يعاتب زيدان نفسه ويكشف عن خباياها ((كنت في الحق لا أثق الا في نفسي ، وأفرض عليهم الوصاية الأبوية . . أنانية ، اعتداد بالنفس (5)(. .))) ولكنه يعود فيسترضيها ويرمي عنها التهمة الى الطرف الآخر ((تصرف برجواني محض . . (6))) .

والواقع أن مثل هذه التصرفات لا تنفي عمل زيدان المخلص في الثورة، وان لم يكن هذا العمـــل بالحجم الذي تصوره به الرواية . ان هذا العمل نموذج لـ ((بعض الأعمال الفردية الصادرة عن بعض الشيوعيين الذين انضموا الى صفوف جبهة التحرير وجيش التحرير (7))) .

---

(1) ((اللاز)) ص 173 .

(2) = = = = = = = = = = .

(3) = = = = = = 175 .

(4) = = = = = = = = = = .

(5) = = = = = = 172 .

(6) = = = = = = = = = = .

(7) مقتطفات من منهج الصومام — النصوص الأساسية لحزب جبهة التحرير الوطني (54 — 52) ، وزارة الاعلام والثقافة — الجزائر 1979 — ص 23 .

ولعل بناء شخصية حمو على بساطتها أكثر اقناعا من شخصية زيدان ذاته في تمثيلها لواقع البؤس الذي يعيشه الجزائري في ظل الاحتلال ، وقد كان أمر اقتناعه بالثورة ومشاركته فيها مقنعا لهذا السبب والقارئ يشعر بصدق حمو ومعاناته وهو يتشكى من وضعه العائلي وعمله المرهق وسط الأدخنة والروائح الكريهة ، ويكتوي بنار فرن الحمام الذي يشتغل به من الفجر الى ساعة متأخرة من الليل: ((يا بن عمي هذه والله ما هي بخبزة ، أربعون دورو في اليوم ، وأربعة عشر فما مفتوحا . الدقيق بعشرين دورو الكيلو .. والزيت بأربعين ، والصابون بخمسة عشر القالب ، وزد ، وزد ، (معيشة) كلاب والله))(1) . غيرأن هذه الشخصية الشعبية تبقى مع هذا بسيطة البناء ((ذات بعد واحد ، ولا تملك ثراء كبيرا ... والكاتب لم يطورها ... بل ظلت كما هي حتى بعد الاستقلال دون أن يحدث لها تغيير يذكر))(2) .

ويظهر في علاقة حمو بصديقه قدور ، وفي الحوار الجاري بينهما على الخصوص أن الافكار التي تعرضها الرواية على لسانه أكبر منه ، وتشكل عبئا ثقيلا على شخصيته الشعبية . يقول حمو مخاطبا صديقه قدور:

((نحن لاشيء يربطنا بالماضي ، وأنتم لاشيء يدفعكم الى المستقبل ، ولم يبق بيننا الا رابط واحد هو الحاضر .. هذا الحاضر الذي أتعاون وزيدان أخي ، وكل الفقراء على صنعه ، والذي تريدون أنتم أن تبقوا متفرجين عليه .. بعضكم يتفرج والبعض الآخر يعمل على عرقلته وهدمه !))(3) .

((ان ملاحظة القارئ مهما يكن دقيقا وحساسا ، للحد بين العام والخاص في ذات الشخصية الروائية أو الاصطدام في السياق بالنقلة بينهما ، يجعل العمل الأدبي فاشلا ، أو يشكل عيبا كبيرا فيه ...))(4) . وكما لم نوجه هذه الملاحظة عن حمو الى ((اللاز)) من قبل لأنه يتصرف بعفوية وتلقائية ، ودون تدخل مباشر من المؤلف ، فانه لا يمكن أن نوجهها لبعطوش أيضا ، الذي تصرف وفق طبيعته ، سواء في أفعاله البشعة في أول الأمر ، أو في أعماله البطولية بعد ذلك ، فقد ضعفت نفسه تحت ضغط الجهل والحاجة ، فوقع في الخيانة وارتكب جرائم عديدة ، ثم استيقظ الوازع الديني في نفسه فوقاه شر الانحراف ، وصحح مساره ، وجعله يتراجع عن الخيانة في حق الدين والوطن ، ويستهين بالمصلحة المادية أمامها ، فبعد خيانته يذكر الله ويردد اسمه العظيم بينه وبين نفسه ، ويشعر بخوف منه ((خالتي يا ربي سيدي)) ويضغط الذنب والخوف من عقاب الله على نفسه فينسيه مكسب الارتقاء المادي ، ورتبة ((السارجان)) واطراء الضابط الفرنسي الذي لا يصل الى

(1) ((اللاز)) ص 26 .

(2) هوارة سعيدة : الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار - رسالة ماجستير - معهد اللغة والأدب العربي ، جامعة الجزائر 1984/ 1985 ص 162 .

(3) ((اللاز)) ص 50 .

(4) حنا مينة : هواجس في التجربة الروائية ، الطريق ع/ 3 ، 4 - 1981 .

مسمعه ، لأنّ صوتا آخر أقوى يهزه من الأعماق ((لم يكن بعطوش يتابع كلام الضابط ، ذلك أن آلافا من الابر الحادة انصبت تلسع كامل جسده ، حتى قلبه ، حتى أمعاءه ، حتى رئتيه ، حتى مخه [1])) .

ان هذا التفسير ينسجم مع طبيعة بعطوش كما تعرضها الرواية ذاتها ، ولكن الكاتب يحاول تبرير هذا التصرف بعامل آخر هو ((الانتماء الطبقي)) ، ويشرح هذه الفكرة باسهاب في الجزء الثاني من رواية ((اللاز)) ونحن لا ننفي أن يكون لمصلحة الانسان المادية تأثير على مواقفه وتصرفاته ، ولكن القيم الاسلامية في معناها الحقيقي هي التصرف وفق ما يقتضيه الاسلام — الذي يهدف الى المصلحة العليا للانسان — وليس وفق ما تقتضيه المصلحة الضيقة الخاصة بكل انسان . ولا يتعارض الدين مع مصلحة الفرد ما لم تكن هذه الاخيرة مرادفة للأنانية والجشع والاستغلال ، وفي هذه الحالة يكون الدين وسيلة تستر فقط واخفاء لهذه الصفات .

وفيما يخص بعطوش ورمضان وأمثالهم من المجندين الجزائريين والحركة والخونة ، فان مصلحتهم تكمن في التعامل مع الاستعمار . فما الذي يدفعهم الى التراجع ما دامت هذه المصلحة مضمونة مع المستعمر؟ ولماذا يحصل الندم مع البعض ولا يحصل مع البعض الآخر ، والمصلحة واحدة والانتماء الطبقي واحد ؟

انه لا يمكن أن نربط تصرفات الانسان ربطا آليا بمصالحه المادية ، ان للدين كذلك أثره في تصرفات الانسان ، خاصة الدين الاسلامي ، الذي هو نظام اجتماعي متكامل يراعي مطالب الانسان المادية والروحية على السواء ، ولا يقتصر على الآخرة وعذابها الشديد أو نعيمها الكبير ، وان كانت الدار الآخرة هي الأهم باعتبار أن مصير الانسان وحياته الخالدة تكون فيها ، ولكن الدين أيضا هو علاقات الانسان بغيره في الدنيا ومقدار نفعه أو ضرره لهذا الغير الذي يجازى على أساسه في الآخرة أو يعاقب .

ومن موقع الانتماء الطبقي الذي ينطلق منه الكاتب في بناء شخصيات رواية ((اللاز)) فان قدور وهـو التاجر الميسور الحال ، اذا ما قورن بغيره من سكان القرية لم يكن مهيئا للمشاركة في الثورة ، ولهذا يظهره الكاتب متذبذبا مترددا في هذه المشاركة ، ولكننا لا نشعر بأنّ هذا التردد نابع فعلا من مشاعر قدور وفكره بقدر ما هو تصوير خارجي له من منظار أيديولوجية المؤلف التي تقتضي أن يكون دور الطبقة الوسطى متذبذبا تجاه الثورة التحريرية .

وقد سبق أن أشرنا الى أن القارئ يشعر أن الافكار التي ينتقد بها حمو صديقه قدور أكبر من أن تصدر عنه [2] . ونضيف هنا أنها لا تصدق على قدور كذلك ، رغم أن المؤلف يؤكد على لسان حمو أيضا على أن المصلحة

(1) ((اللاز)) ص 186 .

(2) انظر ص 27 من هذا البحث .

والاشتغال بالزبح والتجارة وراء تردد قدوز في الانضمام الى الثورة[1].

ومن دون شك فان حمو نفسه الذي تجند قدور على يديه، وزيدان قبله، وكل المجاهدين قد فكروا جيدا قبل الانضمام الى الثورة، وربما شعروا بنفس الاحساس عندما عرض عليهم أمر المشاركة في الثورة، وهذا التردد طبيعي في الانسان، وخاصة في اتخاذ القرارات المصيرية التي يتوقف عليها حياته أو موته، دون أن ننفي الفروق الفردية بين الناس، ولا الظروف المادية التي تختلف من شخص لآخر بطبيعة الحال.

وقدور ليس استثناء لا يقاس عليه، لأن أسرته كلها مع أنها ميسورة الحال وتمتهن الفلاحة والتجارة تساهم بفعالية في ثورة التحرير، فالشيخ الربيعي صاحب المتجر والأرض الفلاحية يشارك في الثورة، ويتحمل أقسى أنواع الاذلال المادي والمعنوي في سبيلها، كما يضحي بابنه وزوجته فيها. وتقف زوجته نفس الموقف، وتدفع ابنها الى الاستشهاد، وتسبقه هي نفسها الى الشهادة. وقد كان المفروض من وجهة نظر الانتماء الطبقي ألا تقف هذه الأسرة مثل هذا الموقف، في حين أن جارهم الشايب السبتي، وقريبهم بصلوش وغيرهما من الحركة والخونة يتعاملون مع الاستعمار، وربما فاقوه في القسوة على مواطنيهم وهم ليسوا بأغنياء ولا تجار، فكيف يستقيم التفسير الطبقي مع مثل هذه المواقف المختلفة ؟! ان الرواية نفسها تشير الى أن التجار يشكلون طرفا أساسيا في التركيبة البشرية للثورة التحريرية[2]، فكيف تستكثر من قدور مثل هذه المشاركة ؟ وتخصه هو وحده بالتذبذب والتردد قبل الانخراط والاستشهاد فيها ؟ انه رغم ظروف المجاهدين المختلفة التي تحدد موقفهم من الثورة فان الدين يبقى عاملا أساسيا سواء في اتخاذ قرار الانخراط أو في الصمود ومواجهة الموت بعد ذلك، وهل بعد الموت من مصلحة دنيوية تذكر ؟ ان رضى الله ودخول جنته هدف أساسي عند كل المجاهدين، يستوي فيه من استشهد منهم ومن بقي على قيد الحياة، ولا يمكن أن ننفيه عن أي منهم على اختلافهم وتفاوتهم في الالتزام بالدين وممارسة شعائره.

واذا كان الاختلاف كبيرا بين الروائيين الجزائريين في النظر الى هذا الأمر فان أقربهم الى التعبير عن روح الجهاد والمجاهدين هم أكثرهم صدقا واخلاصا للحقيقة، سواء تعلق الأمر بالثورة أم بغيرها من الأحداث أو بالمجاهدين أو بغيرهم من الأشخاص، فان ((القصاص العظام)) (...) يستطيعون أن يحدسوا مصادر الحدث والدوافع التي تحرك الناس وسلوكهم الخفــــي))[3].

---

(1) انظر اللاز، ص 45.

(2) انظر ((اللاز)) ص 161.

(3) برنار دي فوتو ((عالم القصــــة)) ص 34.

وربما كان ((الشيخ)) المسؤول الكبير في جبهة التحرير الوطني أضعف شخصيات الرواية بناء ، مع أنه طرف أساسي فيها ، فلم تقع الاشارة اليه الا ابتداء من منتصف الرواية في لمحات خاطفة ، ولبضع مرات فقط[1] ، والشيخ — وهذه تسمية دينية — يتقزز من الشيوعية ، ويلوم زيدان على اعتناقها ، ويلح عليه بأن يتراجع عنها . وعندما لا يستجيب له يرفع تقريرا الى بقية ((الشيوخ)) في القاهرة ، الذين يردون عليه بوجوب انسلاخ الشيوعيين من عقيدتهم ، وأعدامهم في حالة رفضهم لهذا الانسلاخ .

وتنفيذا لهذا الأمر يلقي الشيخ القبض على زيدان والاوربيين الخمسة ، ويدعو زيدان الى اعلان توبته كما يدعو الاوربيين الخمسة الى الدخول في الاسلام ، وعندما يرفضون ذلك ينفذ فيهم حكم الاعدام . وقد اقتصر دور الشيخ على هذه المحاكمة ، وبقيت شخصيته باهتة في الرواية مجردة، يشعر القارئ بأنها فكرة دينية متسلطة أكثر منها شخصية حية تتحرك كاللاز مثلا أو بعطوش أو قدور أو حمو أو غيرهم ، واقتصر دورها على التسلط والقمع وتنفيذ حكم الاعدام دون اقناع للشيوعيين أعدائه أو للقارئ ذاته . كما أن الحوار غير متكافئ بين زيدان المثقف والمتكون في مدرسة لتخريج الاطارات القيادية والشيخ الذي لا يكاد يعرف شيئا عن الاسلام الذي يمثله.

ونحن لا نشعر بأن الكاتب قد أنصف هذه الشخصية وأعطاها الحق في التعبير عن نفسها كما أعطاه لزيدان أو غيره ، في حين أن الالتزام كما يحدده الكاتب نفسه يستدعي مثل هذا الانصاف بين النماذج الروائية . يقول وطار : ((أن الالتزام هو العكس العفوي للحياة اليومية للكاتب (الذي) يجب أن لا يفتعل أي موقف أو رأي والا تحول الى دجال أو منافق تجاه أدبه[2])) .

ان انحياز الرواية لزيدان وما يحمله من أفكار واضح ومكشوف تماما كانحيازها ضد الشيخ . وليس الانحياز أو عدم الانحياز عيب في حد ذاته، اذا توفر الاقناع الفني الكافي في كلا الموقفين ، ولكن الملاحظ أنه في حين تفسح الرواية المجال لزيدان في عرض أطروحاته الايديولوجية وخطابه السياسي في كثير من الاحيان ، فانها تختزل حياة الشيخ وتحد من فاعليتها ونموها وحركتها في الرواية .

والحقيقة أن الرواية الناجحة هي التي يتوفر فيها العدل بين نماذجها ، ويسود الحوار الديمقراطي بينها اذا صح التعبير ، ولا يظهر موقف الكاتب فيها مع شخص معين يسنده ويعينه على غيره من أشخاص الرواية .

((ان أدب كاتب عظيم مثل دستويفسكي يقدم نموذجا ساطعا لهذا الحوار الديمقراطي الشامل . اذ أن كل رواية من رواياته حسبما يراه باختين تجسد بذاتها سيمفونية رائعة متعددة الأصوات ، يملك كل صوت فيها

(1) انظر ص 105. 170. 200. 214. 215. 216. 258. 270 .
(2) من حوار مع الطاهر وطار لفيصل دراج ، حوار في علاقات الثقافة بالسياسة ص 96 .

الحق نفسه الذي تملكه الأصوات الأخرى في الافصاح عن وجهة نظره ورؤيته للعالم ، ولذا فعلينا اذا ما أردنا معرفة موقف د ستويفسكي وفلسفته ألا نبحث عنها عند شخصية محددة من الشخصيات التي نعتقد أنها تمثله كما هو الحال مع الكاتب السلطوي وانما أن ننصت الى هذه السيمفونية بجميع أصواتها))[1].

ولم تظهر شخصية المحتل الفرنسي على حقيقتها التي عرفناها في الجزائر، وخاصة أثناء ثورة التحرير التي تحاول رواية ((اللاز)) تصويرها . وعلى عكس ما هو معروف عن شراسة المستعمر الفرنسي وقسوته عند السكان فان بناء شخصية الجندي ، أو الضابط أو المعمر الفرنسي لم يكن يوضح ذلك . وأكثر هذه الشخصيات حضورا في الرواية شخصية الضابط الذي يتزعم الوجود الفرنسي في القرية ، فيواجه هجمات المجاهدين ويتابعهم في الجبال ويحاول قطع كل صلة لهم بالقرية ، وذلك بالقضاء على كل المتعاونين معهم . يظهر هذا الضابط في الروايـــة بمظهر اللين والابتذال والضعف والغفلة ، وغلبة النزوات والشهوات الدنيئة . وفي هذا المظهر شذوذ ، ان وجد عند ضابط بعينه فانه ليس صورة صادقة ونموذجا لكل الضباط والجنود الفرنسيين الذين أبادوا أكثر من عشـــر المجتمع الجزائري في ثورة التحرير الأخيرة فقط قبل أن يضطروا الى الاستسلام ومغادرة البلاد . فمـــا هـي صفات هذا ((القبطان الفرنسي المحارب في أخطر منطقة))[2] كما تقول الرواية . انه ((في حدود الأربعين .. متوسط القامة .. أبيض البشرة .. نحيف الجسم .. على عينيه الزرقاوين نظارات جميلة ، في ملامحه نسويـــة))[3] وهو يعاني من شذوذ جنسي يقرب من أجله ((اللاز)) ويشعر بضحالته لهذا السبب[4]، ويشبه نفسه ((بالعاهرة البئيسة))[5]، ويقول للاز في وقاحة وابتذال ((انني أحبك))[6] و ((يوشك أن يبكي))[7] عندما يتأكد من مشاركة اللاز في الثورة ، لأنه يخاف من فقده أكثر مما يخاف على مصلحة فرنسا نفسها ، ولذلك كان اللاز رغم الانحراف الذي تصفه به الرواية يحتقره أكثر مما يخاف منه : ((الخنزير . يتحدث عن الصداقة والحب ، كما لو أنه عاهرة وقحة))[8] . وحتى عندما يعرف الضابط أن (اللاز) خدعه ويعترف له هو نفسه بذلك يحاول الابقاء علــى علاقته به[9] ، وعندما يفر ((اللاز)) من الثكنة ((ينتدب))[10] جزائريا آخر ويستسلم له ليقتله في فراشه خنقا دون أية

(1) د . فيصل دراج : حوار في علاقات الثقافة بالسياسة ص 290 .
(2) ((الـــــلاز)) ص 131 .
(3) ======= ص 261 .
(4) انظر اللاز ، ص 74 .
(5) الـــــلاز ، ص 82 .
(6) ====== ص 74 .
(7) ====== ص 76 .
(8) ====== ص 75 .
(9) انظر اللاز ص 263 .
(10) ======ص 92 و 97 .

مقاومة تذكسبر[1] .

والواقع أن هذا الظابط ان وجد فعلا مثيل له بين الظباط الفرنسيين ، فانه كما أسلفنا شذوذ لا يمثل حقيقة كل الظباط الآخرين ، وتصوير المحتل الفرنسي بهذا النموذج لا يصدقه الواقع ، وهو لا يسيء الى شخصية المستعمر بقدر ما يسيء الى شخصية المجتمع الجزائري الذي قضى سبع سنوات من الجهاد ، وفقد مليونا ونصف مليون من أبنائه قبل أن ينتصر على هذا النموذج الضعيف المنحرف من المحتلين الفرنسيين .

ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة لشخصية فرنسية أخرى في الرواية هي الملازم (ستيفان) الذي لا يظهر في الرواية الا ليقتل بعد ذلك بقليل وهو آمن يدندن : ((فرنسا أجمل من ايزيس . . . والحرب أقذر من التيفيس))[2].

وكذلك الجندي حارس الثكنة الذي يخرج المجندون الجزائريون الفارون أمام عينيه ولا يعيرهم في الاول الانتباه الكافي ، لأنه يكون مشغولا بمراقبة الحشرات المتداخلة حول أنبوب النور المتدلي فوق رأسه[3] ، وعندما يشك في الأمر ويصدر الأمر بالوقوف يختطف منه أحد الجنود بندقيته ويساق في الرواية ليقتل بعيدا بعد ذلك .

وبنفس الطريقة يتساقط الجنود الفرنسيون كما يتساقط الذباب في المعركة الصغيرة التي دارت أمام الاسلاك الشائكة لمركز الوقاية ، وتقضي قنابل رمضان وهو أحد المجندين المسلمين الفارين على المركز كله ، ويغنم الفارون ست قطع وجهاز لاسلكي[4] ولا يموت منهم الا جندي واحد لم يأخذ حذره . وتنطلق سيارة هؤلاء الجنود الفارين بعد هذا النصر ، تنهب الطريق في نشوة يقودها اللاز الذي كان ((يسوق وكأنه في السينما[5])) .

واذا كانت شخصية العسكري الفرنسي بمثل هذه الصورة فان شخصية المعمر التي لم تكن أقل وحشية في معاملة الجزائريين لم تظهر اطلاقا في الرواية التي تفننت في اظهار خيانة المصلين والايمة والحجاج والمتدينين بصفة عامة ، الذين يقفون في وجه الثورة ، وتقف الثورة في وجههم أيضا .

وتعاني الأحداث وخاصة الهامة منها في الرواية من نفس الهشاشة في البناء ، سواء ما كان منها بين المجاهدين والعسكر الفرنسي أو بين المجاهدين أنفسهم . فهل يعقل مثلا أن تستنفر كل الوحدات والدوريات من أجل البحث عن قدور ، وأن يقوم اللاز مع بضعة مجندين كما أسلفنا بقتل الملازم الفرنسي ستيفان وحارس الثكنة وكل جنود مركز الحراسة ويفروا آمنين يتضاحكون ويتبادلون النكت[6] ، وأن يقضي بعطوش في النهاية على

(1) اللاز ، ص 83 .
(2) انظر اللاز ، ص 98/ 99 .
(3) ====== ص 116 .
(4) ====== ص 143 .
(5) ====== ص 143 .
(6) ====== ص 143 .

الثكنة كلها بمن فيها من جنود وما فيها من عتاد وآليات وأسلحة ، كما يقتل الضابط خنقا ، ويقضي مع بضعة مجندين على كل الوجود الفرنسي في القرية . فقد كان ((عدد الجنود ثمانية ، ومطوش التاسع))(1) ، ومع هذا فقد أنهوا كل الوجود الفرنسي دون أن يصاب جندي واحد منهم بأذى يذكر ((كل شيء انتهى ، مائتان وتسعون عسكريا . ثلاثون قوميا ، كل العربات ، كل الدبابات ، كل مراكز الوقاية . .))(2) . الواقع أن في ذلك مبالغة كبيرة تقلل من اقتناع القارئ بهذه الافعال البطولية الخارقة ، التي لا تلاقي رد الفعل الكافي من طرف المحتلين .(3)

وربما كانت مشاهد التعذيب ، التي تعرض ((اللاز)) لمثلها أكثر اقناعا وصدقا(4) ، وقد كان تحمل اللاز لهذا التعذيب مقنعا تماما ، كما كان ضعفه بعد اشتداد العذاب مبررا بضعف الانسان أمام هذا التعذيب الوحشي ، خاصة وأنه قد بذل كل ما في وسعه لاخبار قدور باكتشاف أمره ، وضرورة فراره ، وأعطاه الوقت الكافي الذي يمكنه من هذا الفرار .

وفيما يخص المواجهة بين المجاهدين أنفسهم فقد سبقت الاشارة الى حدث هام في الرواية ، هو موقف زيدان والشيوعيين الاوربيين الذين يستسلمون للذبح مع اعتقادهم التام في سلامة موقفهم وتأكدهم من نية الشيخ في ذبحهم اذا لم يتراجعوا عن موقفهم هذا ، ورغم أنهم يئسوا من اقناعه ، فانهم لم يواجهوه بأي شكل من الاشكال وقد كانت الأسلحة تحت تصرفهم ، ومنافذ الخروج التي اكتشفها زيدان مفتوحة أمامهم ، ولكنهم فضلوا الموت ((ليس أمامنا أن نختار سوى الموت ، الموت النضالي الحزبي أو الموت الجسدي))(5) . وفي هذا الموقف كثير من المثالية ، اذ ليس من طبيعة الانسان أن يقدم نفسه للذبح بهذه السهولة مع اقتناعه بخطأ عدوه وقدرته على دفع الموت الذي سلطه هذا العدو عليه .

ب ـ بناء الزمن في الرواية (الارتداد) :

ربما كان أهم ما يميز رواية ((اللاز)) فنيا هو قدرة مؤلفها على استخدام الزمن ، والتركيب المحكم للأحداث والمشاهد . فالرواية تقوم منذ بدايتها الى نهايتها على الارتداد الذي استعمله وطار باقتدار في أول رواية له(6) فهي تبدأ من آخر مشهد لها ، وهو تذكر بطولات الشهداء الذين بدأ النسيان يطويهم ، ولم يعد يذكرهم

(1) اللاز ، ص 265 .
(2) ======= ص 267 .
(3) سيرد الحديث بالتفصيل في مبحث الوصف عن سير المعارك والعمليات الحربية في رواية ((اللاز)) .
(4) انظر ((اللاز)) ص (178 الى 82) .
(5) اللاز ، ص 255 .
(6) يستغرق الارتداد أحيانا فصلا كاملا ، انظر اللاز ، ص (60 ـ 68) .

حتى ذووهم الا عند استلام المنح الفصلية الخاصة بهم ، لقد تحول الشهداء الى مجرد بطاقات تستظهر في مكتب المنح مرة كل ثلاثة أشهر ، ثم تلوى مع دريهمات في انتظار المنحة القادمة .

يدور هذا الحديث عن الشهداء في حوار حزين متبادل بين شيخين، ثم تتوالى بقية المشاهد (1) والبطولات والمآسي في مخيلة الشيخ الربيعي الذي أثارته هذه التأوهات الحزينة ، كما أثاره تذكر ابنه الشهيد قدور ، ومنظر ((اللاز)) الغائب عن الوجود ، ف ((استند الى الجدار ، وأطلق العنان لمخيلته ..)) (2) تستعيد أحداث الثورة عن طريق الارتداد الذي برع الكاتب في استخدامه الى أن نصل الى ((الخاتمة)) (3) حيث تنتهي الرواية باستيقاظ الشيخ الربيعي من سهومه على صوت موظف مكتب المنح : ((هات بطاقتك يا عمي الربيعي)) (4) .

ومع هذا فاننا نشعر بأن هذا الحدث الواحد الذي يدور في ذهن أحد أبطال الرواية يربط بداية الرواية بنهايتها ، ليس الا اطارا خارجيا لبقية الأحداث الروائية التي تحافظ على الطابع الكلاسيكي للرواية الذي تتسلسل فيه الأحداث تسلسلا منطقيا (5) . فالرواية تعرف في البداية بحياة أشخاصها الأساسيين كاللاز (6) وقدور (7) وحمو وزيدان (8) . كما تعرف ولو عن طريق الاشارة بالأشخاص الثانويين ، ومنهم أسرة الربيعي (الأب والأم) سي الفرحي (9) ولا تخلو الأحداث أيضا التي يقوم بها هؤلاء الأشخاص وغيرهم من هذا النمو المنطقي الطبيعي ، اذ تبدأ باعتقال اللاز البطل الرئيسي في الرواية ، والتحاق حمو وقدور بالجبل ، ثم تتحدث عن دور زيدان السياسي والعسكري في الثورة التحريرية (10) . وتتطرق بعد ذلك الى الحديث عن العمليات الفدائية والمعارك الحربية (11) . وتصل الأحداث الى ذروتها بفرار قدور واللاز، واللقاء القبض على زيدان ، ثم تنتهي بمقتل الضابط والقضاء على الثكنة ومراكز الرقابة كلها (12) واعدام زيدان ورفقائه الأوربيين (13) .

(1) انظر اللاز ، ص 9 و 10 .
(2) اللاز ، ص 10 .
(3) ====== ص 275 .
(4) ========= 275 .
(5) انظر اللاز ، ص (11 الى 17) .
(6) =========== (18 الى 33) .
(7) =========== (34 الى 40) .
(8) =========== (54 الى 60) .
(9) =========== (34 الى 40) .
(10) ========== (54 الى 60) .
(11) ========== (100 الى 114) وأيضا (215 الى 228) .
(12) ==========(259 الى 268) .
(13) ==========(269 الى 273) .

واذا كان خط الرواية العام في تقديم الأشخاص الرئيسيين ، وفي عرض الأحداث الهامة يسير على هذا النحو الذي أشرنا اليه ، فان الكاتب قد عمد الى استغلال الارتداد والتفنن في استخدام الزمن في ذكر تفاصيل هذه الأحداث واستكمال صور الأشخاص الكثيرين(1) الذين تناوبوا الظهور أحيانا في النص الروائي واشتركوا فيه أحيانا أخرى ليصنعوا الحياة الزاخرة التي تصور بها رواية ((اللاز)) ويعيشوها في آن واحد .

ولعل الارتداد قد استخدم في تقديم الأشخاص أكثر مما استخدم في سير الأحداث ، فاللاز(2) وقدور(3) وحمو ، وزيدان(4) ، والشيخ(5) المسؤول الكبير في جبهة التحرير الوطني ، والحاكم العسكري(6) ، والأوربيين(7) المتطوعين(8) وكثير من المجاهدين(9) عرضوا في الرواية أو على الأقل تعرفنا على جوانب كثيرة من صفاتهم وأفعالهم وأفكارهم ومواقفهم وتصرفاتهم بواسطة الارتداد .

وتتداخل الأحداث وتتناسل من بعضها البعض بهذا الشكل الفني أيضا ، وتشكل الفصول أو الأقسام الأربعة والعشرون التي تتكون منها الرواية ما يشبه المشاهد المسرحية أو اللوحات السينمائية ، التي تعطي مجتمعة صورة نموذجية عن المجتمع الجزائري وهو يواجه المستعمر في ثورة شاملة عمت الوطن كله ، ولذا لم يقع التركيز على شخص أو أشخاص بأعينهم في الرواية ، الا بالقدر الذي تكمل به صورة هذه المواجهة الشاملة التي يقوم بها المجتمع ككل .

فالأحداث على عفويتها وبساطتها البادية منتقاة ، وكذلك الأشخاص الذين يمثل كل واحد منهم فئة معينة من المجتمع . وقد ساعد الارتداد على هذا الانتقاء بما أعطاه للكاتب من حرية في اختيار المشهد والحدث والصفة والحوار المعبر ، ويشكل ذلك كله في النهاية الانطباع العام الذي تحاول ((اللاز)) أن ترسمه في ذهن القارئ عن ثورة التحرير انطلاقا من وجهة النظر التي تتبناها .

ينسجم الارتداد مع باقي الأشكال الفنية في الرواية ، كالسرد ، والوصف ، والحوار ، وقد يفصل الكاتب بينه وبين هذه الأشكال بعبارات معينة تشعر القارئ ببداية الارتداد مثل ((وأطلق العنان لمخيلته))(10)

(1) يبلغ عدد الأشخاص في رواية اللاز حوالي الثلاثين .
(2) انظر اللاز ، ص (12 الى 16) .
(3) ============ (20 الى 24).
(4) ============ (41 الى 51).
(5) ======================
(6) ============ (65 و 203 الى 207) .
(7) ============ 131 و 261 .
(8) ============ 243 الى 258 .
(9) ============ 171 الى 184 .
(10) اللاز ، ص 10 .

أو ((وعاد يعيش وقائع ... مرت))[1] ، وأحيانا يكتفي بنقاط لينتقل من شكل فني سابق الى الارتداد[2] ، وهذا التجديد في رواية ((اللاز))[3] الذي ظهر في الاستخدام الواسع المتحكم فيه لشكل الارتداد لم ينزع عنها طابعها الكلاسيكي ، فقد احتفظت فيها الأشكال الأخرى بمكانتها ، كالسرد والوصف والحوار . كما احتفظت بالعناصر التقليدية للرواية كالمفاجأة والحبكة وتسلسل الحدث ، وتوفر الخيط الحكائي ، وامتداده من البداية الى النهاية ، واللغة الواضحة ، والخلو من الرمز الا ما جاء عفوا .

تنتهي ثلاثة فصول في الرواية فقط بالاحالة الى الارتداد ، في حين أن أحد عشر فصلا منها تنتهي بمفاجآت وعقد تشوق القارئ وتدفعه الى معرفة نتائجها في الفصول الموالية ، بينما تنتهي تسعة منها بأحداث عامة في حد ذاتها ، ولكنها لا تخلو من تشويق الى ما سيترتب عن الحدث الهام الذي ينتهي به كل قسم .

وترتبط الرواية كما أسلفنا بخيط حكائي سردي تنتظم بواسطته الأحداث ، ويفضي بعضها الى بعض في انسجام محكم ، وتسلسل يشد انتباه القارئ ، وان لم ينتبه الى هذه التفاصيل التي ذكرناها ، وتحل العقدة الجزئية في الفصل أو الفصلين المواليين لتخلفها عقدة أخرى وهكذا تتناسل الأحداث ، ويولد بعضها من بعض كما يحصل في القص العربي القديم الذي تتوالد فيه الأحداث من بعضها البعض ، وكما يشتد التوتر وتتركز أحداث كل فصل عند نهايته ، فان الرواية تبلغ قمة التوتر والانفعال في قسمها الأخير رغم الهدوء والبساطة الظاهرة التي يتكلم بها الشيخ الربيعي[4] الذي يختتم الرواية كما ابتدأها في نبرة مأساوية حزينة .

وقد استفاد وطار - في مثل هذا التركيز والتوتر الذي لاحظنا أن الأحداث تبلغه عند نهاية كل فصل وعند نهاية الرواية كلها - من كتابته للقصة القصيرة ، فالتكثيف وقوة الايحاء ، والأسلوب الشعري من الوسائل التي تستعين بها القصة القصيرة لتتمكن من الوصول الى هدفها الفني والفكري بحجمها المحدود .

واذا كانت رواية ((اللاز)) قد استفادت من تقنيات القصة القصيرة فانه لا يمكن أن نقول أنها مجموعة قصص أو مشاهد مفككة . ان وحدة الانفعال وامتداد الخيط السردي الحكائي يربط فصولها باحكام ، ربطا لا يمكن معه التصرف في معطر الرواية الفني بالتقديم والتأخير ، أو الزيادة والنقصان ، والا انهار البناء كله .

ان رواية ((اللاز)) وحدة فنية وفكرية تنسجم فيها الأشكال المستخدمة فيها ، ولا يظهر في أي منها أثر للتكلف أو التعمد رغم المدة الطويلة التي استغرقتها كتابتها . ولاشك أن صدق الكاتب واخلاصه الفني هو

---

(1) ((اللاز)) ص 40 .

(2) انظر اللاز ، ص 85 .

(3) بالنسبة للروايات الجزائرية المعاصرة لهذه الرواية .

(4) انظر ص 275 الى 277 من رواية ((اللاز)) .

الذي أعطاها هذه الروح الواحدة الممتدة من أول الرواية الى آخرها .

تنتهي أحداث الرواية وتحل عقدتها الأساسية بموت زيدان ، وجنون ((اللاز)) في الفصل ما قبل الأخير[1] ويلخص القسم الأخير الذي يحمل عنوان ((الخاتمة))[2] الانطباع العام الذي أراد الكاتب أن يوصله الى أذهان القراء عن الثورة التحريرية التي لم يكتمل بها كل شيء ، رغم عظمتها ، والتضحيات الجسيمة التي بذلت فيها ، خاصة وأن المجاهدين الحقيقيين لم يتولوا تسيير البلاد التي بقيت ادارتها في يد الخونة، الذين كانوا يتعاونون مع الاستعمار . يخاطب الشيخ الربيعي نفسه في نبرة استسلام وتشاؤم : ((في البدء ، لم أكن أطيق النظر الى هذا الشاب الخائن . لكن ها انني أتعود شيئا فشيئا . الدوام ينقب الرخام))[3]. ويضيف بعد ذلك بقليل متأثرا بظروف المواطنين والمجاهدين السيئة ((. . الله يرحمك يا قدور يا وليدي ، الموت ينجي))[4] .

والحاصل الانطباع العام أو الاثر الرئيسي للرواية كلها الذي يلخصه قسم الرواية الأخير كما أسلفنا هو الاحساس بضرورة استمرار روح الجهاد ، والتضحية والاخلاص في العمل، التي بدأت تتناقص شيئا فشيئا في مجتمع ما بعد الاستقلال ، والتي لا يمكن بدونها أن نستكمل الحرية ونحقق السيادة والكرامة والعدالة التي ضحى الشهداء الأبرار من أجلها ما دامت هذه الروح الثورية في انحسار وتراجع .

يخاطب الشيخ الربيعي ((اللاز)) في آخر عبارة في الرواية قائلا : ((انك الآن أفضلنا جميعا يا اللاز لأنك لا تحس بشيء ، لأنك ما تزال تعيش الثورة ، بل لأنك الثورة))[5].

وفيما يلي جدول تقريبي يوضح العلاقة بين أقسام الرواية الأربعة والعشرين ، وسنتعرف بواسطته على الحدث الذي ينتهي به كل فصل ، والغرض منه :

---

(1) انظر ص 269 الى 173 من رواية ((اللاز)) .
(2) ((اللاز)) ص 275 .
(3) ========= .
(4) ====== 276 .
(5) ====== 277 .

الفصـــل	الصفحـة	الحدث الذي ينتهي به الفصـــل (1)	نوع هذه النهايــة والغرض منهـا
القسم الأول	10	((استند الى الجدار وألق العنان لمخيلته))	الارتـــداد
القسم الثاني	17	((ستطلع فيما بعــد))	التشويـــق
القسم الثالث	33	عودة قدور الى البيت بعد مغامرته بدخول بيت زينة وقضاء الليل معها ووجود والديه في انتظاره حتى الصبح .	
القسم الرابع	40	((وعاد يعيش ثمانية أشهر مرت))	الارتـــداد
القسم الخامس	53	((تـرى من يكون أبـــوه))	التشويـــق
القسم السادس	60	((أسند كتفيه الى الجدار ، ووضع يده على جبينه ،كأنه يسترق اغفاءة ، واستسلم لمخيلتـــه))	الارتـــداد
القسم السابع	68	فراق اللاز أباه زيدان في نفس الوقت الذي يعرف منه أنه أبوه .	أهمية الحدث وما صاحبه من انفعال
القسم الثامن	73	تغيير مكان المجاهدين في الجبـــل	
القسم التاسع	99	مقتل ستيفان ، ومحاولة فرار اللاز بمساعدة مجندين جزائريين .	أهمية الحدث والتشويق لمعرفـة نتائجـــه
القسم العاشر	114	الوقوف عند الوقوع في كمين دون الافصاح عن نوعـــه .	التشويق لمعرفـة طبيعة هذا الكمين
القســم الحادي عشر	125	وقوف المجندين الجزائريين عند حاجــز الحراسة الأخير في آخر لحظات حضـر انتجول ، وقطع الحدث في لحظة توتــر شديدة .	التشويق الى معرفة طريقة الخروج من هذا المأزق .

(1) يشار الى الفصل والصفحة في الجدول ذاته ، وتوضع النهاية المنقولة حرفيا من النص الروائي بين مزدوجين وتترك الملخصة بدون مزدوجين .

القسم الثاني عشر	137	الظابط يصدر أمرا لبعطوش بالاعتداء على شرف خالته وزوجة عمه .	التشوق لمعرفة رد فعل بعطوش
القسم الثالث عشر	145	لقاء اللاز بأبيه زيدان .	الانفعال الذي صاحب الحدث ((البكاء))
القسم الرابع عشر	170	وصول مبعوث من المسؤول الكبير ليخبر زيدان بضرورة الاتصال فورا بهذا المسؤول لأمر هام .	التشوق لمعرفة هذا الأمر الهام
القسم الخامس عشر	184	التخوف والحذر من نتائج اللقاء الذي أراده المسؤول الكبير في جبهة التحرير بزيدان .	التشوق لمعرفة نتيجة هذا الاجتماع
القسم السادس عشر	192	قتل بعطوش لخالته بعد الاعتداء على شرفها	فظاعة الحدث
القسم السابع عشر	208	وقوع زيدان ورفقائه في كمين .	التشوق لمعرفة نتيجة هذا الحدث
القسم الثامن عشر	214	التقاء فرقة الشيخ ، القادمة من قيادة الولاية بزيدان ورفقائه .	التشوق لمعرفة نتيجة هذا اللقاء
القسم التاسع عشر	228	سجن زيدان والاوربيين الخمسة .	أهمية الحدث
القسم العشرين	242	بعطوش يعزم بينه وبين نفسه على تدمير الثكنة .	التشوق لوقوع هذا الأمر الهام
القسم الحادي والعشرين	258	المسؤول الكبير يطلب من زيدان والاوربيين قرارهم النهائي بشأن الانسلاخ من أحزابهم	التشوق لمعرفة هذا القرار
القسم الثاني والعشرين	268	نجاح العملية العسكرية التي قام بها بعطوش وبعض الجنديين الجزائريين والقضاء التام على الثكنة الفرنسية .	أهمية الحدث
القسم الثالث والعشرين	273	مقتل زيدان ، وجنون اللاز .	أهمية الحدث
القسم الرابع والعشرين	277	يلخص هذا القسم الاثر الكلي الذي أراد الكاتب ايصاله للقارئ في هذه الرواية .	الخاتمة

من خلال الجدول المعروض يمكن أن نلحظ التقنية المعتمدة في الرواية، التي تربط الفصول ببعضها فالكاتب يولي أهمية خاصة بنهاية كل فصل أو قسم في الرواية ، اذ يختتمه بعقدة أو تساؤل أو مفاجأة غير متوقعة أو حدث هام . وكل هذه العناصر تغري بمواصلة القراءة ، لكشف الستار عن حل هذه العقد والاجابة عن التساؤلات المعلقة ، ومعرفة النتائج المترتبة عن الأحداث الهامة .

وكما أسلفنا ، فان هذا التركيز والاهتمام الذي يوليه الكاتب لنهاية أقسام الرواية لم يؤثر على وحدتها وانسجامها ، بل انه ساهم في هذه الوحدة والانسجام ، لأن نهاية الفصول على اختلافها تجعل الأحداث الروائية كلها مترابطة ، يفضي بعضها الى بعض، فلا يمكن الاستغناء بأحدها عن الآخر ، بل يدفع بعضها الى معرفة البعض الآخر ، وهو ما ساهم في اعطاء الرواية شخصيتها واستقلاليتها وطابعها الخاص بها ، الذي يميزها عن غيرها من روايات صاحبها .

والملاحظ أن الاهتمام والتركيز بنهاية الفصل قد ينقص اذا كانت الأحداث التي تجري في هذا الفصل هامة ومشوقة في حد ذاتها ، وقد ظهر هذا مثلا في الفصل الثالث ، الذي يقضي فيه قدور الليل كاملا مع زينة ، التي لم يكن يحلم برضاها ، والفصل الثامن الذي يجد فيه قدور نفسه بين المجاهدين لأول مرة ويلتقي بحمو وزيدان وبكل المجاهدين الذين تم تجنيدهم على يده .

4 — الوصف :

ليست رواية ((اللاز)) رواية وصفية ، كرواية ((الزلزال)) اذ يحتل الوصف فيها حيزا أقل مما يحتله في ((الزلزال)) ، ويضاف الى قلة الوصف في ((اللاز)) — اذا ما قورن مثلا بالسرد أو الارتداد — عدم التنوع ففي حين تستخدم رواية ((الزلزال)) حواس الشم والبصر والسمع منفردة ومجتمعة ، تقتصر ((اللاز)) على حاسة البصر . كما لا نجد في وصف رواية ((اللاز)) الأبعاد والدلالات التي يكتسيها الوصف في ((الزلزال)) .

وسنحاول فيما يلي أن نحدد من خلال النص الروائي ذاته المضامين التي عبر عنها الوصف في رواية ((اللاز)) والخصائص التي يتميز بها ، والوسائل التي استخدمها .

أ — وصف الأشخاص :

من أهم وظائف الوصف في ((اللاز)) المساهمة في تقديم أشخاص الرواية العديدين بتحديد أشكالهم ومظاهرهم وصفاتهم الخارجية ، وبيان سماتهم ومشاعرهم ونزعاتهم الداخلية ، التي تعطي لكل شخصية استقلاليتها ، وتميزها عن غيرها . ولكن هذا الوصف يكون أحيانا عبثا على الفعل والحركة ، والنمو الطبيعي لهذه الشخصيات . نلحظ هذا مثلا في شخصية اللاز البطل الرئيسي في الرواية ، الذي يلخص الكاتب

طفولته كاملة ، ويعدد صفاته في أول ظهور له على مسرح الرواية ، في ما يزيد عن الثلاث صفحات[1] ، وقبل أن يفسح المجال للفعل والحوار والنمو التلقائي لهذه الشخصية الأولى في الرواية ، نكون قد عرفنا صفاتها الأساسية ، وهي أنه لقيط ، وشريرة ووقح ، ومعاند ، وسكير ، الى غير ذلك من الصفات المباشرة التي ينعت بها في هذا التقديم الذي أشرنا اليه .

ولا يعود هذا الوصف التقريبي المباشر الى عدم تمكن الكاتب من استخدام أشكال فنية أخرى ، وقد لاحظنا فيما سبق قدرته على بناء الأحداث واحكام الحوار الخارجي ، والاستغلال الجيد للحوار الداخلي والارتداد ، ولكنه يعود فيما نحسب الى كثرة شخوص الرواية ، وتعدد الأبطال الأساسيين فيها ، مما اضطر الكاتب الى الاستعانة بالوصف التقريبي الخارجي لاستكمال رسم هذه النماذج الروائية الكثيرة .

على أن هذا الوصف على عموميته لايخلو من مقاطع رائعة ، وخاصة في وصف معاناة المجتمع الجزائري : ((اننا كما عرفنا أنفسنا ، منذ خلقنا ، الشيشان على رؤوسنا تكاد تقطر وسخا ، البرانس مهلهلة ، رثة ، متداعية والأحذية مجرد قطع من الجلد أو المطاط ، تشد ها أسلاك صدئة ، والأوجه زرقاء جافة . .))[2].

أما الوصف الخاص بالأفراد ، فانه يخص به الأبطال الأساسيين ، وخاصة اللاز وزيدان ، اللذيـــن يمثلان مجتمعين وجهة نظر الكاتب ، التي ينظر من خلالها الى الثورة التحريرية ، ولهذا يهتم الكاتب بوصفهما ويركز في هذا الوصف على ملامح الوجه بالخصوص :

يقول في وصف اللاز : ((وجهة مستدير ، يميل الى البيوضة ، أنفه عريض قصير ، شفتاه غليظتان ، عيناه بنيتان واسعتان ، تزينهما أهداب سوداء طويلة وحاجبان متلاصقان . .))[3].

ويقول في وصف زيدان : ((هو هو ، بوجهه الأسمر المائل الى الزرقة ، وذقنه الطويلة ، وجبهتـــه العريضة المخددة ، وأنفه الطويل الحاد ، وفمه المستطيل كأنه بدون شفتين ، وعينيه السوداوين العميقتين . .))[4].

وعندما ينظر الكاتب الى الآخرين لا يتوقف عندهم الا قليلا ، ولا يتأمل ملامحهم : ((جال ببصره في كامل الوجوه ، وتوقف قليلا عند قدوره وفكر في لباسه المدني النظيف))[5] .

ونفس الملاحظة يمكن أن نستنتجها عند المقارنة بين وصف المجاهدين والشيوعيين الاوربـــيين

---

(1) انظر الـــــلاز . ص 12 ، 60 .
(2) الـــــــلاز . ص 10 .
(3) ========== ص 220 .
(4) ========== ص 58 . انظر أيضا ص 169 ، 170 .
(5) ========== ص 158 .

المتطوعين ، فعندما يريد زيدان أن يستخلف أحد المجاهدين الذين كانوا معه لينوب عنه في غيابه يستعرض صفاتهم واحدا ، واحدا ، فيسخر من اعتقادات المسؤول السياسي الدينية ويصفها بالخرافات ، كما يسخر من صلاته وحفظه للقرآن والحديث ! ! ويقول عنه في تعال واضح : ((عملت على تطويره حتى أصبح يخجل من نفسه ، كلما تذكر ترهاته (1))) ، كما يعدد عيوب المجاهدين الآخرين وهو يستعرض صفاتهم ويستبعدهم من أجلها عن الحكم ، ولا يرضى في النهاية الا عن أمي ، لأنه ربما لم يجد من يحمل أفكاره في كل المجاهدين وقد آثر ابعاد الزعامة الدينية في شخص المسؤول السياسي ، مع أن الروح الدينية هي الطاقة للجهاد الأولى كما أشرنا من قبل .

يكتفي الكاتب بوصف معتقدات وآراء الأشخاص الذين لا يتعاطف معهم ، بينما يصف ملامح وصفات ومشاعر وانفعالات الاشخاص الذين يتعاطف معهم ، وخاصة ما ظهر منها على وجوههم .

وفي ما ورد عن وصف الشيوعيين الأوربيين على لسان زيدان الذي ((راح يتأملهم فردا فردا (2))) دليل على ما نقول ، فقد وصف أحدهم بما يلي : ((يبدو من ملامح وجهه ومن نظرته أنه شاعر يعيش في أعماقه سرا..(3))) ووصف الآخر بقوله : ((وجه هذا الكهل ، ليس غريبا علي . . . أصلع لا شعرة في رأسه ، الحيوية تتدفق من عينيه (4))) . وقال في وصف الأخير : ((هذا النحيف المعروق الساهم ، يبدو أكبر من سنه بكثير (5))) . والاتصال الحميم والتعاطف والانسجام واضح في كل هذه الأوصاف التي وقع التركيز فيها على ملامح الشيوعيين الخمسة ، الذين يتعاطف معهم الكاتب ، بينما تبقى صور المجاهدين غائبة في الأوصاف القليلة ، التي خصتهم بها الرواية (6) ، والتي يقع التركيز فيها على قصور تفكيرهم ، لا على ملامحهم ومشاعرهم الانسانية ((معظم هؤلاء المجاهدين ، وان كان ينقصهم التفكير الواضح ، لا تنقصهم الجرأة وروح التضحية والفداء (7))) .

جاء هذا الوصف في الموقف الوحيد الذي يظهر فيه زيدان تعاطفه مع المجاهدين .

وفي طريقة تسليم زيدان على أحد المجاهدين وأحد الشيوعيين ما يؤكد مدى الصلة التي تربط زيدان بهذا الطرف أو ذاك .

---

(1) اللاز ، ص 174 .
(2) ======== ص 255 .
(3) ======== ص 255 .
(4) ======== ص 256 .
(5) ======== ص 256 .
(6) انظروا ما ورد في تفكير قدور الباطني من وصف للمجاهدين ، ص 55 — 57 .
(7) اللاز ص 216 . انظروا أيضا ص 158 — 164 .

ويصف المؤلف ذلك عن طريق السرد ، فيقول في تسليم زيدان على المجاهد سي مسعود : ((تناول زيدان كتفي سي مسعود بيديه ، وراح يعانقه . ويعلق ، كأنما يبرر لنفسه مثل هذه الحرارة التي يستقبله بها . معظم هؤلاء المجاهدين ، وإن كان ينقصهم التفكير الواضح ، لا تنقصهم الجرأة وروح التضحية والفداء (1)))

بينما يقول في وصف الرفيق سانتوز، وهو أحد الشيوعيين : ((ثم نهض . . ليعانق الرفيق سانتوز ، وهو يشعر على غير عادته ، بمزيج من التحدي والاعتزاز والاطمئنان (2))) .

والفرق واضح في شعور زيدان ، وهو يسلم على المجاهد الجزائري ، والشيوعي الأوربي المتطوع .

ويبادل الشيخ ، وهو أحد المجاهدين زيدان نفس الشعور ، ويظهر هذا في طريقة التسليم أيضـــا : ((لم يسلم الشيخ على زيدان ، واكتفى بمصافحته بأطراف أصابع يده ، وكأنما اضطر الى ذلك اضطرارا (3))) .

والملاحظ أن صورة الشيخ المسؤول الكبير في جبهة التحرير الوطني تكاد تكون غائبة ، فهي لا تذكر الا ابتداء من منتصف الرواية بضع مرات فقط (4) ، وفي اشارات خاطفة ، وكأن دوره يقتصر على محاكمة الشيوعية وانهاء وجودها في الثورة التحريرية ، باعدام معتنقيها الستة : زيدان والأوربيين الخمسة .

وفي حين تعرض الرواية لغيره من المجاهدين بالاستهزاء والسخرية كما لاحظنا في وصف المسؤول السياسي ، أو بالنقد الخفي ، أو الواضح ، كما لاحظنا مع غيره من المجاهدين ، فانها تلتزم الصمت تجاه الشيخ وكأنها تخشى سطوته وتخاف صلابته وتشدده ، التي تؤدي في النهاية الى مقتل زيدان ورفاقه الشيوعيين .

واذا كان التعاطف مع الشيوعيين الأوربيين مبررا بتطوعهم في حرب التحرير ، الى جانب المجاهدين الجزائريين ، فان الرواية لا تظهر المستعمر الفرنسي بالصورة الحقيقية التي عرفه بها المجتمع الجزائري .

يصف أحد أبطال الرواية الحاكم الفرنسي بما يلي : ((في حدود الأربعين . . متوسط القامة . . أبيض البشرة . . نحيف الجسم . . على عينيه الزرقاوين نظارات جميلة في اطار ذهبي . . ملامحه نسوية (. .) أنامله جد قصيرة (5))) . وصحيح أن هذه الصورة للضابط الفرنسي تدور في ذهن أحد الخونة ، ولكنها تخفي القسوة والحقد واللاانسانية التي عامل بها جنود المستعمر الفرنسي الجزائريين أثناء الثورة التحريرية وقبلها فهذا الضابط المخنث نفسه لا يقوم بدوره المنوط بأمثاله من جنود المحتل الفرنسي ، وهو القتل والتعذيب

(1) الـــــــــلاز ، ص 215/ 216 .
(2) ======== ص 218 .
(3) ======== ص 216 .
(4) ذكر الشيخ حوالي ثماني مرات في الرواية فقط .
(5) الـــــــلاز ، ص 261 .

المعنوي والمادي للانسان الجزائري (تعذيب الربيعي وزوجته ومقتل مريانة) فحسب، بل انه يتلذذ في القيام بهذا الدور [1] . وفي الوصف التالي صورة للجزائري في ذهن هذا الضابط المخنث الأرعن كما يظهر في الرواية ((هذا الوجه البشع، الجاف (...) المخدد كأرض الزلزال (...) ما أروع أن أقتلع أسنانه بيدي واحدة بعد أخرى، ثم أصب عليه البنزين وأوقد النار .. عيناه لا تنمان عن شيء، كأنه ميت)) [2] . هكذا يصف الضابط الأرعن الربيعي ، وهو شيخ كبير، ولا يكتفي بذلك، بل انه يسلط عليه وعلى زوجته عذابا يهون دونه الحرق بالبنزين [3] .

ولا يجب أن نتجاوز هذه النقطة دون أن نشير الى صورة المرأة الجزائرية التي تظهر بها في رواية اللاز، اذ تطغى عليها النظرة الجنسية، كما طغت على نساء الزلزال . فمريانة أم للقيط هو اللاز، ويعتقد ((أنها تتاجر بأعراض البئيسات الفقيرات بواسطة ابنها ..)) [4] .

واذا كانت قد استشهدت في الرواية فليس لأنها شاركت في الثورة، ولكن الضابط يقتلها انتقاما من اللاز ابنهـــا [5] .

ويدل وصف الفتاة زينة على هذه النظرة الجنسية أيضا ((هذه الفتاة، الوسعة، الممتلئة، البيضاء المذبة)) [6] . ((حب الملوك ... يا له من تشبيه رائع . حمراء .. بيضاء .. ممتلئة، نمينة، لذيذة .. زينة)) [7] .

لا توصف زينة في الرواية الا بمثل هذه الأوصاف، التي لا تتحدث الا ((عن شعرها الفاحم، عن عينيها الكبيرتين الدعجاوين .. عن شفتيها الصغيرتين المتلئتين، عن أسنانها اللؤلؤية (...) عن عنقها البلوري .. عن حركتها (...) عن كل شيء في زينـــة)) [8] .

ويقتصر دور زينة في الرواية على الاثارة الجنسية :

— . وحـــدك .

— هيا أمي راقدة وسيدي في الجامع .

(1) انظر الـــلاز، ص 135 .
(2) الــــــلاز، ص 136 .
(3) انظر الــــلاز، ص 136 .
(4) الـــــــلاز، ص 15 .
(5) انظر الــــلاز، ص 136 .
(6) الـــــــلاز، ص 22 .
(7) ======== ص 29 .
(8) ======== ص 29 .

وتقاذف . أسندها الى الباب . وملأ بها صدره ، واعتصر من شفتيها [1])) .

ولا يتعدى دورها مثل هذه المواقف الجنسية ، التي تنتحر في الأخير بسببها ، حيث ترمي بنفسها في بئر حين حملت من (قوي) .

ونفس الدور تؤديه الأخوات الثلاث : دايخة ومباركة وخوخة ، فهن يتزاحمن على (حمو) الـــذي [2] ((كان يقوم بزيارات ليلية الى منزلهن ، ويسهر معهن بالتناوب ، وكن أيضا يقمن بزيارات نهارية الى كهفه ...)) [3] ((وحين تنجب احداهن ولدا جميلا تخنقه ويقذف به حمو في الفرن)) . ولا تشير الرواية الى الأخوات بشـــيء آخر اطلاقا فيما عدا الذي ذكرنا .

وحتى المرأة التي بلغت عن زوجها الخائن ، وألحت على المشاركة في الجهاد [4] ، تظهر في الرواية بهذه الصورة الجنسية المثيرة ، التي تظهر بها كل النساء في رواية اللاز . فهي في ((العشرين ، فاتنة الجمال رائعة [5])).

يقول المجاهد المكلف بتنفيذ حكم الاعدام في الخونة : ((خطر لي أن آمر على الزوجة وأسألها :

— لماذا قامت بهذا الدور ، وكشفت عن مخبأ زوجها .. ترددت بعض الشيء ثم أمسكتني من يدي .. كانت يدها دافئة وناعمة كالحرير .. والآلات رأسها ، وهمست :

— وشى بابن عمي ، وبخالي .

سكتت لحظات .. تأملتني جيدا وهي تحتفظ بيدي ، ثم أجهشت وغمغمت :

— يتركني مع سارجان الحركة كلما جاء ، ويخرج . في الصباح يسألني هل سأنجب له ولدا أم بنتا .. انه نـذل [6])) .

وككل النساء ينتهي دورها عند هذا الحد ، فلا تلتحق بالجبل كما رغبت ، مع أن مشاركة المرأة فـــي الثورة التحريرية قد حصلت بالفعل ، وقد جاهدت المرأة واستشهدت مثل أخيها الرجل .

والأكثر فظاعة وافظاعا مما سبق كله ما وصفت به الرواية أم الشهيد قدور وزوجة الشيخ الربيعي على

---

(1) الـــــلاز ، ص 21 ، انظر أيضا ص 31 .
(2) ====== ص 26 ، انظر أيضا ص 26 الى 33 .
(3) ====== ص 45 .
(4) انظر اللاز ، ص 155 .
(5) الـــــلاز ، 152 .
(6) ======= ص 154 .

تبر سنها ووقارها ، الذي تظهر به في أحداث الرواية نفسها[1].

ومن غير المستساغ أن تركز الرواية على الجانب الجنسي في مثل هذه المرأة على الأقل.

ومما جاء في وصف هذه المرأة ما يلي : ((المرأة في سن الأربعين ، ما تزال تحتفظ بشبابها ، وجهها مستدير جميل))[2].

مهد الكاتب بهذا الوصف الذي يدور في ذهن الضابط للأمر الفظيع الذي سيصدره هذا الأخير لبعطوش العميل ابن أخت حيزية زوجة الربيعي ، وابن أخ الشيخ الربيعي أيضا . فبعد تعرية الزوجين من كل ثيابهما ، أمره قائلا : ((سارجان بعطوش ، أريد أن تضع جنينا في بطن هذه المرأة ، هنا أمامي . هيا اسرع))[3]. وليس المثير هو اصدار مثل هذا الأمر من الضابط الفرنسي ، الذي أثاره تحدي الشيخ الربيعي له[4]. ولكن المثير هو تنفيذ بعطوش لهذا الأمر ، وعدم رد الفعل من الربيعي ، ولو بعمل انتحاري . فالانسان المسلم لا يقف متفرجا في هذه اللحظة على ما يفعل بزوجته ، كما لا يقوى على الاعتداء على شرف خالته ، التي هي بمثابة أمه ، وزوجة عمه الذي هو بمثابة أبيه ، أيا ما كانت خيانته ونذالته . وربما كانت هذه هي الفرصة المناسبة لصحوة ضمير بعطوش التي حصلت فيما بعد تحت تأثير هذه الواقعة الشنيعة ذاتها . الا أن الرواية تنساق وراء الاثارة الجنسية الخالية من أي دلالة فنية ، والا فما الذي يبرر التذاذ بعطوش بهذه الفعلة الشنيعة : ((خالتي حيزية . اللعنة على خالتي حيزية . من طلب منها أن تكون خالتي ؟ أروع التذاذة عرفتها في حياتي))[5].

والأكثر من هذا أن الخالة نفسها ((كانت تئن وتتلوقه وتتجاوب معه بشكل فظيع))[6].

ما هو البعد الفكري أو الفني لمثل هذه التفاصيل ؟ لا شيء في رأيي الا ما أشرنا اليه من رغبة في الاثارة الجنسية ، التي يكاد دور المرأة الجزائرية في رواية اللاز هذه ، ورواية الزلزال من قبل أن يقتصر عليها .

ان واقع المرأة في الثورة الجزائرية ، هذا الواقع الذي تأخذ رواية اللاز على عاتقها تعريته[7] ، لم يكن يمثل الصورة التي ظهرت بها المرأة الجزائرية في الروايتين . وربما علل الكاتب موقفه هذا من المرأة بجهلها وعدم وعيها ، وظروفها الاجتماعية .

---

(1) انظر اللاز ، ص22 ، 33 الى 35 .
(2) اللاز ، ص135/ 136 .
(3) = = = = = = ص137 .
(4) كان الشيخ الربيعي يقرأ القرآن في سره مستعينا به على تحمل العذاب .
(5) اللاز ، ص189 .
(6) = = = = = ص 191 .
(7) انظر مقدمة رواية اللاز . ص 8 .

والواقع أن المرأة رغم كل هذه الظروف، وخاصة في الريف قد تحملت بشجاعة وصبر أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقها .. فأين هي المرأة التي تعد عشرات، بل مآت الارغفة، كما تعد لحم الشاة والشاتين في الليلة الواحدة للطعام للمجاهدين ؟ أين هي المرأة التي تحملت موت ابنها، وأبيها وزوجها وأخيها ؟ ! أين هي المرأة التي ضحت بنفسها . الواقع أن المرأة كما تظهر في رواية اللاز، لا تمت الى المرأة الجزائرية بصلة تذكر . لقد عذبت المرأة، وقتلت، وشردت، وشاركت قدر استطاعتها في الثورة دفاعا عن الوطن، ولا نرى أن رواية اللاز قد صورت هذه الحقيقة، التي لسنا في حاجة الى ايراد الأدلة لاثباتها .

واذا كانت هذه هي صورة المرأة الجزائرية في رواية اللاز فما هي يا ترى صورة المرأة الفرنسية فيها ؟ .

يتحدث زيدان عن (سوزان) الفرنسية بكثير من التقدير والاحترام، بل والتقديس، ولا تذكر الرواية اطلاقا ما يشير الى أدنى اثارة جنسية منها كما رأينا مع النساء الجزائريات السبع اللائي سبقت الاشارة اليهن: ((لم تكن جميلة ولا قبيحة، كانت فتاة عادية، أشبه ما تكون براهبة ...))(1). وهذه القداسة التي يخلعها زيدان على سوزان تجعله يعاملها بتقدير زائد، لا لأنه أجنبي في وطنها، أو أنه يحتاج الى مساعدتها له في ايجاد عمل، ولكن لأنه يشعر بالنقص ولا يدرك ربما أهمية الثقافة والحضارة التي ينتمي اليها، ولذلك فانه عندما تتوطد العلاقة بينهما ينتهي به الأمر الى اعتناق العقيدة الشيوعية .

يصف زيدان الجزائري علاقته بسوزان الفرنسية فيما يلي : ((حدقت فيها ليلة أربعة أيام، (...) غيري يدخل ويخرج بسرعة، أما أنا فأستند الى الجدار، وأبقى أنتظر حتى يغلق المكتب .. وقبل انقضاء الأسبوع ألفتني وتعودت وجودي معها، تستقبلني، وتودعني بابتسامة، وتحمر وجنتاها عندما ترفع بصرها وتجدني أحدق فيها))(2) .

وهكذا لا تتعدى هذه العلاقة الابتسامة، والنظرات الحبية المتبادلة، والتحيات، والسؤال عن الأحوال(3)، فلا يوجد في هذه العلاقة ما يخدش الكرامة، أو يمس العرض، بل ان سوزان الفرنسية أصبحت — على عكس ما تمثله المرأة الجزائرية في رواية اللاز — رمزا لكل ما هو انساني ونبيل وطاهر وحميم، ففي حين لا يذكر زيدان شيئا عن أمه أو أخته أو ابنته الجزائرية، فان سوزان تمثل كل هذا وزيادة، فهي الصديق الذي يحترمه زيدان ويقدره ((بدافع العرفان بالجميل))(4)، لأنها تساعده في ايجاد العمل وطلب العلم

---

(1) اللاز، ص 203 .

(2) = = = = = = ص 204 .

(3) انظر اللاز، ص 204 .

(4) اللاز ص 204/ 205 .

وهي الاخت ((كأنها أختي))[1] وهي الأم ((.. وما ان أعود في المساء حتى تجلسني أمامها، وتشرع في اعادة تلقيني ما قرأت، أو في شرح نص من النصوص، ثم تطلب مني أن أنسخ صفحة من كتاب، أو محاسبتها (كذا) في الصباح قبل الذهاب الى العمل بمحفوظة))[2].

وأخيرا تعقد قرانها عليه، وكأن الطبيعة الانسانية في أن يكون الرجل هو المبادر في هذه العلاقة تنعكس في هذه الحالة أمام الانقياد والانبهار بشخصية الفرنسية ((سوزان)) من طرف الجزائري زيدان ((.. قادتني من يدي الى دار البلدية، لنسجل عقد زواجنا))[3]. وكأنما يستكثر زيدان على نفسه هذا الزواج، أو لا يرى نفسه أهلا له بالمرة، فيؤكد ذلك بقوله: ((لا أشعر أبدا بأننا زوجان، انما رفيقان لا غير))[4].

واذا لم يكن زيدان حريصا على العلاقة بمريانة أم اللاز، وعلى اعطاء الصبغة الشرعية لعلاقته بها، أو على علاقته بجزائرية أخرى هي زوجته، التي لايذكر حتى اسمها، بل يشير مرة واحدة فقط قبل موته الى أطفاله السبعة معها، الذين خرجوا من حياته، ولم يعد يفكر فيهم، ولا في أمهم[5]، اذا لم يكن زيدان حريصا على العلاقة بالمرأة الجزائرية، التي يهجرها هو بنفسه، فانه يفكر في ((سوزان))[6] بعد أن هجرته هي ((غادرتني ... ولم تعد))[7]. وقد كان يمكنها لو كانت حريصة على العلاقة به، كما يحرص عليها هو أن لاتنقطع عن الاتصال به بأي شكل من الأشكال، رغم مرض أمها، وظروف الحرب العالمية الثانية.

هذه هي صورة المرأة الفرنسية كما وصفتها رواية اللاز، عرضناها على سبيل المقارنة بينها وبين المرأة المرأة الجزائرية في هذه الرواية أيضا.

ونحن لا ننكر العلاقات الانسانية مهما كان نوعها، ولا ننفي ما قد يتحلى به الانسان أيا كان أصله وجنسه ودينه من مثل انسانية.

ولكننا نلاحظ غياب هذه المثل والقيم عند المرأة الجزائرية المسلمة، التي ركزت الرواية فيها على الجانب الجنسي كما عرفنا، دون دافع فني أو فكري يذكر.

(1) اللاز، ص 205.
(2) ========ص 206.
(3) ========ص 206.
(4) ========ص 206.
(5) انظر اللاز ص 257.
(6) ========ص 203.
(7) اللاز، ص 207.

ب ــ وصف المعارك والعمليات الفدائيــــة :

يبدو أن الحديث عن المعارك والعمليات الفدائية والكمائن في رواية اللاز قليل ، اذا ما قورن بوضع المجاهدين اليومي ، وخاصة في الريف ، الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية .

ومع هذا فقد نجح المؤلف في وصف جو الثورة كما يظهر في أحاديث الناس وتصرفاتهم وأحاسيسهم منذ البداية الأولى للرواية ، بتعبير بسيط ، ولكنه بالغ التأثير في النفس ((. . . الحركة تقل شيئا فشيئا بعد أن ملأت عربات الجيش الطريق الرئيسي ، عائدة مغبرة ، دكناء ، من ميادين العمليات ، وسط تعليق تتسرب من هنا وهنــــاك :

ــ خسائرهم كبيرة اليوم .

ــ كأنهم راجعون من جنازة .

ــ أخبارهم وصلت بعد . . هيلولة هيلولة[1] . . ربي يتم[2] .

وربما استفاد الكاتب في وصف جو الثورة المشحون بالرعب والتحدي ، والحزن والتحمس ، من ((همنغواي)) وخاصة في رائعتيه ((وداع السلاح)) و ((لمن تقرع الأجراس)) . وهذه الرواية الأخيرة تناقش رواية ((اللاز)) أحداثها من وجهة نظر المتطوع الاسباني ((سانتوز)) . ويظهر هذا التأثر الايجابي بطبيعة الحال في وصف جو الحرب ككل ، المبثوث في ثنايا الرواية ، وفي استعراض تجهيزات العدو ، وآلياته العسكرية[3] ، وفي اعدام الخونة[4] ، وفي استكشاف الطائرات لمواقع المجاهدين[5] ولكن الرواية لم تتعمق ــ ربما لقصرها ــ في مثل هذا الوصف ، اذ لم تتعد الاشارة الى هذه الأجواء المرة الواحدة ، بينما نجدها تتكرر عند ((همنغواي)) وتتنوع دلالاتها في كل مرة .

ولم تعكس المرات القليلة التي تحدثت فيها الرواية عن المعارك والعمليات الفدائية صورة المواجهــــة الحقيقية ، بين المجتمع الجزائري والمجاهدين منه خاصة والمحتل الفرنسي . ولا يعود هذا الى قلة الحديث عن مثل هذه المواجهة التي أشرنا اليها ، ولكن الى وصفها العام ، وغير المباشر أيضا .

هذا الوصف يكون أحيانا من بعيد ، فيتم مثلا عن طريق التذكر ، كما ورد في وصف حوادث ماي 1945[6]

---

(1) كلمة دارجة معناها رائع أو عظيم .

(2) الــــــلاز ، ص 11 .

(3) انظر اللاز ص 11 .

(4) ===== ص 151 الى 155 .

(5) ==== = ص 171 .

(6) ===== ص 42 .

أو عن طريق السرد النظري للاستراتيجية التي اعتمدتها الثورة التحريرية في مقابلة العدو[1]، أو تكتفي بذكر التخطيط للعمليات العسكرية، والاكتفاء بعد ذلك بذكر نتائجها في عروض حال بعد انتهائها[2]، وأحيانا تذكر نتائج معركة ما، دون أن تقع الاشارة الى حوادثها اطلاقا[3].

وأعنف مواجهة وصفتها الرواية هي التي قادها بعطوش، واستهدفت تدمير الثكنة العسكرية الموجودة بالقرية، ورغم الوصف الجيد لهذه العملية العسكرية، فان الرواية قد بالغت في تقدير نتائجها، اذ جعلت تسعة مجندين جزائريين فقط يتمكنون من القضاء على كل الوجود الفرنسي بالقرية ((كل شيء انتهى، ما ثنان وتسعون عسكريا، ثلاثون قوميا، كل العربات، كل الدبابات، كل مراكز الرقابة))[4]، ويعودون بعد ذلك محملين بأكداس من الذخيرة دون أن يصاب أحد هم بأذى.

والملاحظ في الأخير أن أيا من الأبطال الأساسيين لم يشارك في مواجهة مباشرة مع المحتل الفرنسي فلم يطلق زيدان أو حمو، أو اللاز، أو قدور رصاصة واحدة. ولم تصف الرواية أيا منهم وهو يواجه العدو في معركة أو عملية فدائية فقط. والوحيد الذي شهد مثل هذه المواجهة مرة واحدة هو اللاز، ولكنه كان حينئذ غائبا عن الوجود، فلم يشارك في المعركة نفسها ((ولم يخضها بأية صفة))[5] كما تقول الرواية نفسها.

واذا لم تكن الرواية قد أوضحت المواجهة التي لاقاها المحتل الفرنسي خلال ثورة التحرير، فانها قد أفاضت في ذكر تفاصيل المواجهين الجزائريين، كما ظهر ذلك في مقتل زيدان[6]، واعدام الخونة السبعة الذين تفنن ((الناصر)) في ذبحهم الواحد تلو الآخر[7]، في قسوة بالغة لم يواجه بها المحتل الفرنسي نفسه.

ولعل الرواية قد عوضت قصورها في وصف المعارك والعمليات الفدائية، بوصف فنون التعذيب التي لاقاها اللاز في السجن، ووصف المشاعر الانسانية المتناقضة، التي أحسها وهو يواجه هذا التعذيب الشديد[8].

---

(1) انظر اللاز، ص 171 الى 172.
(2) ========= ص 165.
(3) === ===== ص 59.
(4) ======= == ص 267.
(5) اللاز، ص 141.
(6) انظر اللاز من 272 الى 273.
(7) ========= 150 الى 155.
(8) ========= 78 الى 95.

جـ ـ وصف الأماكـــــن :

تحاول الرواية أن تعطي صورة متكاملة للمجتمع الجزائري وهو يتحرك باتجاه استعادة استقلالـــه وشخصيته ، وتجعل القرية التي تدور فيها أحداث الرواية ، والجبال المحيطة بها مكانا لهذه المواجهـــة الشاملة ، التي تكون فيها البطولة جماعية ، يشارك فيها عدد كبير من الأشخاص ، مع تفاوت بينهم في هـــذه المشاركة . كما تحاول أن تمزج بين المكان والزمن والحدث ، وتوائم بين هذه العناصر لتمنع أبطال الروايـــة في بيئتهم الحقيقية ، وتجعلهم بذلك يتصرفون بتلقائية ، ويعبرون بموضوعية عن عن مسيرة التحول النوعية التي شهدها المجتمع الجزائري أثناء الثورة التحريرية ، وهي فترة حاسمة من تاريخ المجتمع الجزائري الحديث .

نلاحظ هذا الجهد في المزج بين العناصر المذكورة منذ بداية الرواية[1] ، اذ تتحدث عن زمن القرية الرتيب قبل الثورة ، وعن أماكن مختلفة فيها[2] ، ولكن الرواية مع هذا تعجز في الوصول الى اقامة علاقات وطيدة بين عناصرها المختلفة . فلم تظهر خصوصية المكان في رواية اللاز .

يقول ((ياسين لنصير)) : ((لا يصبح المكان مكانا في العملية الفنية الا متى ما ظهرت خصوصيته في العمل الفـــني))[3] .

اننا لا نحس بخصوصية المكان في رواية اللاز ، كما نحسه مثلا في رواية ((ليور في الظهيرة)) لمرزاق بقطاش ، التي نجد فيها أماكن أليفة لا تبرح ذهن القارئ بسهولة ، مثل المدرسة والقسم والطريق الترابي والغابة ، والشارع ، والحي الشعبي . . الخ . وحتى الزمان في رواية بقطاش فانه يمتلك هذه الخصوصيـــة فالصحو ، وتقلب الجو ، وسقوط المطر ، وتعاقب الفصول ، والليل والنهار . . كلها مظاهر شديدة الحضور في الروايـــــة .

ولم تستغل رواية اللاز اطارا مكانيا هاما لأحداث الثورة التحريرية ، هو الطبيعة ، وخاصة الجبـــال مسرح الثورة ، والتي تدور فيها أحداث الرواية ، وقد تحملت بدورها نصيبها من غضب المحتل ، الذي دمر قسما كبيرا منها في محاولة منه للقضاء على المجاهدين ، كما لم تستغل مظاهر الصحو ، والمطر ، والليل والنهار والرياح ، وتعاقب الفصول . . كما استغلتها روايات جزائرية أخرى[4] ، ومزجت ببراعة فائقة بينها وبين أحداث الرواية ومشاعر الأشخاص فيها .

---

(1) انظر اللاز ، ص 11 ، 24 ، 25 .

(2) = = = = = = ص 25 ، 1؟ .

(3) ياسين النصير : الرواية والمكان ، وزارة الاعلام والثقافة — العراق 1981 ص 26 .

(4) من هذه الروايات مثلا ليور في الظهيرة ، البزاة ، المضطهدون ، نوار اللوز .

وقد ظهر التكلف واضحا في الفقرة الوحيدة التي حاولت ذلك في رواية اللاز : ((السماء صحو عدا بعض سحابات تلتوي يمنة ويسرة ، متخذة أشكالا مختلفة ، مرة تبدو في شكل أسد ، ومرة في شكل شيخ معمم يجلس القرفصاء ، لحيته البيضاء تتدلى ، ومرة في شكل ديك مذبوح))[1].

فبالاضافة الى أن هذه الصور تقليدية بسيطة ، فانها لا تمتزج بمشاعر زيدان الذي يتخيل هـــذه الأشكـــال .[2]

يستخدم الكاتب في الوصف بجوانبه المختلفة التي تعرضنا لها صورا مختلفة ، بسيطة ومركبة ، ولكـــن الجانب الحسي يغلب عليها جميعا ، ويكثر التشبيه بأنواعه المختلفة في رواية اللاز ، وأكثره من النوع البسيط مثل : ((انبعث صوت سي الفرحي ... كأنه ذئب جائع))[3] ، ((الأيام الماضية أشبه ما تكون بالمستنقعات المتعفنة))[4] ، ((ظلت حيزية في جمود التمثال))[5] ، ((وجه صلد كالصوان))[6] ، ((الشيوعي والشمعة لا دور لهما الا الذوبان))[7] ، ((يرونني بين مخالب الدورية))[8] ، أو المركب الذي تتعدد فيه الصور ، مثل صورة السبخة أو صورة نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء[9] ، أو صورة الحبلين الممتدين اللذين[10] يريد زيدان أن يتعلق بهما معا[11] .

ويغلب على هذه الصور المركبة القليلة ، التشبيه الحسي أيضا ، وتندر التشابيه المعنوية مثل تشبيه الجبال بالقدر ((الجبال كالقدر))[12] ، لأنها تحمل الموت الفجائي .

ويستعين الكاتب في تأكيد المعنى بالصفة التي تكثر في الرواية كثرة ملحوظة ، وقد تتكرر في العبارة الواحدة مثل ((قرص الشمس كالتفاحة ، كبير رائع يبدو وأنه ملفوف في الحرير))[13] ، ((ويأتيه الجواب صارما متحديا

---

(1) اللـــــاز ، ص 61 .
(2) انظر عن وظيفة الوصف — برنار دي فوتو — عالم القصة ، ص 240 الى 244 .
(3) اللـــــاز ، ص 55 .
(4) ====== ص 102 .
(5) ====== ص 136 .
(6) ====== ص 179 .
(7) ====== ص 257 .
(8) ====== ص 124 : انظر أيضا ص 210 و 229 .
(9) انظر اللـــــاز ، ص 110 .
(10) ========= ص 111 .
(11) ========= ص 46 .
(12) اللـــــاز ، ص 259 .
(13) ========= ص 209 ، 210 .

ملاذا عنيفا كالرعـــد[1] .

3 ـ الحس الشعبي والرمــــز :

يجمع الروائي الى ثقافة المفكر والفيلسوف ، وثقافته الخاصة ثقافة الانسان العادي وهمومه . ولوطار نصيبه المعتبر من هذه الثقافات الضرورية لنجاح أي عمل روائي .

فهو يحاول في رواية اللاز أن يعبر بالفكرة التي تحملها ، والتكنيك الفني الذي يستخدمه عن اهتمامات الانسان العادي ، ويستغل في ذلك كثيرا من عناصر الثقافة الشعبية التي تزخر بها الرواية ، كالاعتقادات والأمثال والحكم ، والتعابير الشعبية .

وقد توسلت بهذه العناصر المبثوثة عبر النص الروائي كله لأن تكون رواية شعبية ، والواقع أن لمؤلفها وطار رصيد معتبر من الثقافة الشعبية ، وهو من أكثر الروائيين اتصالا بهذه الثقافة ، واهتماما بها ، واستخداما لها في رواياته كلها .

وقد اكتسبت رواية اللاز نكهة جزائرية محلية بفضل هذا التوظيف الفني لهذه الثقافة الشعبية دون أن تفقد مكانتها في الرواية العربية ذات الطابع الفني لأي عمل فني أصيل لا يحول دونه ودون الانتشار القومي والعالمي ، بل ربما زادته هذه المحلية والأصالة بعدا انسانيا أوسع .

اشتملت رواية اللاز على خمسة عشر مثلا شعبيا[2] ، وعلى معتقدات شعبيـة عديدة ، كالسحـــر

---

(1) اللاز ، ص 47 .

(2) وردت في اللاز الأمثال والحكم الشعبية التالية :

- ما يبقى في الواد غير حجاره : ومعناه لايدوم الا ما هو أصيل وحقيقي .
- لو حضر أجله لمد رجله : ومعناه لو كان مذنبا حقا لظهر هذا عليه .
- اعلها بالدين ، وماتلوحهاش في الطين . اختيار أخف الضررين .
- لو كان يحرث ما يبيعوه : اذا انقطعت فائدة الشيء استغني عنه .
- ما ترهنه بمه : استغن عما لا يمكنك التحكم فيه .
- زواج ليلة تدبيره عام : ضرورة التدبر في الأمر قبل اتخاذ القرار .
- كي تجي تجيبها شعرة : عندما يسهل الأمر العظيم تهون صعوباته .
- لاأمان في دار الأمان : وجوب الحذر في كل الأحوال .
- اسأل مجرب لا تسأل طبيب : يؤكد هذا المثل على أهمية التجربة والخبرة في حياة الانسان .
- الشامي شامي والبغدادي بغدادي : يضرب هذا المثل عندما تتكشف النوايا وتتعدد المذاهب والمواقف
- دعاوي الوالدين تنفذ في الصنايا : الدعاء على الوالدين يصيب أبناءهم .
- النخالة تجلب الكلاب : الطمع يوقع أصحابه .
- مذبوح للعيد والا لعاشوراء : الضرر واقع في الحالين .
- الخوف يسلم الجري : يطيع الانسان من يخافه ويطبق أوامره .
- الذيب يقول اللي تتلفته اجريه : يضرب هذا المثل في الحرص الشديد على استغلال الوقت وعدم تضييعه .

وكتابة الحروز ، والخوف من عاقبة الضحك ، والتشاؤم من الأشقر ذي العيون الزرق . . . الخ [1] . كما اشتملت على أكثر من خمس عشرة كلمة وتعبيرا شعبيـــا [2] . وبضع اعتقادات شعبية [3] .

ورغم كل هذه العناصر التي رصدها الكاتب ، والتي جاءت عفوية في السياق الروائي غير متكلفة ، فان رواية اللاز ليست رواية شعبية ، وان حملت بعض السمات الشعبية بهذه العناصر المذكورة والمشروحة فـــي الهامش ، أو بتصرفات ومواقف ، وصفات بعض أشخاص الرواية ، كـ(سي الفرحي) ، و (ارزقي) و(حمو) وغيرهم ، لأن الرواية قد عبرت أساسا عن ((صراع أيديولوجي بين مناضلين من مختلف التيارات)) [4] أبدى فيه الكاتب رأيـــه ((من وجهة نظر حزبية أمينة)) [5] كما يؤكد هو نفســـــه .

لقد حاول الكاتب أن يغلف وجهة النظر هذه ، بغلاف شعبي ، وذلك برصدها والبحث عنها ، أو عمـــا يعبر عنها ويوحي بها في الوسط الشعبي الجزائري ، عن طريق شخصيات معينة في الرواية ، وخاصة الـــلاز . يقول السيد حامد النساج بشأن هذه الفكرة : ((لقد اختار الطاهر وطار شخصية شعبية ، جعلها التجسيد الحي العفوي للقصائد والمثالب الخاصة بالشعب الجزائري)) [6] .

---

(1) انظر الــــلاز ، ص 29 .

(2) من الكلمات والتعابير الشعبية ما يلي :

— ((سلمت في ابنتها كأنها دجاجة فصلت عن أبنائها)) ص 169 ((جماعة الخير)) ص 177 — ((فحل)) ومعناها شخص يمتلك صفات الرجولة الحقيقية — ((عام النخالة)) ص 194 : سنة مجاعة يؤرخ بهـــا ((حمريطك)) ص 194 : ومعناها أحمر ((ابن أمه)) ص 199 : وهي صفة ذم — ((صلاة الغاصبين)) ص 208 : مثال يضرب في التحايل وعدم الاخلاص في الشيء .
((التقلته من الرماد)) ص 12 : تعبير شعبي لمن يشك في نسبه من الابناء — ((المطمورة)) ص 153 حفرة تحفر في الأرض لتخزين الحبوب — ((كأنما سلبت الغولة عقله)) ص 148 : تعبير شعبي يعني الانقياد والخضوع — ((أشم رائحة الموت)) ص 152 / 153 : تعبير شعبي معناه الاحساس بدنو الأجل ((كان الدخان لا ينبعث من كوخها الا من سنة لأخرى)) ص 15 : كناية شعبية عن الفقر الشديد .

(3) من المعتقدات الشعبية التي استخدمت في رواية اللاز : السحر وكتابة الحروز ، ص 29 — خلع الصفات الانسانية على المظاهر الطبيعية ، ص 108 — التشاؤم من الشخص الأشقر ذي العيون الزرق ، ص 177 (وهذا امتداد للعداء المستحكم للاوربي) — توقع حدوث مكروه بعد الضحك الكثير ، ص 199 ، 242 .

(4) [illegible] يمنى العيد مع الطاهر وطار . الطريق ، العدد 3 / 4 . 1981 ، ص 191 .

(5) نفس المرجع والصفحـــــــة .

(6) د . سيد حامد النساج — بانوراما الرواية العربية الحديثة — المركز العربي للثقافة والعلوم ، بيروت ط 1 ، 1982 ، ص 225 .

والواقع أنه رغم كون شخصية اللاز ((شخصية روائية حية تتحرك وفقا لطبيعتها))[1] ، فانها شخصية شاذة وغير سوية ، لا تمثل الا نفسها أو الفئة القليلة التي شوهت طبيعتها وانمحت شخصيتها تحت تأثير الفقـــر والجهل والاستعباد والاذلال ، ولا يمكن بأي حال أن يكون اللاز نموذجا شعبيا لانه يصطدم بالقيم الشعبية الحقيقية ، المستمدة في معظمها من الدين الاسلامي . فهو لقيط ، شرير ، سكير ، منحرف ، شاذ في كل تصرفاته وهو بهذه الصفة لا يمثل الشعب الجزائري كله كما يقرر الكاتب ((انه الشعب برمته .. الشعب المطلق بكل المفاهيم))[2] . فاللاز نفسه كان يريد أن يتخلص من هذه الصفة ((أريد أن أتخلص من اللاز ولد مريانة))[3] . وقد عمل بدافع من القيم الشعبية الحقيقية على التخلص من هذه الصفة ، ووجد خلاصه في الانضمام الـــى مجاهدي الثورة التحريرية ، التي هي التعبير الحي عن هذه القيم ، واذ ذاك أصبح انسانا جديدا لا يمت الى اللاز القديم بصلة ((اذا ما استأنفت حياة جديدة فيقينا أني سأكون لازا جديدا ، لا أعرف نفسي ولا يعرفني أحـــد ...))[4] .

ونحن لا نقول أن كل أفراد الشعب الجزائري على درجة واحدة من التمسك بهذه القيم الشعبيــة المستمدة في معظمها من الدين الاسلامي كما أسلفنا ، ولكنه لا أحد ينكرها أو يرى أن غيرها هو الأصح . صحيح أن المجتمع الجزائري والوسط الشعبي فيه على الخصوص لا يخلو من شذوذ وانحراف وتمرد على القيم وانسياق وراء الشهوات ، وقد قلنا أن ((اللاز)) نموذج لذلك ، ولكن هذا الانحراف ليس تعبيرا عن الروح الشعبية ، انه الخطأ الذي هو صفة انسانية ، وخاصة تحت ظروف بالغة القسوة كالتي عاشها الشعب الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي .

ان هناك شخصيات أخرى ثانوية في الرواية أقرب بنبلها وبساطتها وعفويتها وصبرها وتضحيتها للضمير الشعبي من ((اللاز)) . ومن هؤلاء سي الفرحي ، آحمني ، الشيخ الربيعي ، والاشقر ذي الشخصية المرحة الجذابة ، وحمو أيضا . وهذا الأخير من شخصيات الرواية الأساسية ، وان كان الكاتب قد نسب اليه أقوالا وأفكارا لا تنسجم مع شعبيته وبساطته[5] .

ويتصل بما ذكرنا عن شعبية اللاز ما يعتقده الكاتب من ((أن اللاز في الروايتين[6] رمز للشعب الجزائري

---

(1) أحمد محمد عطية ـ البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ـ مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق 1977 بدون طبع ص 559 .
(2) اللـــــاز ، ص 164 .
(3) ====== ص 63 .
(4) ====== ص 93 .
(5) انظر اللاز ، ص 50 .
(6) تقصد بالروايتين ((اللاز)) الأولى واللاز الثانية التي تحمل عنوان : (الموت والعشق في الزمن الحراشي) .

وربما الى مختلف الشعوب[1])) . ولعل ما ذكرناه من أن اللاز ليس بطلا شعبيا كافيا أيضا للرد على هذا الاعتقاد فشخصية اللاز وصفاته تصطدم —كما أسلفنا— بقيم الشخصية الجزائرية التي لسنا في حاجة الى التأكيد —مرة أخرى— بأنها مستمدة من الدين الاسلامي ،حتى في مظاهرها الشعبية المحلية وان لم تظهر هذه الصلــة بين هذه الروح الشعبية التي تتجلى في الأقوال والمعتقدات والممارسات والعادات والتقاليد وروح الديـــن الاسلامي للنسيان .

—ان شخصية اللاز ترمز بل وتجسد بوضوح كما أكدنا من قبل الأثر السلبي والتشوه النفسي والخلقـي الذي أثمره الاحتلال الفرنسي الطويل، وضغوطه المختلفة التي استهدفت القضاء على شخصية المجتمع الجزائري نهائيا ، ولكن روح الشعب الحقيقية بقيت رغم كل هذه الضغوط حية تقاوم الفناء ، وقد انبعثت في اللاز كمـا انبعثت في غيره لتكسر قيود الاحتلال ، وتستعيد وجهها الحقيقي العربي الاسلامي الذي لم يمح ولن يمحي للجزائر المسلمة .

ومن الشخصيات الرمزية في الرواية —وان لم تكن هذه الرواية رمزية أساسا— شخصية ((الشيخ)) التي تمثل الجانب الديني الذي يصطدم به زيدان صاحب العقيدة الشيوعية ، و((سوزان)) التي تمثل الجانـــب الايجابي في الغرب الأوربي ، حيث يجد عندها زيدان المساعدة ويتأثر بها ويأخذ بالعقيدة الشيوعية نتيجـــة لعلاقته بها .

وفي الرواية جوانب رمزية أخرى ، وان كانت قليلة وبسيطة ، مثل صفير القطار[2] الذي يتكرر في رواية اللاز كما يتكرر في رواية الزلزال ، ورمز اليمين واليسار[3] الذي يتكرر أيضا في رواية اللاز .

6 —اللغـــــــة :

تأكد أسلوب وطار المتميز في الكتابة الروائية ، ولغته الخاصة به منذ الرواية الأولى له ، رواية اللاز التي نحن بصدد الحديث عنها . ولا يأتي هذا التميز عند وطار من امتلاكه زمام اللغة وقدرته على تطويعها للفــن الروائي الذي كان له فضل المساهمة في الريادة له بالجزائر، ولكنه يتأكد أيضا من خلال التنويع في استخدام هذه اللغة والتعبير بها عن أشخاص الرواية الكثيرين في رواية اللاز بمختلف مستوياتهم .

(1) من حوار أجراه فيصل دراج مع الطاهر وطار، حوار في علاقات الثقافة بالسياسة (ص 97) .
(2) يرمز صفير القطار ورحيله الى فراق الأهل والالتحاق بالمجاهدين في الجبل، انظر ص 61 الى 68، 156 .
(3) لليمين واليسار في الرواية الرمز المعروف في الدلالة على الانتماء الايديولوجي . انظر ص 118 ، 143 ، 217 ، 228 ، 243 .. الخ .

ومن الطبيعي أن يقع وطار في أخطاء البداية في فن أدبي جديد ، رغم أن كتابته للقصة القصيرة والمسرحية قبل كتابة الرواية قد جنبته الكثير من المزالق الفنية ، ومع هذا فان للكتابة النثرية صعوباتها المتجددة التي لا يستطيع التغلب عليها الا المتمرسون الحقيقيون بها ، والعارفون لخباياها وأسرارها . ((ان أصعب شيء يؤديه المرء في هذا العالم أن يكتب نثرا مستقيما نزيها عن بني الانسان . اذ عليه أولا أن يعرف الموضوع ثم أن يعرف كيف يكتب ، وكلا هذين (كذا) العملين يستنزفان العمر كله لتعلمهما)) (1) .

واذا كانت معرفة الموضوع متاحة لكل الناس ، فان معرفة الكتابة عن هذا الموضوع لا تتأتى الا للفنان الحقيقي الذي يمتزج في كتابته الموضوع بالفن ، المضمون بالشكل ، فلا يستطيع المتلقي قارئا أو ناقدا أن يلاحظ الحدود بينهما ، دون أن يحمد الفنان الى التجريد والتعالي ، أو يغرق في الانعكاس بدعوى الواقعية .

والحقيقة ((أن أغلب روائيينا ، الذين أرادوا لأنفسهم عن سبق اصرار أن يكونوا واقعيين اعتمدوا المقابلة ، وأغرقوا في الانعكاس ، أي تحولوا الى نساجين ، مصورين لواقع قائم سلفا ، محدد بسماته في أعطالهم ، ولكنه غائب بذاته كواقع فني ، فضلا عن أنه غائب على صفة الممكن والمحتمل . انه نثر الواقع المباشر الذي تتجمع فيه الشخوص والعادات ، والحالات ، والعاهات (...) ولكن (...) ليس فيه هذا الغنى الوشيج باصطراع القيم ، واصطدام المصائر وتشعبها)) (2) .

يعرف وطار هذه الحقيقة دون شك ، ويفرق بين الواقع الانعكاسي والواقع الفني ، وهو فنان أكثر منه مفكرا .

ولذا فقد حاول أن يتفادى هذا الانعكاس الآلي في رواية اللاز الأولى ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، وقد ظهر الجهد المبذول في كتابتها ، في جوانبها الفنية ، وخاصة في لغتها ، سواء على مستوى الالفاظ والعبارات ، أو على مستوى النسيج السردي اللغوي ككل . وتدل المدة الطويلة التي قضاها الكاتب في كتابة هذه الرواية ، والصورة التي ظهرت بها لغتها ، أنه كان يتثبت من كل كلمة يكتبها ، ويفكر كثيرا قبل أن يثبتها . كما يجاهد على أن تؤدي الجملة المعنى كاملا ، ولذا يتعب نفسه في صياغتها واختيار ألفاظها التي لا يسعى وطار وراء التجديد فيها ، بل يسعى الى استكشاف طاقتها التعبيرية .

يملك وطار مقدرة كبيرة على ايصال المعنى بيسر وسهولة وسلاسة في التعبير ، وينجح في الارتفاع

(1) أرنست همنغواي . كارلوس بيكر . ص 249 ، 250 .

(2) أحمد المديني . الخطاب الروائي العربي الخطاب المستحيل . الطريق . 3/ 4 ، 1981 ص 77 .

بالمباشر واليومي ، والعادي من التعابير والألفاظ ، الذي يستنكف غيره من استعماله الى مستوى اللغة الروائية الفنية . والحوار القصير الذي تبدأ به الرواية خير شاهد على ما نقول :

— ((ايه ايه الله يرحمك يا السبع

— سيد الرجال

— عشر رصاصات ومات واقفا

— يوم حضر أجله كان المرحوم يهجم ويصيح — زغردي أمي حليمة زغردي —))(1).

فقد ارتقى وطار بهذا الحوار العامي الى مستوى الشعر ، ولكن لغة وطار في معظمها اذا حافظت على سلامتها ، ودقة تعبيرها فانها لا تحتفظ بهذا المستوى الايحائي الشعري المؤثر ، فهي تفتقر الى الايحاء والكثافة والثراء ، وتنزع الى الصلابة والجفاف .

وسنتبين فيما يلي ، من خلال نماذج تطبيقية من النص الروائي ذاته أهم الأشكال اللغوية وخصائصها وعلاقتها بمضمون الرواية ، وطبيعة شخوصها ، وبناء أحداثها ومشاهدها .

أ — السرد :

تحاول رواية اللاز أن تعيد النظر في الثورة التحريرية من وجهة نظر معينة يتبناها المؤلف . فتستعيد أحداثها التي وقعت في منطقة ريفية محددة ، لتبقى علامة دالة ، وتصف المشاركين فيها من مجاهدين وفدائيين ومواطنين مخلصين ، وخونة متعاونين مع الاستعمار ، كما تصف المحتلين الفرنسيين ، وتتعرض لواقع الظلم والاضطهاد ، الذي كان يعيشه الشعب الجزائري ، والجرائم التي كان يرتكبها المحتلون في حقه . فالرواية ترسم صورة لواقع المجتمع الجزائري ، وتحاول أن ترصد تفاعل الانسان الجزائري مع هذا الواقع الذي أثمر ثورة التحرير الوطني . وعملية استعادة هذا الواقع واستحضار وقائعه ، واعادة بناء أحداثه وشخوصه تستدعي السرد ، وهو الشكل اللغوي الغالب على بقية الأشكال الأخرى ، نظرا لطبيعة الموضوع المعالج ، الذي يقع فيه سرد معلومات وحقائق ماضية ، وان كان لها صلة كبيرة بالحاضر .

ومعظم هذه المعلومات عن الثورة التحريرية ، ولكن يقع التمهيد لها في الرواية بالحديث عن أجواء ما قبل الثورة : ((لم تكن الثورة آنئذ مندلعة ، ولا حتى تخطر ببال قدور ، كان الجو أشبه ما يكون بالمرآة قبل أن تسقط وتتهشم ، تبدو صافية لامعة ، ولو كانت بها عشرات الخدوش ، والوجود الاستعماري لا يستشعره أحد الا كما يستشعره مريض))(2) .

---

(1) اللاز ، ص 9 .

(2) ===== ص 24 ، 25 .

وعن حوادث 8 ماي ، وما عاناه المواطنون من اباد وقتل جماعي فيها : ((انه يتذكر كيف كانت الطائرات تقذف مآت القنابل تنفجر هنا وهناك . . في كل مكان ، وكيف كان هو وكل أفراد دواره يتراكضون في الحصائد كالمجانين ، والنيران تلتهب من تحتهم ومن فوقهم . .)) (1).

وعن الحرب في البلدان المرتبطة العالمية : ((الحرب في تونس ، وفي المغرب ، وفي الهند الصينية)) (2).

وعن ثورة التحرير ذاتها : ((لم يعد الحديث يدور الا عن المعارك ، والذبح ، والحرق ، وتخريب الاسلاك والسكك الحديدية ، والجسور)) (3).

كما يساهم السرد في تقديم أشخاص الرواية ، وخاصة الرئيسيين منهم (4)، وعن الجهاد وسير المعارك وردع الخونة (5)، وبواسطته كذلك يصف الكاتب مشاعر الاشخاص وأحوالهم النفسية (6). كما يعرف بالأماكن المختلفة كالقرية ومبانيها ، والجبال المحيطة بها (7).

وعلى الجملة فان الرواية تعطي أكبر قدر من المعلومات المختلفة التي تعرض لها بواسطة السرد ، كما أنها تضمن بهذا السرد أيضا عدم انقطاع الخيط الحكائي ، الذي تنتظم الأحداث بواسطته ، فتأخذ مواقعها المحددة في الرواية .

والملاحظ أن السرد ، اذا كان هو الشكل الغالب في رواية اللاز ، فانه يمتزج بالأشكال الأخرى في انسجام ، ويؤلف معها الحياة الضاجة بالحركة ، المليئة بالحيوية والملونة بشتى الانفعالات والمشاعر (8).

تمتاز اللغة السردية في رواية اللاز بالسهولة والعفوية والبساطة ، سواء في الجمل أو العبارات أو الألفاظ أو الصور الفنية ، ولكنها تخلو من الشاعرية ، ويغلب عليها الجفاف والرتابة كما قدمنا . ((انطلقت الدورية ، التي اختلط أفرادها الى اليمين أولا ، وبعد مسافة قصيرة الى اليسار . وان هي الا خطوات حتى تراءت في الظلمة السيارات رابضة في ساحة صغيرة ، تفرق الجنود يجسون أبوابها الواحد بعد الأخرى ،

---

(1) الـــــلاز ، ص 42 .
(2) ======= ص 25 .
(3) ======= ص 47 . انظر أيضا ص 48 ، 52 ، 54 ، 134 .
(4) إنظر الـــلاز . ص 11 . 12 . 14 . 17 . 169 . 170 .
(5) انظر مثالا لذلك في الرواية ، ص 100 .
(6) ============= ص 129 . 140 . 229 . 231 .
(7) ============== ص 11 . 134 . 222 . 260 .
(8) انظر مثالا لهذا الامتزاج في الأشكال في الرواية ص 74 — 99 .

في حين هوى الكابران رمضان بخنجره على الحارس، بينما ظل اللاز يتابع المشهد بلا مبالاة))(1) .

فالتعبير في هذه الفقرة يصف لحظة حاسمة مشحونة بالتوتر والانفعال، ولم تستطع اللغة هنا أن تكشف عن هذه الحقيقة .

يكون السرد في بعض الأحيان عبئا ثقيلا على الحركة، خاصة عندما يطول بين حركة وأخرى، وفي ظروف حرجة، تشد أنفاس القارئ، ومن ذلك مثلا أن عملية الفرار السريعة التي يقوم بها مجندون جزائريون يتوسطها سرد طويل وثقيل في أحرج لحظاتها، بين فتح السيارة واشعال محركها، حيث يعود بنا السرد الى ماضي اللاز، والى وصف مشاهد التعذيب، ولحظة لقاء القبض عليه، وما لاقاه من الدورية التي ألقت القبض عليه من لكم وضرب وصفع، وكيف أشعر قدور بذلك، ثم الى الندم عن الاعتراف، والى مقارنة حياة النضال الجديدة بحياة الصبا أيام كان طفلا يتدلل على كل من في القرية، والى ما أصابه من تعذيب بسوط الشامبيط . كل هذا قبل أن يشتعل الضوء الأحمر، وتنطلق أنفاس الجنود الفارين، وتنبعث زفراتهم(2) .

ومع سقطات البداية هذه في رواية اللاز، فان لغتها على الخصوص تشكل نقلة واضحة، وعلامة بارزة في تطور الشكل السردي في الرواية الجزائرية . فلم يعد السرد عبئا على الحركة، ووصفا انشائيا متكلفا، كما اختفت الحواجز بينه وبين الأشكال اللغوية الأخرى، التي أصبحت ممتزجة، تشكل مجتمعة عالم الرواية النابض الحي المتدفق .

ب ـ الحوار :

اذا كان السرد يحجب في بعض الأحيان الشخصية المتحدث عنها، أو يحد من حيوية الفعل والحركة عندها، فان الحوار يضعنا أمام الشخصية المحاورة فيفصح عن نفسها، وتعبر عن آرائها ومشاعرها، وتتحرك وتقوم بالفعل بدون وساطة المؤلف .

والحوار في رواية اللاز، الى جانب مساهمته في سير الحدث، فانه يكشف عن طبيعة صاحبه، فعندما يسجن اللاز وتقف أمه باكية أمام سجنه يدور بينهما الحوار التالي :

ـ ((اسمعي يا خنزيرة بنت الخنزير . . . لو أخرج ولا أجد مائة دورو، أحطم رأسك . .

ـ لماذا يا اللاز يا بني، لماذا . . ألست أمك ؟ تسعة أشهر وأنا أعاني . .

ـ وهل اقترفت أنا ذاك، يا عاهرة . .))(3)

(1) الـــــلاز . ص 118 .

(2) انظر رواية اللاز . ص 119 ــ 121 .

(3) الـــــلاز . ص 13 .

وعندما يقع قدور في موقف مماثل ، فينكشف أمر مشاركته في الثورة ، يدور بينه وبين أمه — التي تحس بهذه المشاركة قبل أن يصارحها بها — الحوار التالي :

((— انكشف أمركم ؟

— أي أمر ؟

— اسأل المجرب ولا تسأل الطبيب يا قدور يا بني . أنا عارفة كل شيء ، قلب الأم هو خبيرها .

— انكشف الأمر ، ولم يبق الا أن أهرب))(1).

يكشف هذا الحوار عن الارتباط العاطفي الشديد بين كل أم وابنها ، بغض النظر عن سلوكه تجاهها كما يكشف أيضا عن الاختلاف في طبيعة كل من اللاز وقدور ، فالحوار الأول يكشف عن طبيعة اللاز قبل أن تهذب الثورة سلوكه ، وتعيد صوغ شخصيته . فقد كان قبل ذلك مصدر أذى وازعاج حتى لأمه أقرب الناس اليه بسبب ظروف نشأته وتربيته التي أشرنا اليها من قبل ، بينما يكشف الحوار الثاني عن طبيعة قدور الذي نشأ نشأة سوية متوازنة في أسرة تسود ها الروح الدينية ، فقد أخفى أمر مشاركته في الثورة عن أمه حفاظا عليها مما ستعانيه من خوف وقلق عليه اذا عرفت ذلك ، ولكن الأم كانت تعرف الأمر ولم تصارحه به أيضا الا عندما ألقي القبض على اللاز ووجب فرار قدور الى الجبل .

وهكذا يحافظ كل فرد في الأسرة المتكافلة على الآخر ، ويسعى في راحته ، ولكن عندما يتعلق الأمر بالثورة فان الجميع يتحمل تبعتها بالصمود والشجاعة والقوة التي تتيحها الطبيعة الانسانية . وكما نعلم من سياق الرواية فان قدور وأمه يستشهدان ، ويبقى الشيخ الربيعي بعدهما يعاني مرارة الوحدة في شيخوخته ، ولكنه يتحمل كل ذلك بالروح الدينية العالية عنده ، التي تحث على قوة الصبر والتحمل ، وهما من سمات الانسان الجزائري .

وفي حوار آخر قصير تتأكد علاقة التكافل هذه والمودة بين أفراد أسرة الشيخ الربيعي ، ولو بطريقة غير مباشرة . فالشيخ الربيعي عندما يرى ((اللاز)) بين أفراد الدورية الفرنسية يدعو عليه بالهلاك كما يفعل سائر سكان القرية الذين كان ((اللاز)) عبئا ثقيلا على حياتهم ، ولم يكونوا قد علموا بعد التحول الذي طرأ على شخص ((اللاز)) بعد اعتناقه للثورة ، والوحيد الذي كان يدرك هذه الحقيقة هو قدور ، الذي يعاتب أباه في أدب لأنه أخطأ في حق اللاز بدون أن يدري . يدور هذا الحوار عندما تمر الدورية التي تجر ((اللاز)) بجانب دكان الشيخ الربيعي ويسمع قدور جلبتها :

— ((ما هذا الضجيج يا بني ؟

— اللاز . اللاز . ان شاء الله يا ربي . . .

— لا يا أبي . لا .

---

(1) اللاز ، ص34 .

قال قدور ، ثم رمى المطرقة والكلاب ، ووثب الى الباب)) [1] .

وقد قطع قدور دعاء أبيه على ((اللاز)) لأنه – كما قلنا – يعرف حقيقة اللاز التي لا يعرفها غيره .

ومن خلال مقاطع الحوار السابق نلحظ تناسب الحوار مع الشخصيات الصادر عنها ، سواء من حيث الافكار أم من حيث التعابير والالفاظ المعبرة عن هذه الافكار . ويرتفع مستوى الحوار عندما يدور الحديث بين زيدان والاوربيين الخمسة حول السياسة والادب [2] كما يكشف هذا الحوار في الرواية عن تطور المسار الفكري للشخصيات المتحاورة وتأثير بعضها في الآخر [3] ، وعن مشاعر هؤلاء الاشخاص ، الرفيعة منها والوضيعة ، كما هو الحال مع بعطوش ، الذي ظهر خضوعه وتذلله للضابط في حواره الطويل معه ، والذي لم يزد من جانب بعطوش على كلمة واحدة فيرددها في استسلام وانقياد مطلق هي : سيدي الضابط [4] .

ويساهم الحوار الخارجي الى جانب هذه الوظائف المذكورة في سير الحدث الروائي [5] . بينما يعمل الحوار الذاتي على اضاءة الجوانب الداخلية للشخصية التي تختلي بنفسها ، وتتعمق مشاعرها وأحاسيسها الباطنية ، وتطلعنا على خباياها وأسرارها ، وأشواقها وأزماتها النفسية ، جوانب ضعفها التي لا تظهر منها الا آثار جزئية في السرد والحوار الخارجي . فالحوار الذاتي ينزع الغطاء الخارجي الذي تظهر به الشخصية لغيرها فتظهر على حقيقتها التي تخفى عن غيرها في الاشكال اللغوية الأخرى . والضعف الانساني أحد جوانب هذه الحقيقة التي يظهرها هذا النوع من الحوار . ومن مظاهر هذا الضعف الخوف الذي يعتري شخصيات الرواية عند مواجهة الخطر ، هذا الخوف الذي يشعر به قدور عند القاء القبض على ((اللاز)) فيراه ماثلا في كل ما حوله ، في حواره مع نفسه . مع أن مظهره لم يكن يوح بذلك ((لعلهم ينتظرونني في المنزل ، أو لعلهم في هذه اللحظات بالذات في أثري .. على بعد بعض أمتار لا غير .. أو لعل القريقة طوقة بحثا عني انهم سيعلمون بأمري ان لم يكونوا قد علموا به بعد)) [6] ، ((قد يكونون الآن في أثري .. ربما سبقوني الى المنزل أو ربما هم في الدكان يستفسرون أبي)) [7] .

ويذهب خيال قدور بدافع هذا الخوف الى ما هو أبعد . لقد ((توقع ...)) بعد أن طرق الباب

---

(1) اللاز ، ص16 .

(2) انظر اللاز ، ص247 الى 254 .

(3) ===== ص41 الى 50 .

(4) انظر الحوار الذي جرى بين الضابط وقدور ، ((اللاز)) ص185 الى 188 .

(5) انظر نموذجا لذلك في الرواية ص170 .

(6) الرواية ص19 .

(7) ========= ص18 .

أن يجد الضابط أمامه ، مصوبا نحوه المسدس، وبسمة ساخرة تلوث شفتيه ، بينما أمه مظللة (كذا) والدماء تنزف منها .. يقودني الى الثكنة بعد أن يركلني ألف ركلة .. وهناك .. آه (...) آه بيني وبين الموت شعـــرة)) (1) .

تدور هواجس الخوف هذه في ذهن قدور ، بينما يحاول في حواره الخارجي أن يكون طبيعيا وألا يطلع حتى أقرب الناس اليه على هذا الخوف :

((ـ زينة . أنا ذاهب في مهمة عاجلة . فرصة أخرى .

ـ حالتك غير طبيعية يا قدور .

ـ ستطلعين فيما بعد)) (2) .

وكما حاول قدور أن يخفي هذا الخوف والقلق على مصيره عن خطيبته ، حاول أن يفعل ذلك مع أمه ولكنها أدركت بغريزة الأمومة الخطر الذي يحدق بابنها :

((دققت النظر في وجهه ، وفهمت، أدركت كل شيء ، فهمت أنه في موقف متأزم للغاية ، وقرأت في عينيه أمارة معاناة ، لم تبدأ منذ اليوم ، وتساءلت :

ـ انكشف أمركم ؟

ـ أي أمر ؟

ـ اسأل المجوب لا تسأل الطبيب يا قدور يا بني . أنا عارفة كل شيء ، قلب الأم هو خبيرها .

ـ انكشف الأمر ، ولم يبق الا أن أهرب)) (3) .

وخوف الانسان من المخاطر المختلفة ، وضعفه أمام الموت أمر طبيعي ، وخاصة عند مواجهة خطر الموت ولذلك فان خلو الحوار الطويل الذي يدور في ذهن زيدان حول الموت (4) من هذا الشعور بالخوف غير مقنع وهذا لا يتنافى مع الموقف البطولي الذي وقفه زيدان ورفقاؤه ، فالبطل ليس هو الانسان غير العادي الذي لا يخاف اطلاقا ، ويقبل على الموت منشدا كما فعل زيدان ورفقاؤه ، ولكنه انسان عادي ، يشعر بالخوف ويحب الحياة ، لكنه مع هذا يتغلب على خوفه ، ويضحي من أجل نصرة المبادىء التي يريد لها أن تسـود ويموت في سبيل الدفاع عنهـــا .

---

(1) الروايـــــة ، ص 34 .

(2) الـــــــلاز ، ص 21 .

(3) ======= ص 34 .

(4) انظر الـــلاز ، ص 255 الى 258 .

وعلى كل فان لزيدان فيما عدا هذا الموقف لحظات ضعف انسانية ، تظهر في تفكيره الباطني ، ومنها مثلا أنه رغم اقتناعه بتحريم التدخين الذي أصدرته الثورة يقول في نفسه : ((انني مقتنع بهذا ، لكن لاأستطيع الكف عن الحنين الى هذا الشيء المحرم ..))[1] ، ولم يتأت هذا الاقتناع عند زيدان من شعور ديني ، بل مراعاة لمصلحة مادية فقط ، لأنه يسمح لنفسه وللاز لينه بعد ذلك بشرب الخمر ، ويحاول أن يجد تبريرا لذلك في حوار خارجي له : ((.. الانضباط شيء ، والتزمت الديني شيء آخر ، (...) هات القارورة يا اللاز))[2] .

ومع هذا فان العاطفة الدينية التي يحاول زيدان تجاهلها في حواره الخارجي تظهر عنده من حين لآخر في الحوار الداخلي الذي تظهر فيه النفس الانسانية على حقيقتها ، ولكن دون أن يصارح غيره بهذه الحقيقة بل انه يحرص على اخفاء هذه الحقيقة حتى عن أقرب الناس اليه كاللاز أو حمو ، فهو ((لا يستعمل لفظة الأخ))[4] في حواره مع غيره ، وعندما يسأله أخوه حمو عن ذلك يجيبه قائلا : ((لسنا في حروب صليبية))[5] ولم يصارح سوى أخيه حمو بهذا الرأي ، لأنه يدرك بل ويلمس بنفسه في من حوله من المجاهدين الطابع الديني للثورة التحريرية .

وحتى الخونة والعملاء للاستعمار كانوا عندما يواجهون أنفسهم بهذه الحقيقة — حقيقة كونهم مسلمين — في تفكيرهم الباطني فانهم يندمون غالبا ويعدلون عن الخيانة ويكفرون عن ذنوبهم بالالتحاق بالثورة واخلاص العمل فيها بهذا الوازع الديني . لاحظنا هذا عند بعطوش ورمضان واللاز وكثير من المجندين المسلمين الذين فروا من صفوف القوات الفرنسية والتحقوا بالثورة التحريرية .

غير أن وظيفة الحوار الداخلي لا تقتصر على ما ذكرنا فقط ، ولكنه يضطلع في رواية اللاز بمهام أخرى منها الكشف عن الصورة الحقيقية لشخص ما عن غيره من الاشخاص . هذه الصورة التي يحتفظ بها لنفسه ويتعامل على أساسها مع صاحبها دون أن يصارحه أو يصارح غيره بها ، ومن ذلك أن صورة تدور في تفكير حمو الداخلي ليست هي الصورة التي يظهرها له في حواره الخارجي معه[6] . ومن هذا القبيل أيضا صورة المجاهدين في ذهن زيدان وخاصة القريبين منهم اليه والعاملين معه في فرقته[7] . وقد يقع وصف الاشخاص

---

(1) اللاز ص 168 .
(2) = = = = = = ص 200 .
(3) انظر اللاز ، ص 111 .
(4) اللاز ، ص 107 .
(5) = = = = = = = = = = = = .
(6) انظر الرواية ص 45 .
(7) = = = = = = = = 172 ، الى 176 .

بتحديد مظاهرهم وملامحهم الجسمية أو سماتهم النفسية في إطار الحوار الداخلي أيضا[1] كما قد يعرض لأفكار منطقية مجردة يصدرها على غيره ، وخاصة اذا لم يكن قادرا على المجاهرة بها أو لم يجد من يستمع اليه فيها ويقتنع بها ، فيعيد هذه الأفكار على نفسه وكأنه يريد اقناعها ، وفي ذلك دلالة أخرى على العزلة التي يشعر بها الشخص في مثل هذه الحالة[2].

لقد جاء الحوار بنوعيه الخارجي والداخلي محكما ، عفويا ، منسجما مع بقية الأشكال ، وساهم في اضفاء الحيوية والحركة على النص الروائي ، ولكنه لم يخل من بعض العيوب الفنية ، ومنها عدم تناسب هذا الحوار مع الشخصيات الصادر عنها في بعض الأحيان ، ومن ذلك ما يخاطب به حمو الأمي صديقه قدور:

— ((نحن[3] لا شيء يربطنا بالماضي ، وأنتم[4] لا شيء يدفعكم الى المستقبل ، ولم يبق بيننا الا رابط واحد هو الحاضر ، هذا الحاضر الذي أتعاون أنا وأخي زيدان ، وكل الفقراء على صنعه ، والذي تريدون أنتم أن تبقوا متفرجين عليه . . بعضكم يتفرج ، والبعض الآخر يعمل على عرقلته وهدمه !))[5] .

ان هذه الطريقة في التفكير والتعبير ، أكبر من أن تصدر عن شخصية أمية بسيطة . وربما كان التعبير الشعبي الذي ختم به حمو حواره أنسب له وأدق وأصدق في التعبير عن شخصيته ، وهذا التعبير هو : ((يا ابن عمي في حين أنا غاطس . . أنت متردد[6] . وهذه العبارة الأخيرة تغني في رأيي عن الفقرة السابقة كلها . ومن هذا القبيل قول اللاز عن أبيه زيدان ((ربما كنت بمثابة شرارة انطلقت منه لتؤدي بعض الدور الذي لا يستطيع تأديته هو))[7] . فهذا التصوير والتعبير مما يتعذر عن ((اللاز)) الأمي أيضا . وقد كانت هذه العبارة نفسها مناسبة عندما صدرت عن زيدان[8] المثقف الذي يناقش القضايا السياسية والأدبية مع نفسه ومع غيره في النص الروائي ذاته ، الذي نحن بصدد الحديث عنه .

وأحيانا يكون الحوار عبئا ثقيلا على سير الحدث ، وذلك عندما يطول ، فيمتد الى أكثر من صفحتين في لحظة حرجة تشتد فيها الأنفاس ، انتظارا للفصل الحاسم المتوقع ، فيضيع هذا الانفعال الشديد والانتباه

(1) انظر الرواية ص 220 .
(2) ======= 200 الى 203 .
(3) يعني الفقراء .
(4) يعني الأغنياء .
(5) اللاز ، ص 50 .
(6) ===========
(7) ========= 96 .
(8) انظر اللاز ، ص 169 .

المركز لما سيحدث بفعل هذا الحلول في الحوار الداخلي خاصة (1).

واذا كان الكاتب قد نجح في تفادي المباشرة بمحاولة التقليل من السرد والوصف، والتنويع في الأشكال الأخرى ،فانه قد وقع أحيانا في هذه المباشرة حتى في الحوار الخارجي منه والداخلي على السواء فمما ورد في ذهن زيدان حول نوعية التركيبة البشرية للمجاهدين ما يلي : ((لو كانوا كلهم عمالا (. . .) لكنت أعرف كيف أخاطبهم ،أما وهم خليط (. . .) فلن يتصوروا أبدا ما أريد أن يتصوروه (. . .) انني أهرب من مواجهة الحقيقة . . في الصين لم تكن الأغلبية من العمال (. . .) هنا لك كانت القيادة تحمل أيديولوجية العمال . . وهنا . . آه . . القيادة أيضا من هذا المزيج . .)) (2)، ويمتد الحوار على هذا النحو الى أن يصل الى نتيجة هذه الأفكار المباشرة ،وهي أن على ((هذه الحركة (يعني الثورة التحريرية) أن تتبنى الصراع الطبقي من الآن ، والا بقيت مجرد حركة تحرر ، الخطر كل الخطر أن يحولها الاستعمار الى صالحه فيملن عن انتهائها ليخلف الوطن بين أيدي العملاء والصنائع . .)) (3).

وأخيرا فان هذه الملاحظات لا تقلل من قدرة وطار على ادارة الحوار الذي جاء في رواية ((اللاز)) كما في رواية ((الزلزال)) عفويا ، ومحكما ، ومنسجما مع بقية الأشكال الأخرى ، مساهما بذلك في اضفاء الحيوية على النص الروائي كلــــه .

---

(1) انظر اللاز ص 129 الى 131 .

(2) اللاز ص 161 .

(3) اللاز ص 162 . وانظر أيضا ص 50 . 201 . 203 .

(4) انظر اللاز ، ص 98 ، 99 ، 112 / 114 .

الفصل الثالث

الصحوة الإسلامية المعاصرة

أ ـ الشخصية الدينية في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)):

اذا كان الشيخ ((عبد المجيد بو الارواح)) في رواية ((الزلزال)) نموذجا للشخصية الاصلاحية ، فان شخصية ((مصطفى)) في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) ، وهي الجزء الثاني من رواية ((اللاز)) نموذج للصحوة الاسلامية المعاصرة في الجزائر ، والتي ظهرت في مطلع السبعينات ، بينما كان ((الشيخ)) المسؤول الكبير في جبهة التحرير الوطني في رواية ((اللاز)) نموذجا لشخصية المجاهد التي كانت سائدة في ثورة التحرير الوطنية .

وتقع المواجهة الأساسية في هذه الروايات بين الشخصية الدينية ، والشخصية الاشتراكية الشيوعية وعن طريق هذه المواجهة يحاول المؤلف ـ من وجهة النظر الايديولوجية الفنية التي يتبناها ـ تعرية الواقع الاجتماعي بأدوات فنية يتكرر بعضها في الروايات الثلاث ، ويختلف البعض الآخر من رواية لأخرى .

تصور رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي))(1) الصراع الدائر في فترة السبعينات بين الاتجاه الاشتراكي العلمي ، والاتجاه الاسلامي في الجزائر ، هذا الصراع الذي سبق للمؤلف أن لمح اليه في أعماله السابقة . يقول وطار : ((وما كنت ألمح اليه في الستينات والسبعينات ، وحتى الخمسينات ، يطرح نفسه الآن بقوة وعنف ، وهو تيار سلفي محافظ يسود معظم دول العالم الاسلامي ، وها هم الاخوان المسلمون ومن على شاكلتهم ، يدقون أبواب العالم العربي بعنف ليعيدوه الى القرون الوسطى))(2) ، ثم يضيف : ((أعتز بأني أول من نبه الى خطرهم(3) في السبعينات))(4) .

تشتمل رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) على حوالي ثلاثين شخصية روائية ، وتتخذ التطوع لصالح الثورة الزراعية موضوعا لها ، ومن خلال هذا التطوع يظهر الصراع بين هذه الشخصيات الروائية .

يساند معظم الطلبة المتطوعين ـ وعددهم سبعون ـ هذا التطوع ، ويعتبرون الثورة الزراعية قاعدة للتحول نحو الاشتراكية ، ويخالفهم عدد قليل من الطلبة (سبعة طلبة) نذلوا بدورهم تطوعا موزيا ، حاولوا من خلاله الوقوف في وجه الاشتراكية الشيوعية العلمانية ، التي يرون أنها تتنافى مع الدين الاسلامي .

يقول مصطفى ، الذي يتزعم هذه المجموعة الأخيرة : ((لقد جمعنا أنفسنا نحن الطلبة المعادين للشيوعية

---

(1) الطاهر وطار : العشق والموت في الزمن الحراشي (اللاز ، الكتاب الثاني) دار ابن رشد للطباعة والنشر ط 1 1980 ، بيروت .

(2) الطاهر وطار . مجلة الجيل ، نيسان أبريل 1988 ص 89 .

(3) يعني الجماعات الدينية ، وخاصة الاخوان المسلمين .

(4) مقابلة مع وطار مجلة الجيل ، نيسان أبريل 1988 ص 89 .

في كل الجامعات ، واستطعنا أن ننظم تطوعا موازيا لتطوع الحمر ، وانتشرنا في كثير من المناطق [1])) .

تنتمي المجموعتان الى تنظيمين سريين كانا محظورين آنذاك ، وهما الماركسية اللينينية[2]، وحزب الاخوان المسلمين الذي تطلق عليه الرواية حزب الله[3] . وتجد كل مجموعة سندا لها في السلطات الوطنية والمحلية التي يتزعم بعضها مشروع الثورة الزراعية ويسانده ، بينما يعارضها البعض الآخر ، وان لم يجاهر بذلك علنا .

يتزعم المجموعة الأولى من الطلبة (الشريف) ، بينما يتزعم المجموعة الثانية مصطفى . ولكن البطل الأساسي في الرواية هو (جميلة) الطالبة المتطوعة ، والمناضلة الثورية العمالية التي ترمز الى الثورة ، أو الى الحركة الوطنية الجزائرية ككل[4] . ويشترك معها في البطولة ((ثريا)) ، احدى البنات المتطوعات في فوجها و ((الشريف)) قائد الفوج ، ومصطفى ، وعبد القادر ، وحمو ، والشيخ مبارك ، و((اللاز)) البطل الثوري الذي يتحول في الجزء الثاني من رواية ((اللاز)) الى بطل صوفي رمزي . كما يشترك المؤلف ذاته في هذه البطولة بأفكاره ومواقفه التي تدور في ذهن ((جميلة)) ، هذه الافكار والمواقف التي تكتسب منها ، ومن مذكرات (شباح المكي) الواقعية التاريخية وعيا أكبر ، وقدرة على المقاومة والصمود .

— اذا كان لتسمية جميلة دلالة تربطها بالثورة وبالجميلات السابقات ، كجميلة بوحيرد[5] ، وجميلة بوعزة وغيرهما ، فان لتسمية مصطفى ، وهي من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، دلالة واضحة على الشخصيــــة الدينية ، التي تصوغها الرواية على هذا النموذج الروائي .

يقول وطار : ((أتعامل مع أسماء الشخوص (. . .) بتأمل وبحث[6])) . ويضيف بأن ((الأسماء في رواياتي (. . .) مدروسة دراسة متأنية ووجدانية أيضا ، مرتبطة بتكويني ووجداني شخصيا[7])).

— ومصطفى طالب في كلية العلوم ((وأخ مسلم)) يحرص على أداء الصلاة في المسجد ، ينظم مع ستة من الطلبة تطوعا موازيا للتطوع الذي ينظمه أغلبية الطلبة ، في قرية من قرى الريف الجزائري ، يحاول من خلاله أن يقف في وجه المد الأحمر الالحادي كما يقول[8] ، الذي بدأ ينتشر تحت ستار الاصلاحات الاجتماعية ، والتطوع

---

(1) ((رواية العشق والموت في الزمن الحراشي)) ص 65 .
(2) انظر نفس المصـــدر ، ص 144 .
(3) ============== 64 .
(4) انظر مقابلة مع وطار أجرتها يمنى العيد . مجلة الطريق — العدد الثالث والرابع ، آب وأغسطس 1981
(5) من بطلات الثورة التحريرية الجزائرية .
(6) من مقابلة مع وطار أجراها معه عبد العالي رزاقي — مجلة الجيل — نيسان أبريل 1988 ص 90 .
(7) نفس المرجع ص 90/ 91 .
(8) رواية العشق والموت في الزمن الحراشي . ص 39 .

لصالح الثورة الزراعية ، وهو ((مصمم كل التصميم على خوض المعركة))(1) ضد الحمر الملاحيد كما يسميهم (2).

ومصطفى — كما تصفه الرواية — شاب ((رقيق طويل ، نحيف ، محوق العينين ، جاف الشفتين ، كما لو أنه لم يذق طعم للنوم ، هذه ليال عديدة))(3). ((حساس الى حد المرض))(4) ، شديد التحمس والانفعال تتقلص عضلاته ، وترتعد فرائصه ، ويحمر ويصفر ويزورق ، يضحك الى حد البكاء(5) ، ويغضب الى حد الاغماء(6) ويكاد ينفجر عندما يعرض فكرته على غيره(7) ، وهو معقد ، وشاذ ، ينتابه الصرع اثر كل انفعال غضب أو سرور ولا ينتهي هذا الصرع الا بعد أن يمني(8) . وهذه الحالة الشاذة تلازمه وتعاوده لدى كل انفعال يصيبه ومع هذا فان مصطفى — كما تحاول الرواية أن تظهره — شخص متدين ، يلقي الدروس في المسجد ، ويحث أصحابه على الالتزام بأداء الصلاة في المسجد ، والاقتداء في الأفعال والصفات بالصحابة الأجلاء ، ورجال الدين ، ومجاهدي ثورة التحرير ، الذين كان التزامهم بالاسلام سببا في انتصارهم على العدو الفرنسي(9) .

— ينتمي مصطفى كما أسلفنا الى تجمع سياسي سري ، ويصرح بانتمائه هذا فيقول : ((أنا والاخوان الذين معي (. . .) وكثير من الجزائريين النزهاء نظمنا تجمعا سياسيا ، اسمه حزب الله ، قائما على قهر الشيوعيين واقامة حكم الكتاب والسنة))(10) .

وهذا التنظيم يجد التعاطف والتأييد من حزب جبهة التحرير الوطني ذاته ، ومن بعض السلطات الحكومية . يضيف مصطفى بأن ((الحزب معنا))(11) وأن ((السلطة منقسمة على نفسها . شق منها معنا ، أو على الأقل لا يعادينا ، وشق ثان لا يحظى سوى بتأييد الشيوعيين(12) .

كما تجد مجموعة مصطفى الدعم من السلطات المحلية (نائب المحافظ ، رئيس الدائرة ، رئيس المجلس

---

(1) رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) ص 171 .
(2) ========================== ص 39 .
(3) ========================== ص 38 .
(4) ========================== ص 171 .
(5) انظر ==================== ص 130 ، 136 .
(6) ========================== ص 137 ، 138 .
(7) ========================== ص 108 .
(8) ========================== ص 131 .
(9) ========================== ص 101 / 102 .
(10) رواية ==================== ص 1641 ؛
(11) ========================== ص 129 ،
(12) ========================== ص 64 ؛

الشعبي البلدي ، منسق القسمة ، الدرك الوطني ، الامام) . في حين تنتمي بعض العناصر القليلة في مجموعة المتطوعين الآخرين ، الذين يتزعمهم ((الشريف)) الى ((تنظيم ماركسي لينيني سري . . . غير شرعي))[1] بدوره وهذه العناصر القليلة ((تتستر وسط التسميين في الطائفة من باقي المتطوعين))[2]، وتستغل الاصلاحات الاجتماعية التي يقوم بها رئيس الدولة آنذاك ، وتستعين بأنصاره ، وتستند الى تراث النضال الحطلي (شباح المكـي) والتراث الثوري زيدان ، والتجاوب الشعبي العفوي الرمزي (اللاز) ، والواقعي (عبد القادر) .

— وتظهر الرواية العداء الشديد بين الاتجاهين الماركسي والاسلامي ، فتتهم ثريا ، وجميلة ، والشريف والمؤلف ذاته مصطفى ، والحزب الذي ينتمي اليه ، والسلطات التي تسانده ، بالرجعية والاثرة والانانية ، وخدمة المصالح البرجوازية[3] ، في حين يتهمهم هؤلاء الاخيرون بالكفر ، والعمالة للخارج ، والتمعقد بذنب تعاطـــي الحرام[4] .[5]

— يسعى كل اتجاه لأن يضمن لافكاره أكبر قدر ممكن من الانتشار ، فيكون الحقل والمسجد وأماكـــن اقامة الطلبة وبيوت المواطنين ، مسرحا للصراع بين هذه الافكار ، وقد أوشك هذا الصراع أن يصل الى حـــد المشادات الفعلية بالمجارف والمعاول[6] .

وقد حاول مصطفى أن يبث الرعب في قلوب المتطوعات ، فعزم على أن يشوه وجه جميلة بالحامض ، ولكنه يفشل في آخر لحظة ، وينهزم شر هزيمة ، بعد أن يتخلى عنه أصحابه من المتطوعين ، ولا يفلح الا في الحاق جرح خفيف بذراع جميلة ، التي لا تتأثر به اطلاقا . وقد حاول ((بعطوش)) الذي أصبح مسؤولا عسكريا كبيرا مقربا من القيادة السياسية ، أن يعرف المتسبب في هذا الجرح فأجابته بعدم اهتمام : ((جرح بسيط فـي حادث بسيط ، يجب أن لا ينال اهتمام القيادة السياسية))[7] .

ويتزامن فشل مصطفى ، وفراره مخذولا ، مع سقوط ((مسؤول جهاز الحزب من مهامه)) ، كما يتزامن مع عودة الوعي الى ((اللاز)) على منظر الدم النازف من جميلة ، التي استنجدت به عندما هاجمها مصطفـى وبذلك تنتهي الرواية ، وفي هذه النهاية تفاؤل كبير بانتصار الاتجاه الاشتراكي العلمي في الجزائر .

---

(1) رواية العشق والموت في الزمن الحراشي ، ص 144 .
(2) ===================== ص 140 .
(3) انظر الروايـــة ، ص 210 .
(4) ========== ص 77 .
(5) ========== ص 129 .
(6) ========== ص 38 .
(7) الروايـــة ، ص 212 .

يشترك مع مصطفى الشخصية الدينية الأساسية في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراسي)) شخصيات دينية أخرى ، وإن كانت أقل أهمية ، ومنها بوزيد وعلوان اللذان يتصلان سرا بمجموعة الشريف ، ويرصد بوزيد تحركات مصطفى ونواياه ، وينقل أخبارها الى هذه المجموعة ، ومن هذه الشخصيات أيضا شخصية ابراهيم ((طالب الآداب وخريج أحد المعاهد الاسلامية (المشبع) بالعلوم الدينية))[1] وقد حفظ ابراهيم القرآن كاملا في صغره ، وهو ((أحد العناصر التي كان (مصطفى) يعلق عليها أهمية كبرى))[2] ، ولكن الذي حدث هو أن ابراهيم ينفصل عن مصطفى أيضا بعد أن يتعارك معه ، ويفكر بعد ذلك في الاطلاع على (الفكر الشيوعي)[3] ، وقد فضل أحد الطلبة العودة الى داره ((أنا أفكر في العودة الى دارنا))[4] ، ولم يبق مع مصطفى من الطلبة الا واحد فقط . لقد قال هذا الطالب ، ((لن أتخلى عن مصطفى مهما كان الأمر وأنا معه حتى الموت في مكافحة الخطر الأحمر))[5] . ولم تكشف الرواية عن هوية هذا الطالب .

ومن الشخصيات الدينية التي تنحرف عن الاسلام ، شخصية (دنيازاد) والفتاة الهندية ، التي تعرف عليها (عيسى بوعين) عن طريق المراسلة ((فأخلص لها وأقسم أن لا يحب ، وأن لا يتزوج غيرها))[6] ، وهي فتاة مسلمة ابنة تاجر كبير في (حيدراباد) . داوم عيسى على مراسلتها وعرفها تقاليد الهند ودياناتها وعاداتها كما تعلم منها كثيرا من الكلمات الهندية ، وحفظها عن ظهر قلب . ومع أن (دنيازاد) مسلمة في الأصل فانها لا تلتزم بالاسلام . وقد صارحت (عيسى بوعين) بذلك ف ((قالت له مرة ، كل الديانات الكثيرة في بلاد نا معقولة))[7] . وقد جعلتها أحوال المسلمين الاقتصادية المتردية في الهند تشك في دينها وكأنها تعتقد أن الاسلام هو المسؤول عن فقر الهنود المسلمين وبؤسهم ، تقول (دنيازاد) (لعيسى بوعين) في احدى رسائلها بعد أن تستعرض كل الآلهة المعبودة في الهند ، كالقردة ، والابقار ، والفار ، والثعابين ، والاوز ، والغربان : ((أما نحن (تعني الهنود المسلمين) . فماذا نعبد ، وماذا نفسر أن نكون هنا في الهند مسلمين؟ انني أتساءل وأنا أستغفر الله العظيم كثيرا . يبدو لي أننا تخلينا عن هذه الحياة الدنيا ، وتعلقنا بأمل أن نجد كل شيء معدا لنا في الدار الآخرة . وحالتنا الاقتصادية نحن المسلمين في الهند هي أسوأ حال بجميع الهنود على الاطلاق))[8] .

---

(1) الرواية ص 104 .
(2) ============ 137 .
(3) ============ 138 .
(4) ============ ===
(5) ===============
(6) ============ 59 .
(7) ============ 60 .
(8) ============ 60/ 61 .

ونتيجة لذلك فان (دنيازاد) تصارح (عيسى بوعين) بتخليها عن الاسلام ((لاتندهش، انني صرت أميل كثيرا الى العبادة الهندوكية)) [1]. ولا يندهش ((عيسى بوعين)) لهذا التحول، ولكنه يتأثر به ويجاريها فيه، فيبدأ في ترديد شعائر الديانة الهندوكية والعمل بها [2].

ومن الشخصيات الدينية في رواية ((العشق والموت)) الشيخ رضوان، وهو أستاذ بتكميلية في العاصمة ومناضل قديم، كان وهو سجين خلال ثورة التحرير بسجن ((البرواقية)) يصلي ببقية المساجين، ويعلمهم العربية والدين [3]. حارب الشيوعية في داخل السجن، فاشتبك مع (كش) الشيوعي أكثر من مرة، وساهم بعد الاستقلال مع غيره في تأسيس حزب الله، وهو أحد الاعضاء القياديين فيه. وكذلك امام القرية الذي يفسح المجال لمصطفى كي يعرض أفكاره في المسجد، ويستضيفه مع مجموعته للعشاء في بيته مع أعيان القرية لنفس الغرض [4].

وفي المسجد يكون معظم المصلين من العجزة والعاطلين أو التجار، أو بعض المسؤولين الذين يصلون رياء ونفاقا وفي مناسبات معينة فقط. ((كان المسجد شبه فارغ، الامام بعمامته الصفراء وجبته الزرقاء، يواجه المحراب الخشبي، ويتمتم في سره بالذكر، شيخ البلدية، الذي لم يقصد المسجد الا عندما تأكد له قرب اجراء الانتخابات البلدية. خلفه بعض التجار هنا وهناك، يتخللهم شيوخ، يبدو أنهم لم يغادروا أمكنتهم منذ صلاة العصر على أقل تقدير)) [5]. أما ((الجماهير الشعبية)) فـ((انها في حقول الثورة الزراعية، انها في المقاهي تلعب الحجر والورق)) [6].

ان معظم الشخصيات الدينية في هذه الرواية وفي غيرها من روايات وطار تتظاهر بالدين دون التزام حقيقي به، مثل منسق القسمة الذي ((يتظاهر بالدفاع عن الاسلام ... (وهو) أبعد ما يكون عن الاسلام. لا يصلي، لا يعطي صدقة، يسكر)) ويرشو ويرتشي.

تقتصر الرواية على هذه النماذج المنحرفة، ولا تذكر نموذجا واحدا سويا من نماذج الشخصية الدينية الروائية المتعددة في رواية ((العشق والموت)) وغيرها.

والملاحظ أن روايات وطار تذكر الى جانب الشخصيات الدينية الخيالية شخصيات دينية حقيقية باحترام تارة، كالشيخ بن باديس في رواية ((الزلزال))، وباستهزاء وتعريض تارة أخرى كما حصل في رواية

(1) الروايــــــة ص 61 .
(2) انظر الروايــــة ص 63 .
(3) ========== ص 64 .
(4) ========== ص 107 .
(5) ========== ص 103 .
(6) ========== ص 106/ 107 .

((العشق والموت)) مع الشيخ عبد اللطيف سلطاني [1] .

هذه تقريبا معظم الشخصيات الروائية التي تمثل الاتجاه الديني في هذه الرواية . أما الشخصيات التي تمثل الاتجاه الاشتراكي فانها وان كانت لا تنكر الدين فانها لا تأخذ أمره بجد ، ولا ترى أن له علاقة بأمور الدنيا ، كالاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة ، وغير ذلك ، وهي لا تذكر الآخرة أو تستعد لها . وعندما يهتف (الحمر الملاحيد) بحياة الاسلام فليس ذلك عن ايمان حقيقي ، أو حتى بدافع الارتباط العاطفي أو الفكري بهذا الدين ، ولكن هذا الهتاف كان شعارا تكتيكيا لا فشال خطة مصطفى الذي يريد ضرب الثورة الزراعية وسائر المكاسب الاجتماعية ، وابقاء الوضع على ما هو عليه ، ولم يكن ذلك يعني — على أي حال — بأنهم أخلص من مصطفى وأمثاله للدين .

واذا كان هذا هو موقف الطلبة الشباب من الدين ، فان كبار السن الأميين ، رغم احترامهم للدين فانهم أيضا لا يشعرون بأدنى علاقة بين الدين والحياة . فالدين عندهم لا يعني سوى الآخرة ، ولذلك فهم لا يذكرونه الا عند الموت ، فعند مرض الشيخ الربيعي كان حمو الذي يقوم بخدمته ((يأمره بالشهادة)) [2] لأنه ينتظر موته من حين لآخر . وعندما حانت وفاته ((وضاه ورفع المصحف على صدره ، وراح يكرر بين آونة وأخرى شهد ياعمي الربيعي شهد ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمد رسول الله [3])) .

ويقتصر هذا الاحساس الديني على موقف الموت الرهيب الذي ينسى الانسان أو يتناسى أثناءه الحياة الخارجية . ولكنه سرعان ما يعود الى المشاغل الدنيوية التي لا يقيم لها أي علاقة بالشهادة وبالدين كله [4] .

وحتى هذه العاطفة الذاتية التي يجدها الأمي في نفسه يفتقدها المثقفون من ذوي الاتجاه الاشتراكي ، فـ((كش)) يستهزيء بالصلاة [5] . والشيخ (امبارك) مدير التكميلية ، و ((أحد العناصر العالمية المرتبطة بموسكو (. . .) لم يكتف بصبغ داره وسيارته باللون الأحمر ، بل توصل الى حفر المطرقة والمنجل على شاهد قبر أخيه [6])) .

يقول ((الشيخ امبارك)) عن نفسه : ((كانت مدينتي في زمني ، وبفضلي تسمى (موسكو الصغيرة) وهي

(1) انظر الروايـة ، ص 107 .
(2) الروايــة ، ص 99 .
(3) ========== 195 .
(4) انظر الروايــة ، ص 195 .
(5) ========== 154 ، 157 .
(6) الروايــة ، ص 65 .

كذلك حتى الآن ، بل انها الآن ، ستالين غراد [1])).

وليس حظ المرأة من التدين بأكثر من حظ الرجل ، بل ربما كان أقل . فالمرأة الأمية الجاهلة تمارس السحر بأشلاء الموتى ، وتؤله المجانين والدراويش ، وتعتقد في ضررهم ونفعهم . ويختفي الايمان التقليدي الذي لاحظناه عند المرأة الريفية في رواية اللاز الأولى مع بروز المرأة الجديدة ، التي أصبحت في الجزء الثاني من رواية اللاز البطلة الأساسية ، ومحور الأحداث الروائية كلها . فعندما تهتف جميلة الطالبة الجامعية والشخصية الرئيسية في الرواية ـ كما أسلفنا ـ بحياة الاسلام وتتبعها بقية الطالبات بالهتاف والزغاريد فانها لا تفعل ذلك استجابة لشعور ديني ، بل ان ذلك (تكتيك) أفشلت به (جميلة) خطة (مصطفى) الذي كان يبحث عن الأسباب ، ويفتعل المشاكل التي يوقف بواسطتها حملة التطوع ويحول دون أن تنتشر الشيوعية تحت ستار التطوع لصالح الثورة الزراعية .

ان الجامعة في نظر (جميلة) ومثيلاتها هي التي تتيح للفتاة أن ((تتخلص نهائيا من الحجاب [2])) وأن تدخن وتشرب الخمر ، وتتحرر حرية مطلقة في علاقتها بالرجال .

والحقيقة أن هذه الفتاة التي تدخن بنهم وتتذوق ((الويسكي)) وتمارس السهر ، وتسقط الأجنة نموذج منحرف لا يمثل الفتاة الجامعية الجزائرية المسلمة .

واذا كانت رواية ((العشق والموت)) قد مثلت للصحوة الاسلامية بنموذج شاذ منحرف من الرجال هو ((مصطفى)) فانها قد أغفلت نهائيا دور المرأة في هذه الصحوة ، وخاصة الطالبة التي لم تتخلف بدورها عن أن تقوم بدور ايجابي ومشرف في هذه الصحوة .

ب ـ المعالجة الموضوعية الفنية للشخصية الدينية في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) :

تحظى الشخصية الدينية في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) باهتمام المؤلف ، فتتعدد نماذجها الروائية ، وتحتل حيزاً هاما من مساحة النص الروائي . واذا كان مصطفى هو الشخصية الدينية الأساسية في هذه الرواية ، فان هناك شخصيات دينية أخرى كما رأينا . ولا يمكن بأي حال الحديث عن هذه الشخصية الدينية بمعزل عن بقية الشخصيات . كما لا يمكن اغفال الجوانب الفنية في الرواية كلها ، حتى وان كان القصد هو الحديث عن نوع محدد من شخصيات الرواية ، فالنص الروائي نسيج حي متلاحم ، لا يمكن أن نفصل فيه بين شخصية وأخرى ، أو أن نقتطع نموذجا روائيا ، أو ظاهرة فنية لنحكم لها أو عليها بمعزل عن بقية

(1) الرواية ، ص 188 .
(2) ========== 73 .

النماذج أو الظواهر الفنية الأخرى في الرواية .

تشمل رواية (العشق والموت) سبعة وعشرين فصلا وخاتمة[1] ، متوسط هذه الفصول عشر صفحات ، والفصول العشرون الأولى طويلة نسبيا ، بينما تقصر باقي الفصول ، ولكن الأعمال فيها تتكثف وتتلاحق ، ويشتد الانفعال بها وبتوتر ، وتنتهي الرواية بأحداث هامة مثل نجاة جميلة ، وانهزام جب لفي وفراره ، واستيقاظ اللاز .

تتسلسل الأحداث بانتظام عبر هذه الفصول ، ويمتد الخيط الحكائي السردي فيها بدون انقطاع رغم كثرة المعارف الأدبية والتاريخية ، والتحليلات الاجتماعية والسياسية التي تضمنتها هذه الرواية .

وقد خصص الفصلان الثالث عشر والتاسع عشر لمذكرات (شباح المكي) الواقعية ، التاريخية ، التي حاول الكاتب ادراجها ضمن الأحداث الروائية ، وان بقيت مستعصية نوعا ما فلم تندغم في الحدث ، ولم تصبح جزءا من النسيج الروائي الذي يتميز بالوحدة والانسجام ، رغم المعارف المختلفة التي تزخر بها الرواية كما أشرنا .

ولئن ظهرت مقدرة وطار واضحة في هذه الرواية ، كما في غيرها على الاحكام الخارجي للعمل الروائي (تسلسل الأحداث والفصول ، وترابطها) ، فان هذا الجزء الثاني من رواية ((اللاز)) لم يرق الى مستوى الجزء الأول من حيث الانسجام الداخلي والنمو المتوازن المنطقي للشخصيات الروائية والأحداث ، فتغلبت المباشرة والخطاب السياسي على النمو العفوي الفني ، الذي لاحظنا أنه يحكم تطور الشخصية والحدث وتناميهما في رواية اللاز الأولى .

وهذا التفكك الملحوظ في الجزء الثاني من رواية (اللاز) ، لا يعود الى كثرة المعارف العلمية والأدبية والتاريخية في رأينا ، بقدر ما يعود الى عدم نضج تجربة هذه الرواية في ذهن مؤلفها وطار ، فبينما استغرقت فترة التفكير والكتابة للقسم الأول من رواية ((اللاز)) أربع عشرة سنة[2] ، ورصدت أحداث الثورة التحريرية — من وجهة نظر معينة — بعد عشر سنوات من انقضائها[3] ، فان الجزء الثاني الذي نحن بصدده ، قد حاول رصد وقائع معاصرة ، لم يكتمل خدونها ، ولم تتبين معالمها بعد . وقد كان لايديولوجية الكاتب ومعتقداته السياسية وذاتيته التي برزت بوضوح ومباشرة في الكثير من الأحيان أثرها كذلك على هذا الجزء ، حيث غلبت كثيرا من الاحداث الروائية ، وحالت دون المعالجة الفنية الموضوعية لها .

سننظر في بناء الشخصية الدينية في هذه الرواية من خلال أقوالها وأوصافها ، والأحداث التي تقوم بها

(1) الرواية من الحجم الصغير ، وتشتمل على 219 صفحة .

(2) بدأت فترة الاعداد والتفكير في رواية اللاز الأولى سنة 1958 كما يقول المؤلف في المقدمة .

(3) نشرت الرواية سنة 1972 .

بالخصوص دون أن نهمل علاقة هذه الشخصية بغيرها من شخصيات الرواية .

ان مصطفى الذي هو الشخصية الدينية الأساسية في رواية ((العشق والموت)) كما أسلفنا ، يقوم بدور هام في هذه الرواية ، فهو أحد الأعضاء التأسيسيين لحزب الله السري ، كما أنه يتزعم أحد طرفي الصراع في الرواية ، ويحاول على حد زعمه افشال المد الاشتراكي الشيوعي ، الذي يساهم بعض الطلبة المتطوعين والمنتمين بدورهم الى تنظيم سري ، وهو التنظيم (الماركسي اللينيني) في نشره لدى الأوساط الشعبية ، تحت ستار التطوع للثورة الزراعية . فهل وفق وطار في البناء الفني لهذه الشخصية ؟ وهل شخصية مصطفى بالشكل الذي عرضت به في الرواية مقنعة فنيا وموضوعيا ؟ هل يمثل مصطفى فعلا شخصية الرجل المتدين في فترة السبعينات أو شخصية الأخ المسلم بالتحديد كما قصدت الرواية ؟ هل المتدينون في الجزائر عامة ، والاخوان المسلمون كلهم على هذه الدرجة من الشذوذ والانحراف النفسي والخلقي والجنسي ؟ أم أن نموذج مصطفى الروائي يمثل شذوذا لا يقاس عليه ؟ .

الواقع أننا لا يمكن أن نلوم الكاتب على اختيار نموذج بعينه — مهما كان شذوذ هذا النموذج وانحرافه — ولكننا سننظر كما قلنا في مدى الاقناع والتماسك ، والصدق الفني الذي يتوفر عليه هذا النموذج .

تصف الرواية (مصطفى) بالشذوذ النفسي والخلقي والجنسي ، فهل هذا الانحراف نابع من طبيعة هذه الشخصية الروائية ، أم من رغبة الكاتب في أن يكون مصطفى أو غيره من النماذج الروائية بهذا الشكل أو ذاك ؟ .

يرد في أول اشارة الى مصطفى الوصف التالي : ((كان رقيقا ، طويلا ، نحيفا ، محوق العينين ، جاف الشفتين ، كما لو أنه لم يذق طعما للنوم ، هذه ليال عديدة))(1).

وبمقارنة هذا الوصف لمصطفى ((بوصف آخر)) لجميلة — في نفس الحالة ، وبنفس الصفات التي وصف بها مصطفى — يظهر موقف الكاتب بوضوح من شخصياته الروائية .

تصف (ثريا) وهي احدى الفتيات المتطوعات ، صديقتها ((جميلة)) التي لاحظت عليها علامات الشحوب والاعياء بالوصف التالي :

((— كلنا نساء يا جميلة . انك مريضة . عيناك . صوتك . كل شيء فيك . يتحدث على أنك .. آه لو كان براهما(2) — كما تسميه — معنا ، لوجد تعبيرا أدبيا ثوريا لحالك .. سيقول لا محالة . جميلة في حال

(1) الرواية ، 38 .
(2) المقصود ببراهما في الرواية المؤلف ذاته .

الاكتمال ، الاكتمال الأنثوي ، في حال الخصوبة والاستعداد لمد الثورة برفيق صغير ، سيؤلف ولا شك رواية خاصة بهذا الموضوع)).(1)

ونفس الموقف المتعاطف يظهر في وصف ((اللاز)): ((ملامحه جد صافية ، لا تبدو عليه أية أعراض مرضية ، لا تقلص في العضلات ولا شحوبة نتيجة نوبات أو معاناة ، وجهه ممتلئ . اذا ما ابتسم فسيكون أروع طفل على الاطلاق)).(2)

وتصف الرواية مصطفى في موقف آخر بما يلي : ((مرر مصطفى لسانه على شفتيه مرات عديدة ، امتص ريقه أكثر من مرة ، قبل أن تتقلص عضلات وجهه وتحمر عيناه ، ويصفر لونه ، ويزرورق ، وتنتفخ أوداجه .

كان واضحا أنه لن يتكلم فحسب ، وانما سينفجر بكليته ، ليعلن عن الشيء الخطير الذي في نفسه)).(3)

بينما يظهر الحياد نسبيا في وصف شخصيات أخرى في الرواية ، مثل عيسى بوعين أو غيره من الشخصيات التي ليس لها أدوار أساسية في الرواية : ((عيسى بوعين ، أسمر اللون ، دقيق الأنف ، عريض الفم ، أحمر الشفتين)).(4)
((ثريا ، ضاربة الى السمرة ، نحيلة ، لكنها قوية العضلات ، وجهها طويل ، وأنفها دقيق . . .)).(5)

ولا يظهر موقف الكاتب في الوصف ، بقدر ما يظهر في الادانة اللفظية لمصطفى وبقية الشخصيات الدينية في الرواية ، ورغم أن هذه الادانة تأتي أحيانا في سياق الحوار المتبادل بين شخصيات الرواية ، ولكنها تبقى مع هذا أقرب الى المباشرة والوصف الخارجي منها الى الدلالة على طبيعة الشخصية ، ومن أمثلة ذلك في الرواية ما يلي : ((مصطفى رجعي ، يعمل لحساب عناصر مضادة للثورة . . .))(6) ، ((أيها الرجعي الخسيس ، انك تتآمر مع الشياطين ، ضد الوطن ، وضد مصلحته))(7) ، ((انك ضد الثورة الزراعية))(8) ، ((انك (. . .) تخدم أهداف المالكين المحتكرين ، والأغنياء ، وكبار التجار))(9) ، ((انك ضد وحدة الشباب والتلبة . .))(10) ، ((أتعرف الدين ؟ أيعرف الدين أحد مثلك أيها الوغد . . . ؟))(11) ، انك مجنون ، دموي ، جبان ، أناني . . .))(12) انك ((ثاني))(13)

---

(1) الرواية ص 70 .
(2) ======= ص 26 .
(3) ======= ص 108 .
(4) رواية العشق والموت ، ص 57 .
(5) ============= 103 .
(6) ============= 68 .
(7) ============= 102 .
(8) ============= 102 .
(9) ============= 102 .
(10) ============= 102 .
(11) ============= 137 .
(12) ============= 137 .
(13) ============= 136 .

الى آخر هذه النعوت، والأوصاف المباشرة في الرواية .

مثل هذه الأوصاف السلبية التي تطلقها الرواية على ((مصطفى)) وسي منصور، والشيخ رضوان وغيرهم من الشخصيات الدينية، يقابلها صفات ايجابية، بل مديح مباشر للشخصيات التي تعبر عن اتجاه الكاتب في الرواية، فجميلة تفضل نفسها في حوار ذاتي لها على كل بطلات الثورة التحريرية : ((تساءلت: وما جميلة بوحيرد، ما كل جميلات الخمسينات، لسن سوى نساء بسيطات في مجتمع بسيط . . .))[1]، وهي تعتقد بينها وبين نفسها أن الافكار الشيوعية التي تحملها وتشارك في نشرها أهم وأخطر من القنابل التي كانت تحملها نساء الثورة التحريرية ((حمل قنبلة في الحقيبة اليدوية غير حمل فكرة عقائدية راسخة))[2]، وكأن هؤلاء النساء كن يتعرضن للموت بدون أية فكرة يحملنها ؟ !.

وتوضح الرواية هذه المفاضلة بطريقة مباشرة، فتقول : ((جميلة الثورة الوطنية كانت تكافح في واجهة واحدة، بل كانت تدافع عن نفسها (. . .) لا غير . أما جميلة الثورة الديمقراطية الشعبية، فتكافح في واجهات لا حصر لها . انها تهاجم، وهذا ما يميزها ويقدسها عن باقي الجميلات . .))[3].

وهذا وصف خارجي مباشر بغض النظر عن مدى صحته، وفي هذا السياق يقول الشيخ مبارك عن نفسه مجيبا ((جميلة)) التي سألته عن مذكراته، وهل سجلها : ((مذكراتي رجال يسيرون، اطارات، فلاسفة وأساتذة، وأبناء تخرجوا على يدي . كانت مدينتي في زمني، وبفضلي، تسمى ((موسكو الصغيرة)) . وهي كذلك حتى الآن، بل انها الآن ((ستالينغراد))، سيكتبون هم مذكراتي، بنضالهم، وسيقرؤها التاريخ ذات يوم))[4].

وهذا الافتخار والمديح المباشر تثبته الرواية للمؤلف ذاته، الذي يصبح بدوره شخصية حاضرة الوجود في وعي البطلة الاساسية جميلة وفي فعلها . ومما جاء في وصفه أنه ((كان عبقريا حقا))[5] . ((كان شموليا وكان ذكيا))[6]، ((يستحيل أن تمحى آثاره))[7]، ((لقد حارب الرجعية من داخلها ولفتها))[8]، كما تشبهه الرواية بالأدباء الكبار ((هو بابلو نيرودا))، ((أما أنا ففنان، ويوم أفعل ذلك ينتهي زمن نبوءتي، وأفعل ما فعله

---

(1) الروايـــــة، ص 78 .
(2) ============ .
(3) =========ص 79 .
(4) =========ص 188 .
(5) =========ص 141 .
(6) ============= .
(7) =========ص 43 .
(8) =========ص 43 .

ما ياكوفسكي ، وهمنغواي ، وكامي ، وكاتب يا سين))[1] . وتشبهه بالرؤساء كذلك ((انه مثلي))[2] ، والمقصود الرئيس الراحل هواري بومدين ، الذي تقول الرواية أن المؤلف يتحداه ((كان علي أن أتحداه ، بحكم ممارسة الكتابة وبحكم تواجدي السياسي معه ، وأيضا بحكم يساريتي التي لا يمكن أن أتطهر منها كفنان ، محكوم عليه بالتوق الى الأمثل فالأمثل))[3] ، بل ان الرواية تصل بالمؤلف الى حد بعيد من تعظيم النفس ، حينما تشبهه بالآلهة ، وتطلق عليه اسم ((برهما)) وتجعله يضر وينفع الناس ((هو الذي ينفع ويضر الناس))[4] .

لقد أصبح المؤلف هو محور الرواية والبطل الرئيسي فيها بدل جميلة ومصطفى وبقية الشخصيات . وقد تجاوز الحديث عنه أو الاشارة اليه في الرواية الثلاثين مرة[5] .

ومن مظاهر التمييز في الرواية — أيضا — بين الشخصيات الروائية الكراهية الواضحة ، والحقد على ((مصطفى)) ومن يسانده[6] ، والعطف على جميلة وأفراد فوجها ، وعلى المؤلف ذاته ، واظهارهم بمظهر المساكين والأبرياء والضحايا ، الذي يحتاجون الشفقة والعطف عليهم .

وهذه الصفات يكتسبونها من خلال الحركة والحدث ، ولا تفهم من حالهم في سياق النص الروائي بقدر ما تظهر من خلال أقوال مباشرة ، وأوصاف خارجية كذلك ، فـ((اللاز)) الذي تؤلهه الرواية وتقدسه مسكين[7] وجميلة ((المسكينة ، مسكينة (ولية) وغريبة . . .))[8] ، والطلبة أشقياء ومساكين[9] ، والطالبات مسكينات[10] ، و((الهواري مسكين))[11] و((الطاهر وطار المسكين))[12] ، ضحية ، شهيد[13] ((بين المطرقة والسندان))[14] ، ((الوحيد الذي عليه

---

(1) الروايـــــة ، ص 29 .

(2) ========== 44 .

(3) ========== 145 ؛

(4) ========== 44 ؛

(5) أنظر الصفحات : 21 ، 22 ، 27 ، 28 ، 29 ، 30 ، 31 ، 41 ، 43 ، 44 ، 45 ، 46 ، 49 ، 50 ، 52 ، 54 . 56 ، 70 ، 78 ، 141 ، 142 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 148 ، 150 ، 184 ، 186 ، 192 ، 219 الخ . .

(6) انظر ص 16 من هذا البحث ؛

(7) انظر الرواية ، ص 8 ، 12 ، 20 ، 24 ، 25 ، 26 الـــخ . .

(8) الروايــــة ، ص 20 ؛

(9) انظر الروايــة ، ص 92 .

(10) ========= 177 .

(11) الروايـــــة ، ص 117 .

(12) ========= 148 .

(13) انظر الرواية ، ص 49 .

(14) الروايــــة ، ص 148 .

الحجة التي يشنق ، ويذبح ، ويسلخ ، ويقلى في الزيت بسببها ألف مرة دون أن يشفي غليل الوحشية)) [1] .

ان هذه الاقوال ، و هذه الكيفية في سرد الحقائق والافعال ، وذكر الصفات تجعل الرواية أقرب الى المقال النظري ، أو التسجيل المباشر لأحداث واقعية ، وهي دون شك الى العمل الفني .

ان كراهية الكاتب لما يمثله ((مصطفى)) و((الشيخ رضوان)) و((سي منصور)) وغيرهم من أنانية وانتهازية شديدة ، ولكن هذه المشاعر لم تظهر من خلال القيم الفنية في الرواية كما لاحظنا . كما أن الكاتب يتوسع في عرض الافكار التي يدعو لها ، ويدعمها بالشواهد والمراجع ، بينما لا يعرض بنفس الكفاية لأفكار الطرف المقابل واذا ما عرضها فان ذلك يكون بطريقة ساخرة . حاول مصطفى أن يقنع أصحابه بفكرته : ((فهددهم بغارات شرزة مخيفة ، وبرر : المسلم يجب أن يكون مسلما كاملا ، وترك الصلاة من الكبائر . . . ان ثورتنا المسلحة لم تتمكن من تجنيد الشعب الا بالاسلام . لقد كان الثوار يحملون لقب المجاهدين ولايزالون . المعارك كانت تبدأ بالتكبير . . . تماما مثلما كان الامر في معركة بدر أو أحد أو اليرموك ، بذلك فقط انتصر الشعب الجزائري المسلم العربي على الكفار . . .

. . . نحن أشبال المجاهدين الذين حرروا الوطن . . . وعلينا أن نتحلى بجميع صفاتهم ، وجميع قيمهم ، والمثل العليا التي استشهدوا — رحمهم الله — من أجلها . . .

ان صرخة الامام ابن باديس شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب ، ستظل داوية عالية حتى يوم الديـن)) [2] .

تعرض الرواية لهذه الأقوال الصادرة عن مصطفى باستهزاء كما نلاحظ ، ومع هذا تسرع الى الرد عليها على لسان ((بو زيد)) أحد أعضاء فوج مصطفى ((الذي أعلن عن ولائه لثريا)) [3] ((اليسارية الاستعجالية)) [4] وعزم مع علوان الذي يفكر ثريا أيضا ، ويحبها لسبب لا يدريه [5] ! على الالتحاق بفوج جميلة . ونلاحظ أن هذا الرد لا يكون على الافكار المعروضة ، بل على مصطفى ذاته وصفاته السيئة . يقول بوزيد : ((انك ضد الثورة الزراعية . . انك . . . تخدم أهداف المالكين المحتكرين ، والاغنياء ، وكبار التجار ، انك ضد وحدة الشباب والطلبة ، أيها الرجعي الخسيس انك تتآمر مع الشياطين ضد وحدة الوطن ، وضد مصلحته)) [6] .

(1) الروايـــــة ، ص 43 .

(2) ============ 101 ، 102 .

(3) ============ 102 .

(4) ============ 144 .

(5) انظر الروايـــة ، ص 103 .

(6) الروايـــة ، ص 102 .

بهذا يرد بوزيد في سره على مصطفى ، وكأن انحراف شخص بعينه ، أو فئة معينة سبب كاف لرفض ماضي الجزائر الثوري وانتمائها العربي الاسلامي .

وقد كان ابراهيم ، بحكم رزانته ، وسيرته الحسنة ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتشبعه بالعلـــوم الدينية مؤهلا لأن يقوم بدور ايجابي في تمثيله للشخصية الدينية بدل مصطفى الطالب الشاذ الخلق والتصرف ولكنه يتحول فجأة الى التفكير في الشيوعية[(1)] ، ويتخلى أيضا عن فوجه ، ويحاول الالتحاق مثل سابقيه ((علوان)) و ((بوزيد)) بالفوج الآخر ، الذي يتزعمه طلبة شيوعيون ، وهكذا يتتابع الطلبة في التخلي عن ((مصطفى)) حتى يجد نفسه وحيدا .

والواقع أنه اذا كان ((مصطفى)) هذا شاذا ومنحرفا ، يستغل الدين ، ويتستر به لتحقيق مآرب وأهداف غير شريفة ، فانه ليس نموذجا للمتدينين عامة ، ولشباب الصحوة الاسلامية خاصة في الجزائر أو في غيرها .

ان الرواية لاتعرض الفكرة الاسلامية التي تناقشها بموضوعية ، وتشرح موقفها وطريقتها في حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بما فيه الكفاية . انها تكتفي بادانة الاشخاص المنحرفين المستغلين للدين ، وهذا يوحي بعدم صلاحية النظرية الاسلامية الاجتماعية الاقتصادية بالأساس ، لأن الدين - في أحسن الأحوال - اعتقاد شخصي ، ولا علاقة له انطلاقا بكل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وانطلاقا من هذا فان الرواية ترى أن حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لا يوجد في غير الاشتراكية العلمية . ولهـــذا فانها تغرق في شرحها وايراد الشواهد والأمثلة على صحتها .

تقول الرواية عن الرئيس الراحل هواري بومدين : ((واذا ما طبقنا عليــه قوانين المفهوم المادي للتاريخ فسنجد أنه أكثر من يعمل على تحطيم الزمن الحراشي ، فبتوسيعه للصناعة يفتح المجالات الحقيقية للانقلاب السياسي ، في كل البناء الفوقي الهائل . ويحدث التفاعل الاجتماعي الكبير ، ويضفي طابع الثورة على ما يجري في بلادنا منذ الخمسينات[(2)])) ، وهذا ترديد واضح ومباشر لأفكار النظرية الشيوعية .

ولا تكتفي الرواية بهذا فقط ، ولكنها تضيف بعد هذا مباشرة المقولة الماركسية التالية وتضعهـــا بين قوسين ((.. ليس ادراك الناس ، هو الذي يعين معيشتهم ، بل على العكس من ذلك معيشتهــم الاجتماعية ، هي التي تعين ادراكهم ، ومع تغير الأساس الاقتصادي ، ينفتح عهد الثورة الاجتماعية ، ويحدث الانقـــلاب[(3)])) .

---

(1) انظر الروايـــة ، ص 138 .

(2) الروايـــــة ص 145 .

(3) ======== ص 145 .

وحتى في حديث النفس المغرق في الذاتية عادة ، تسرد مثل هذه الأفكار المباشرة . يدور الحديث التالي في ذهن الشريف : ((علينا أن نركز جهدنا الكامل على افهام الفلاحين الذين نتصل بهم ، بأن القول أننا في مرحلة الاشتراكية خطر يضر أساسا الاشتراكية . وعلينا أن ننبه أصدقاءنا الى ضرورة التراجع عن الخطأ الاستراتيجي ، الذي تجرنا اليه الرجعية ، ألا وهو التباهي والتأكيد بأن الجزائر طبقت الاشتراكية وهي تحياها[(1)])).

ان مثل هذه الأقوال المباشرة ، وهي كثيرة في الرواية[(2)] ، لم تفسح المجال للصراع الفني الداخلي ، الذي يدور في ذات الانسان ، أو الخارجي الذي يقع بين الشخصيات الروائية .

ان الرواية قد اقتصرت على نعت مصطفى بالرجعية والعمالة ، والشذوذ النفسي والخلقي ، واكتفت بوصف التشنجات الخارجية لهذه الشخصية ، دون أن تتعمق أحاسيسها الداخلية ، كما حصل مع شخصية ((الشيخ عبد المجيد بو الارواح)) في رواية (الزلزال) ، وهي أيضا شخصية دينية اصلاحية ، فقد أخذت حقها من عناية الكاتب الذي كشف عن الصراع المرير الذي تعانيه[(3)] ، وهي تسير نحو مصير محتوم لا تريده لنفسها وان بقي هذا الصراع محكوم بفكرة ايديولوجية ، أكثر من كونه نابعا من طبيعة انسانية .

ولا يعود التقصير في تصوير هذا الصراع الداخلي والخارجي على السواء الى كون ((الشيخ عبد المجيد بو الارواح)) بطلا أساسيا في رواية أحادية الشخصية ، بقدر ما يعود الى المباشرة ، والخطابة التي كثرت في رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) . والدليل على هذا أن ((بعطوش)) و ((قدور)) و((رمضان)) ليسوا أبطالا أساسيين ، مثل ((اللاز)) أو ((زيدان)) ، ومع هذا فقد كشفت الرواية عن الصراع النفسي الانساني الذي يدور في ذهن كل منهم ، وهو يواجه العالم الخارجي ، ويمر بمواقف انسانية متناقضة ، من ضعف وقوة وجبن وشجاعة ، وحب وكره الخ ...

لقد أدى انحياز الكاتب الواضح الى نماذج معينة في الرواية ، وتعاطفه معها ، وكراهيته لنماذج أخرى ، ووقوفه ضدها الى التخفيف من حدة المواجهة ، ف((لا نظفر في رواية (العشق والموت) بمستوى غني من الصراع الدرامي ، اذ انحصرت الخلافات في مجرد مناقشات بيزنطية مراهقة[(4)])) . ثم ان مشاعر التعاطف والكراهية هذه قد كشفت عن نفسها بطريقة مباشرة فجة ، ولم تجد أغلفتها الفنية الملائمة ، وهوما أخل

---

(1) الروايـــــــة ، ص 115 .

(2) انظر الرواية ، ص: 21 . 29 . 31 . 33 . 38 . 55 . 69 . 81 . 96 . 107 . 115 . 117 . 134 . 141 الى 145 . 159 . 184 . 185 . 187 . 188 . 198 . 199 الـــخ ...

(3) نفى بعض النقاد الصراع في رواية الزلزال التي قالوا عنها أنها وصف لحالة قارة . وبينا أن الصراع موجود فعلا ولكنه داخلي يدور في نفس بطل الرواية . انظر الصفحة وما بعدها من الفصل الأول .

(4) سيد حامد النساج : 1982 ، المجلد 2 ص 260 .

بالمعادل الموضوعي في هذه الرواية ، وجعل هذه المشاعر المختلفة تطغى على الأدوات الفنية وتتجاوزها كما أسلفنا .

ورغم هذا فان الياس خوري يبالغ حينما يقول ان وطار يدمر أعماله الفنية بخطابه السياسي والايديولوجي (1)

والحقيقة أن هناك سببا خاصا برواية (العشق والموت) أشرنا اليه سابقا ، جعلها بهذا الشكل دون غيرها من الروايات ، وهو التسرع في الكتابة الأدبية عن أحداث معاصرة لم تتبين معالمها بعد بما فيه الكفاية . فقد قال عن هذا الجزء من رواية ((اللاز)) : ((انه يخلو من التشويق . انه مليء بالابهار بواقع صعب ، واقع احتدام بين قوة يمينية وقوة يسارية)) (2) ، وهو ما يؤكد ما قلناه من تسرع في الكتابة عن واقع معاصر لم تتبين معالمه بعد ، ومن المبررات التي أوردها الكاتب أيضا ، أن هذا الجزء (3) من رواية ((اللاز)) ((يكاد يكون عملا جزائريا محليا)) (4) ، وهذه ليست حجة كافية في الحقيقة لرد الملاحظات الكثيرة التي وجهها النقاد لهذه الرواية ، لأن الابداع الفني الأصيل الذي يكتب له الخلود ، هو الذي يرتقي بالعمل المحلي الى الانساني العالمي .

ان ((الطاهر وطار اذا كنا لا نشك في امكاناته الجمالية والفكرية ، فهو (كذا) (5) لم ينج من هذه الحالة ذات الطابع السلبي ، التي تقرب العمل الروائي من السياسة أكثر مما تقربه من الفن ، خصوصا عندما يتناول الطاهر وطار الوضع السياسي والاجتماعي الذي صاحب فترة السبعينات)) (6) . ((ولعل الموضوعات المتشابكة والسياسية المباشرة لواقع أكثر تشابكا ، هي التي أدت بهذه الرواية الى أن تنحو منحى سياسيا مباشرا في الكثير من الأحيان ، الأمر الذي جعلها تفتقر الى كثير من المقومات الجمالية ، التي تجعل من الأدب أدبا بدون أن يفقد ذلك علاقتها بالسياسي)) (7) .

— أشرنا فيما سبق الى بعض الجوانب الفنية في رواية ((العشق والموت)) التي تتعلق على الخصوص بالشخصية الدينية وعلاقتها بغيرها من الشخصيات ، وسنورد فيما يلي بعض الملاحظات المتعلقة بجوانب فنية أخرى مشتركة بين شخصيات الرواية كلها ، وسوف لن نخصص لها مباحث مستقلة كما فعلنا في الفصلين الأول والثاني ، حتى لا نضطر الى تكرار ما قلناه ، بل سنقتصر على ذكر الملاحظات التي تخص رواية ((العشق والموت)) التي نحن بصدد الحديث عنها .

---

(1) انظر الياس خوري : الذاكرة المفقودة ، ص 183 .
(2) من حوار أجرته يمنى العيد مع الطاهر وطار — مجلة الطريق — العدد 3/ 4 ، 1981 ، انظر ص 194 . 195
(3) ============================== ص 197 .
(4) ============================== ص 197 .
(5) كلمة (فهو) زائدة هنا ، ربما أضيفت سهوا .
(6) د . الأعرج واسيني : تطور ملامح البطل في الرواية الجزائرية ، رسالة دكتوراه ، جامعة دمشق 84/ 85 .
(7) نفس المرجع ، ص 419 .

يحافظ وطار في هذه الرواية على أسلوبه الخاص به في الكتابة الروائية، فيستخدم الأشكال اللغوية المختلفة بطريقة محكمة كما أشرنا من قبل[1]. وقد حاول وطار أن يخفف من حدة الموضوعية والجفاف في لغة ... فاستخدم الأسلوب الشعبي في بعض مقاطع الرواية[2]، كما ضمن هذه اللغة أشعارا لبابلونيرودا، سميح القاسم ما يا كوفسكي وغيرهم، كما استخدم لغة السيرة الذاتية في مذكرات الشباح المكي الواقعية التاريخية[3]، التي أوردها الكاتب كما هي، مع تفصيح بعض الكلمات الدارجة، وتصحيح الأخطاء اللغوية، واستعان كذلك بلغة الهذيان المشبعة بالرموز[4]، واللغة الشعبية الحافلة بالأساطير والاعتقادات الغيبية الخاطئة[5]. ومع هذا فقد جاءت لغة ((اللاز)) الثانية تقريرية ومباشرة في معظمها، ومثقلة بالمعارف العلمية والاستشهادات التي تذكر فيها المراجع بدقة كما يقع في البحوث[6].

ولم تخل لغة اللاز الثانية من أخطاء في التعبير، كالتقديم، والتأخير في الجملة ((انه يكتسب يوما فيوما القداسة))[7]، ((لقد كان — حقا — المستبدون لا زالوا يمرأد قمع الفقراء فقرا))[8]. والثقل ((لكن اللاز كان مستسلما لقوة، لا بد من تقدير، أنها تفوق قوة جميلة المريضة التعبة ألف وألف مرة))[9]، والتنافر في استخدام الأزمنة ((البنات استغرقن في التدخين والاستماع الى مذكرات الشباح المكي الأوراسي، ويحتسين القهوة والشاي، والنقيع))[10]. وطول الجملة ((لم يشأ أن يخبر ابن أخيه الواقف الى جنبه في انتظار أن تتمكن الحافلة من القدوم لتقله الى المدينة ليواصل دراسته الجامعية))[11].

ومن الأخطاء في هذه الرواية ما يتعلق بالكلمة، مثل ((تنطرح))[12] بدل تطرح، و ((يشكي))[13] بدل يشكو و ((أشعر))[14] جمع شعرة بدل شعور، و ((أزبلة))[15] وهو جمع لم يعرف لـ (زبل).

(1) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص22 وما بعدها، والفصل الثاني منه ص70 وما بعدها.
(2) انظر مثلا ص174، 175 من الرواية.
(3) انظر الرواية ص120 الى 128 و 180 الى 187.
(4) انظر الرواية ص16 و ص194، 195.
(5) انظر الرواية ص84 الى 91.
(6) انظر الصفحات 43، 54، 55، 60، 63، 66، 72، 94، 145، 148.
(7) الرواية ص 11.
(8) ======== 36.
(9) ======== 55.
(10) ======== 128.
(11) ======== 11.
(12) ======== 71.
(13) ======== 146.
(14) ======== 130.
(15) ======== 199.

وقد وردت أخطاء كذلك في استعمال حروف الجر ، ومنها : ((انني أضمن به سيدي الحاكم))[1] بدل أضمن فيه ، و ((استسلم الى النوم))[2] بدل استسلم له ، ومثل هذه الأخطاء لا يعود بالتأكيد الى جهل وطار للغته التي يكتب بها ، وقد سبق أن لاحظنا أن من أهم ميزات وطار الفنية مقدرته على استخدام العربية وتمكنه منها ، ولكنها تعود الى التسرع والعجلة في كتابة هذه الرواية دون غيرها من الروايات ، وهذه الأخطاء لا تسيء على كل حال الى لغة وطار الروائية السلسة الفصيحة السليمة في معظمها من الأخطاء المختلفة.

ومن مميزات لغة وطار كذلك ما أشرنا اليه في الفصل الأول بالخصوص من مقدرة على تفصيح الدارجة وتبسيط الفصحى ، لكنه في أحيان قليلة جدا يستعمل الدارجة عندما لا يجد الكلمة أو العبارة الفصيحة الفنية التي تعبر عن مقصده . وغالبا ما يكون هذا في الحوار ، ومن ذلك ما ورد في أول جملة في رواية ((العشق والموت)) : ((المقعد الأمامي أرتح))[3] بدل أريح ، أو أكثر راحة ، أو أنسب ، أو غيرها من المفردات الفصيحة التي لم يجد الكاتب أنها تفي بالغرض الفني الذي يقصده ، في كلمة ((أرتح)) الدارجة ، مع ملاحظة أن هذه الكلمة من أصل فصيح ، فهي من الفعل (ارتاح ، ارتياحا) ، ولكن الدارجة تصوغ من هذا الفعل فعل التفضيل أرتح ، الذي لا تجيزه الفصحى ، ومن هذا القبيل كلمة (بردان)[4] المصوغة من فعل (برد) على وزن فعلان ، وكلمة (حقرة)[5] بدل حقرا أو حقارة ، وكلمتا ((الحركية))[6] و((القومية))[7] اللتان تطلقان على المتعاونين مع الاستعمار الفرنسي . واستعمال الدارجة في جملة أو عبارة بكاملها أقل بكثير من استعمالها في كلمة ، وغالبا ما يكون ذلك في الأمثلة الشعبية التي لا تخلو منها رواية من روايات وطار[8] . ومن هذا الاستعمال في غير الأمثلة الشعبية العبارة التالية : ((طل علينا يا الهواري طل ، الضرب حرش))[9] . وقد وردت هذه العبارة على لسان (عبد القادر) الفلاح الأمي ، وهي قريبة من الفصحى في الصياغة ، وألفاظها محرفة ، ولكنها فصيحة في الأصل .

ومن الجوانب الفنية التي لا بد من الاشارة اليها هي الرمز ، ومدى توفره وفنيته في رواية ((العشق والموت))[10]

(1) الروايـــــــــة ص 121 .

(2) ========== 128 .

(3) ====== ====== 5 .

(4) =========== 16 ، 17 .

(5) =========== 26 .

(6) =========== 201 .

(7) =========== 202 .

(8) انظر في هذه الرواية الصفحات : 29 . 133 . 157 . 160 . 162 . 170 . 176 .

(9) الروايـــــــة ص 66 .

(10) سبق أن أشرنا في الفصل الأول الى استعمال القرآن والحديث عند وطار استشهادا واقتباسا ، وقد تكرر هذا الاستعمال بنفس الكيفية في رواية (اللاز)2 . انظر الصفحات : ((11 . 102 . 106 . 107 . 108 . 110 . 131 . 169 . 171)) .

وعلاقته بالشخصيات الروائية ، وبالجانب الديني الذي هو من اهتماماتنا في هذا البحث .

يعتقد الكاتب أن ((اللاز في الروايتين هو رمز للشعب الجزائري بالذات ، وربط الى مختلف الشعوب)) [1] كما يقول هو نفسه ، ثم يضيف أن ((اللاز في الكتاب الثاني أكثر ثراء من اللاز في الكتاب الأول . اللاز الأول كان مسطحا الى حد ما ، صحيح أنه قام بأعمال كثيرة ، ولكن الثاني دفع غيره للقيام بأفعال كثيرة ، وظل يشع كالشمس)) [2] . سوف لن نتحدث عن الرمزية في الجزء الأول من رواية اللاز ، لأنا فعلنا هذا في حينه [3] ، ولكننا سنناقش مدى رمزية ((اللاز)) وفنيته في رواية (العشق والموت) التي نحن بصددها ، وهي الكتاب الثاني الذي أشار اليه المؤلف في مقولته السالفة الذكر .

لقد سعى الكاتب لأن يجعل من شخصية ((اللاز)) في رواية ((العشق والموت)) رمزا صوفيا للمجتمع بكل فضائله ومثالبه ، من قوة ، ونبل ، وتضحية ، وبؤس ، وأمية ، وجهل ، وفقر في ذات الوقت ، وقد عبر استيقاظ ((اللاز)) بعد أن بقي فاقد العقل لسنوات عديدة عن عودة الوعي للشعب الجزائري الذي كان يفتقده قبل ذلك . ولكن هذا الرمز (لا يستثير العقل الا بتعب ومشقة) [4] ، لأسباب عديدة أهمها طابع المباشرة في الحديث عن الواقع الاجتماعي والسياسي المعاصر ، الذي رصدته الرواية . وقد أشرنا قبل قليل الى أن الكاتب قد أرجع خلو هذا الجزء من التشويق الى الانبهار بواقع الصراع الاجتماعي والثقافي المحتدم بين مختلف القوى الاجتماعية [5] . وقد كان الكاتب يشعر بضرورة المساهمة الايجابية في هذا الصراع من وجهة النظر التي يتبناها ، وأن يوصل ما يعتقد أنه الحقيقة الى أكبر قدر ممكن من القراء بمثل هذا الأسلوب الروائي المبسط في رواية ((العشق والموت)) الذي رآه مناسبا لهذا المقام ، فعبر عن مضمون الرواية بالمباشرة التي لاحظناها ، ولم يتردد في القول المباشر والاستشهاد ، بل وفي شرح رمز ((اللاز)) في ثنايا الرواية ذاتها [6] .

والواقع أننا يمكن أن نفهم أحداث الرواية ومضمونها بدون شخصية ((اللاز)) التي ليس لها تأثير كبير في هذا الجزء الثاني ، وليس لها كل هذه الدلالات الرمزية التي ينسبها الكاتب اليها .

ثم ان بعض المبالغات التي وصف بها ((اللاز)) يصطدم بوجدان القارئ المسلم الذي يقرأ لكاتب مسلم ، وتسيء الى الدلالة الرمزية والدلالات الفنية الأخرى ، فالرواية تقول عن ((اللاز)) أنه لا ينطق

---

(1) من حوار أجراه فيصل دراج مع وطار : حوار في علاقات الثقافة بالسياسة ، ص 97 .
(2) == .
(3) انظر الفصل الثاني من هذا البحث ، ص 68 وما بعدها .
(4) فيصل دراج : حوار في علاقات الثقافة والسياسة ، ص 109 .
(5) انظر الصفحة 23 و 24 من هذا الفصل .
(6) انظر الرواية ، ص 27 و 28 .

عن المهـــدي))[1] ، وتشبيهه بالأنبياء[2] ، بل وتصل الى حد الشرك بالله بأقوال واعتقادات تفوق بالتأكيد ما تقوله وتعتقده النساء الجاهلات الأميات ، اللواتي تصفهن الرواية وهن يتوسلن ((باللاز)) لكي تقضي حوائجهن وفيما يلي بعضها ورد على ألسنتهن وهن في حضرة ((ولي الله)) الـــلاز !!: ((الملائكة تسبح لك والروح الجن والعفاريت تخدمك مطيعة ذليلة ، والنجوم والكواكب تنتظر كلمة منك لتحلن ساعة الفناء ؛

يا من لم يكن لك أب أو ولد ولا أم ولا سند))[3] ، ((ارحمني يا من لا يرحم سواك . أغنني فاني مستجيرة بك))[4] ، ((يا سيدي اللاز . يا من كنت قبل أن تكون الأرض))[5] ، ((نطلب منك الرحمة يا صاحب الرحمة))[6] ((جئت أقصد وعزك ورحمتك))[7] .

ولعل الكاتب قد قصد بهذه المبالغات أن يرمز الى قوة الشعب الذي قال أن ((اللاز)) يرمز اليه ولكن هذه المبالغات لم تؤد الغرض الفني منها على الوجه الأكمل في اعتقادنا ، لأنها تصطدم مع الايمان بالله ، الذي لا يمكن أن نجرد منه أي قارئ عربي مهما كان حظه من التدين ، ولهذا الايمان علاقة دون شك بالذوق الفني ، والأدبي خاصة ، وقد يكون لمثل هذه الأوصاف حظ أكبر من التجاوب الفني لدى القارئ الأوربي أو الآسيوي مثلا ، لضعف الاحساس الديني عند هذه الشعوب ، ولهذا السبب لم يجد الأدب اليوناني وآداب الأمم الأخرى الحافلة بالأساطير وتعدد الآلهة اهتماما يذكر عند ترجمة المعارف المختلفة الى العربية في قمة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية . وأعتقد أن هذا النوع من الأدب غير قادر اليوم كذلك على مخاطبة الوجدان الفني للقارئ العربي خاصة مع ظاهرة الالتزام بالدين الاسلامي والعودة الى منابعه الأصلية .

واذا كانت شخصية ((اللاز)) رمزية ، فان بقية الشخصيات في رواية ((العشق والموت)) واضحة الدلالة على الفئات الاجتماعية التي تنتمي اليها ، وعلى تنوع الاتجاهات داخل هذه الفئات نفسها .

ان مصطفى والشريف وثريا وبوزيد وابراهيم وغيرهم طلبة ، ولكن كلا منهم يمثل اتجاها بعينـــــه ((فمصطفى)) يمثل شخصية الطالب الذي ينتمي الى الصحوة الاسلامية المعاصرة ، و ((الشريف)) ينتمي الى الاتجاه الشيوعي ، و ((ثريا)) شيوعية أيضا ، ولكنها استعجالية متطرفة في هذا الاتجاه ، وبوزيد طالـــب كذلك ولكنه غارق في أموره الخاصة لا يهتم بغيرها ، وقد ((كان يحيا اللامبالاة بما (كذا) تعنيه الكلمة

(1) الروايـــــة ص 11 .
(2) انظر الروايـة ص 23 .
(3) الروايـــــة ص 85 .
(4) ======== 89 .
(5) ======== 90 .
(6) ======== 90 .
(7) == ====== 84 .

تجاه مختلف شعب الحياة وقضاياها [1])) ، بينما نجد أن ابراهيم الذي لا يقل وطنية عن غيره من الطلبة لم يحدد اتجاها بعينه بعد ، كما حدده مصطفى أو الشريف أو جميلة أو ثريا .

وحمو ، وسي منصور ، وسي رضوان ، وكش ، وأحمني ، والناصر كلهم من قدماء المجاهدين ، ولكن لكل منهم اتجاه بعينه داخل هذه الفئة من المجتمع .

ويمثل السلطة العليا في البلاد الرئيس ، ومنسق الجهاز المركزي لحزب جبهة التحرير الوطني ، ولكل منهما اتجاه بعينه كذلك ، بينما يمثل فئة العمال (شناح العكي) وهو شخصية واقعية معروفة ، أورد الكاتب سيرته النضالية كما سجلها هو بنفسه في مذكراته ، وبلقاسم ، وهذا الأخير شخصية ثانوية لا تكتسي أية أهمية وقد وقع ذكر النقابة وعمال البلدية وعمال السكك الحديدية [2] ، ولكن بدون أي دور يذكر لهؤلاء جميعا ، لأن الرواية أساسا تهتم بالثورة الزراعية ومشاكل تطبيقها ، ومساعدة الفلاحين على هذا التطبيق . واذا كان غياب العمال مبررا لأن الرواية لا تهتم بهم أساسا ، فان غياب الفلاحين — وهم المعنيون بالثورة الزراعية بالدرجة الأولى — يؤكد ما قلناه من تسرع في كتابة الرواية ، وافراط في الذاتية والايديولوجية على حساب التصوير الواقعي الفني لطبيعة المشكلة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المطروحة في بلادنا . لقد تحدثت الرواية عن (عبد القا) [3] ، وهو فلاح ، كما أشارت الى غيره من المستفيدين ، ولكن الهم الأساسي في الرواية لم يكن هم ((عبد القا)) أو غيره من الفلاحين ، بقدر ما كان هم مثقفين (الكاتب والطلبة) يحملون وجهة نظر معينة ويرون أنها أسلم طريقة للنهوض بالمجتمع الجزائري ، وبالفئات المحرومة فيه على الخصوص .

وهكذا فان شخصيات الرواية واضحة الدلالة على الفئات التي تنتمي اليها ، كما أن فئة المثقفين أكثر الفئات حضورا ، وقد كانت الافكار في الرواية أكثر من الأحداث والأعمال الروائية لهذا السبب .

غير أن ((لجميلة)) التي تنتمي بدورها الى هذه الفئة دلالة أو دلالات أخرى تجعلها الشخصية الأكثر غنى ، والأكثر رمزية واشعاعا من اللاز ذاته ((الذي ظل يشع كالشمس)) على حد تعبير الكاتب ، فهي مصدر اهتمام الجميع ، فالمؤلف يحاورها ويعرفها بقيمتها ، واللاز يتبعها كظلها ، والشريف يحرسها عن بعد وبلقاسم ينظر اليها ولايخفي اعجابه بها ، وحمو يكبرها ويشفق عليها ، ومعطوش يعجب بها ويحرس على سلامتها ويصفها بالمجاهدة ، والشيخ امبارك يقدرها ويحرسها كذلك ، وعيسى بوعين يشبهها بخليلته (دنيازاد) وثريا تغار منها ، ومصطفى يحقد عليها ، والكل في الرواية يهتم بها ، وهي تبادلهم نفس الاهتمام والشعور

---

(1) الروايـــــة ص 109 .

(2) انظر الروايـــــة ص 177 .

(3) الأصل عبد القادر ، ولكن سمي ((عبد القا)) للتخفيف كما هو معروف في الغرب الجزائري .

ولا تؤثر أحدا على آخر حتى خطيبها (مراد) ليس له في قلبها من المودة أكثر مما لهؤلاء الآخرين. تقول جميلة عن خطيبها : ((لم نتحابب ، بل لعلنا تحاببنا قبل أن نعلن خطبتنا ، ونشعر بأن مصيرنا ومصير الحزب ومصير الثورة الزراعية واحد))[1] .

وهكذا فان ((جميلة)) وطار تشبه ((نجمة)) كاتب ياسين كلاهما قصد بها أن ترمز للجزائر كلها ، وان كان هناك فرق بطبيعة الحال بين ((نجمة)) التي تمثل جزائر ما قبل الثورة ، و ((جميلة)) التي تمثل جزائر ما بعد الاستقلال .

جـ ـ شخصية الحاج كيـــــان :

من الشخصيات الدينية في روايات وطار شخصية ((الحاج كيان)) ، وهو البطل الأساسي في روايـة ((عرس بغل))[2] .

و ((الحاج كيان)) مثل ((مصطفى)) ينتمي الى تنظيم سري للاخوان المسلمين ، ويتبنى الدعوة الـى الاسلام ، واقامة حكم الله في أول الأمر ، الا أن تطورات كثيرة تطرأ على حياته فتغير مجراها ، ويتغير بذلك تفكيره وموقفه من الدين ككل ويتبنى فكرا جديدا يحاول أن يجد له بذورا في التراث العربي الاسلامي .

لا تذكر الرواية شيئا عن نشأة الحاج كيان ، وطفولته ، ولا نتعرف اليه في المرة الأولى الا وهـــو طالب شاب يدرس في الزيتونة ككثير من الجزائريين الذين انتقلوا قبل الثورة وخلالها الى الدراسة في تونـــس بهذا الجامع الكبير . كان يستيقظ باكرا ، فيلبس جبته الزرقاء المتواضعة ، و طربوشه الأحمر المتسخ ، ويحمل اشبارتـه ، ويغادر المأوى الخيري الذي يسكنه متوجها الى جامع الزيتونة العتيق ، وبعد أن يقطع أنهجا ضيقة و أسواقا مختلفة ، يفتح له الحارس بوابات الجامع الخشبية العتيقة ، ويجد نفسه في رحاب جامع الزيتونة الأعظم ، فيتوضأ ويصلي ركعتي الفجر ، ويشرع في مراجعة دروسه واستظهارها الى أن تقام صلاة الصبـــح فيؤديها مع الجماعة ، وبعد ذلك تتوالى دروس التجويد والبلاغة والتوحيد . وقد عرف هذا الطالب الجزائري بنباهته وذكائه ، وكان لذلك يحظى بمكانة خاصة عند مشايخه .

---

(1) الروايـــــة ص 149 .

(2) ((عرس بغـــل)) ، الطاهر وطـــار ، الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـــع ، الجزائـــر 1982 بدون طبعـــــة .

هذا تقريبا كل ما نعرفه في الرواية عن شباب ((الحاج كيان)) ، الذي لا نتعرف حتى على اسمه الحقيقي ، لأنّ اسم ((الحاج كيان)) لا يكتسبه الا بعد أن حوكم بتهمة القتل ، واقتيد الى كيان حيث لم يكن أحد يظن أنه سيعود يوما بعد العشرين سنة التي حكم عليه بها .

والحاج كيان كما قلنا مثل ((مصطفى)) ينضم الى تنظيم الاخوان المسلمين السري ، ففي جامع الزيتونة يسمع بالامام ((حسن البنا)) ، وبدعوته الى نهضة المسلمين عن طريق العودة الى تطبيق الكتاب والسنة وإقامة حكم الله . ((استهوته الفكرة ، أعلن في قرارة نفسه أنه من حزب حسن الشيخ . بدأ الدعوة في المأوى الخـــبيي))[1].

لاحظ أحد الطلاب المنتمين الى تنظيم اخواني سري نشاطه ، فدعاه الى الانضمام الى هذه الفرقة الاخوانية . ((اذا كنت تؤمن حقا بما كنت تصرح به ، انضم الينا ، اننا نشكل فرقة اخوانية كبيرة ، ان عملنا سري))[2] فأجاب على الفور: ((اعتبروني منكم ، سأكرس حياتي للجهاد في سبيل الله))[3] .

ويدفعه حماسه القوي للدعوة الاسلامية ، وتصميمه على المشاركة فيها الى محاولة التشبه بالسلف الصالح ((أكون الامام الثاني هنا ، أنشر الدعوة على غرار السلف الصالح ، الاشعري ، أو الغزالي ، أو عبد الرحمن بن رستم ، أو غيرهم))[4] .

ويذهب بعيدا في محاولة منه لقهر ذاته ، فيبدأ تجربة الدعوة من دار البغاء !! ((أبدأ التجربة من دار البغاء ، يجب أن أقهر ذاتي ، قبل أن أقهر غيري ، من لم ينتصر على نفسه لم ينتصر على غيره))[5] . ولكنه لم يحقق هذا الانتصار . فقد فشل عند أول محاولة له ((ووجد نفسه يستسلم))[6] لاحدى العاهرات اللواتي ذهب ليدعوهن الى الاسلام كما تقول الرواية ، فيمارس معها الزنى ، ويشرب الخمر ، وتنتزع فكرة الدعوة من ذهنه نهائيا ، لأنه يتعلق بهذه (العاهرة) التي أغوته و ((استطاعت أن تزعزع جامع الزيتونة بسواريه ومشائخه ، وفقهه ، ونحوه ، وصرفه ، وتجويده ، وتحوله الى هني يحج الى كيان))[7] ، يصمم (كيان) في قرارة نفسه على أن يقهر كل العقبات المعنوية والمادية التي تحول بينه وبين الاتصال بهذه المرأة ((سأعود

(1) عرس بغــــل ص 32 .
(2) ========= 33 .
(3) ========= 33 .
(4) ========= 43 .
(5) ========= 43 .
(6) ========= 50 .
(7) ========= 96 .

لزيارتها . سأقهر الجميع . زمردة والعين الزرقاء والامام حسن وأبي الحسن الاشعري)) [1] .

وهكذا يترك الطالب الزيتوني ((شيخ التجويد ، والامام حسن ، ليصير هزيا يتبادل العشق مع غادة جميلة ، في ما خور)) [2] ، ويتهم من أجلها بالقتل العمد فيحاكم ويقتاد الى (كيان) حيث يقضي عشرين سنة مسجونا في هذا المنفى البعيد . ويعود بعد هذه المدة الطويلة ، التي لم يكن أحد ينتظر عودته بعدها الى الجزائر، ويقيم بمعهر تديره ((العنابية)) ، وهي المرأة التي أغوته من قبل ، وحولته من داعية الى (هزي) متهم بالقتل .

يلازم ((كيان)) هذا المعهر ، ولا يغادره الا يومي السبت والأحد ، حيث يلجأ الى مقبرة مهجورة ويختفي في خندق مزعبها ، ويتعاطى الحشيش، ليكتسب تحت تأثيره الهوية والمكانة التي يفتقدها في حياته الواقعية ((فتح العلبتين والقارورة ، وتناول الغليون ، وراح يفحصه بدقة ، كأنما يراه للمرة الأولى .
ـ الخيط . الطريق . الجسر . السدلة التي تمنحني الهوية ؛ قال ثم ، قبله ، وشحنه بالمادة وأوقد النار ، وراح يمتص في ظط الرضيع)) [3] .

وفي مثل هذه الجلسات التي لا يمكن أن يتخلف عنها أبدا [4] ، يعيش في عالم آخر ، يستعيد فيه مواقف معينة من تاريخ الأمة الاسلامية ، ويتقمص شخصيات تاريخية معروفة في هذا التاريخ : ((ترى من أكون اليوم ؟ المتنبي ؟ حمدان قرمط ؟ زكرويه الدنداني ؟ المعتصم ؟ المنتصر ؟ المعتز بالله ؟ موسى بن بغا وطيهم ؟)) [5] .

ومن خلال تهويمات ((الحاج كيان)) في جلسات الكيف هذه ، وأفكاره ورؤاه المتداخلة ، التي يختلط فيها الماضي بالحاضر والمستقبل ، والحقيقة بالخيال ، يتضح موقفه مما يعانيه وما يعانيه غيره من أفراد مجتمعه الذي يعيش فيه داخل الماخور وخارجه فـ((الوضع كله فاسد ، لن يصلحه خليفة ، لن يصلحه دين)) [6] و ((مصير الانسانية جمعاء القرمطة [7] . لا صلاة ولا زكاة ، ولا وعظ ، ولا ارشاد يؤثر في قلوب الجياع . دينهم العدل)) [8] . هذا العدل الذي لا يحققه الا الفكر الاشتراكي العلمي ، الذي لم يظهر في تاريخ الأمة

---

(1) عرس بغـــــل ص 67 .
(2) ============ 67 .
(3) الروايـــــة ص 6 .
(4) انظر الروايـــــة ص 92 ، 96 .
(5) الروايـــــة ص 6 .
(6) ============ 161 .
(7) يعني بها العدالة نسبة الى حمدان قرمط أو القرامطـــة .
(8) الروايـــــة ص 108 .

الاسلامية الا في ثورات القرامطة والزنج ، ونظام الحياة فاسد لا يصلح الا بهذا الفكر العلمي : ((هذا هو نظام الحياة . انه فاسد في أساسه ، وفي حاجة ملحة الى حمدان ليقرمط[1] بين الناس ويقرمط حتى يقسم الألفة ، ويذيقهم جميعا طعم الجنة)) [2] ولا يستيقظ ((الحاج كيان)) من جلسات الحشيش المنعزلة هذه التي لا يتخلى عنها الا صبيحة يوم الأحد ، حيث يخرج من الخق بحذر ، و ((ينزل الى العين في أسفل القبرة يغسل ثيابه وسرواله (...) يذهب مباشرة الى الحمام (...) يسرع الى المسجد ، يصلي عددا غير محدود من ركعات منفردات قبل صلاة الظهر ، يصلي الظهر جماعة ، يتناول المصحف ، يضعه أمامه ، ينطلق في الترتيل يرتل الآية على قراءة ، ثم يعيد ها على قراءة ، حتى يرتلها على كل القراءات ، لا يتوقف الا لأداء الصلوات يتمشى تمرا ثم يواصل حتى الفجر ، يغفو قليلا ثم يستأنف بعد الصبح حتى ترتفع الشمس . يغادر الجماعة التي تحلقت حوله . يمر على لبان يأكل تمرا ولبنا ، ثم ينطلق نحو الماخور .)) [3]

د - المعالجة الموضوعية والفنية لبناء هذه الشخصيـــــة :

تدور معظم أحداث رواية ((عرس بغل)) في ((الماخور)) ، الذي يفتقد فيه الانسان كرامته وآدميته ويصبح سلعة كباقي السلع تباع وتشترى بأثمان محددة ، ويمثل هذا المكان المجتمع الجزائري ، أو المجتمعات العربية المتخلفة ككل والعلاقات الجائرة التي تحكم أفرادها ، وهذا الوضع الفاسد بحاجة الى اعادة نظر في نظام الحياة الذي يحكم هذه المجتمعات ، وفي هذا الاطار طرحت فكرة العودة الى منابع الاسلام الأولـــى ((الكتاب والسنة)) ، لاستعادة المجد السابق ، واللحاق بمركب الحضارة الراهنة ، التي وصلت اليها الأمم المتقدمة في مختلف نواحي الحياة . وقد مثل هذا الاتجاه في العالم الاسلامي حركات متعددة ، ومنهـــا حركة ((الاخوان المسلمين)) في مصر ، التي تزعمها الشهيد حسن البنا رحمه الله . ووجدت لها امتدادات في الوطن العربي كلـــه .

ويمثل الطالب الجزائري في الرواية الذي ينتمي الى فرقة اخوانية أحد العناصر المتحمسة – في البداية – للدعوة الاسلامية ، واقامة المنهج الاسلامي نظاما شاملا للحياة . فما هو مسار هذه الشخصية في الرواية ، وكيف تم بناؤها ؟ وهل هناك علاقة بين هذه الشخصية الدينية وبقية الشخصيات الدينية كذلك في روايات وطار ؟

نلاحظ منذ البداية أن الشخصيات الدينية في روايات وطار تتماثل في بنيتها الفكرية وبنائها الفني على السواء

---

(1) يعني بالفعل (يقرمط) يعدل أيضا مثلما قلنا عن القرمطة أعلاه .

(2) الروايـــــــة ص 196 .

(3) ((عرس بغـــــل)) ص 79 .

وحتى في شكلها الخارجي ، والشبه واضح بين كل من (بو الارواح) في (الزلزال) (والشيخ) في (اللاز) الأولى و (مصطفى) في (العشق والموت في الزمن الحراشي) و (الحاج كيان) في (عرس بغل) ، مع ملاحظة تغير الفكرة الدينية التي يحملها (الحاج كيان) وثبات هذه الفكرة عند الشخصيات الأخرى التي تدعي التمسك بالاسلام ومبادئه نظريا ، وتبتعد عنه في سلوكها وتصرفاتها ، وان حرصت على أداء شعائره المختلفة فبو الارواح الذي يحقد على مواطنيه ، ويستغل أقاربه ، يساهم في الوعظ والارشاد ، ويحرص على أداء الصلاة في المسجد و ((مصطفى)) – على انحرافه – أيضا يصلي ويلقي الدروس في المسجد ، و((كيان)) يعود مباشرة من جلسات الكيف الى المسجد فيتحلق حوله جماعة من المصلين للاستفادة من علمه وهو يصلي في تبتل ، ويعد الصلاة ((ينطلق في الترتيل . يرتل الآية على قراءة ، ثم يعيد ها على قراءة حتى يرتلها على كل القراءات لايتوقف الا لأداء الصلوات)) (1) ويعد هذا كله ينطلق نحو الماخور (2) !!! وهكذا فان (الحاج كيان) بقي على علاقة غريبة بالدين ، حتى بعد أن تخلى عن الايمان بضرورة العودة الى تطبيق الكتاب والسنة واعتناقه لفكرة الاشتراكية العلمية ، وبحثه عن بذور لها في تاريخ الاسلام ذاته .

وللشخصية الدينية في روايات وطار علاقة وطيدة بالثقافة العربية الاسلامية ، التي يكتسبها في مرحلة الشباب من التعليم على مشايخ العربية وعلوم الدين ، ثم بالتعليم بعد ذلك ، والوعظ والارشاد .

فالشيخ بو الارواح يتعلم على يد الشيخ ابن باديس ، ثم ينتقل الى الزيتونة بتونس ليعود ((عالما في الدين والنحو والصرف)) (3) ، يشارك في الاصلاح والوعظ والارشاد مع ابن باديس ورفقائه في جمعية العلماء ثم يشتغل أستاذا في التعليم الثانوي بعد الاستقلال ، ومديرا لثانوية بعد ذلك .

و((الحاج كيان)) يتعلم في شبابه العربية والبلاغة والتجويد والتوحيد وبقية علوم الدين على مشايخ الزيتونة أيضا ، ويتفوق – بالخصوص – في العلم بقواعد التجويد وقراءات القرآن المختلفة ، ثم يشارك بحماس في الدعوة الاسلامية بادئ الأمر ، ويواصل الارشاد والتعليم بعد عودته من كيان رغم التغيرات التي طرأت على فكره ، فلا ينقطع اطلاقا عن الحلقة التي ينظمها أسبوعيا بالمسجد ، حيث يجتمع حوله المصلون للاستماع اليه والاستفادة من علمه (4) .

ومصطفى يلقي الدروس كذلك بالمسجد (5) ، وهو على علاقة بالشيخ عبد اللطيف سلطاني عضو جمعية

---

(1) عرس بغـــــل ص 79 .
(2) انظر عرس بغل ص 79 .
(3) الزلـــــزال ص 105 .
(4) انظر ((عرس بغل)) ص 79 .
(5) انظر ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) ص 107 الى 110 .

العلماء الذي يشار اليه بطريقة مباشرة في رواية ((العشق والموت))(1).

واذا لم تكن ظروف المجاهدين تسمح بالتعلم والتعليم، فان نسبة منهم كانت من حملة القرآن الكريم ومعلميه ، ومن هؤلاء المسؤول السياسي في رواية ((اللاز)) الأولى ، وغيره (2).

وهكذا فان الشخصية الدينية ، وخاصة الاصلاحية منها غالبا ما تقترن بشخصية معلم العربية والعلـــوم الاسلامية. وهؤلاء المعلمون تصفهم روايات وطار بأنهم متسلطون ، يقمعون طلبتهم ، ولا يقبلون مناقشتهم ف ((بو الارواح)) يطرد الطالب الذي كان يسميه العارق ، لأنه طرح عليه سؤالا غير لائق في نظره حـــول حركة أصبع المصلي وهو يتشهد . يقول بالارواح عن طرد هذا الطالب : ((تركته ينهي حديثه ، ثم زمجرت فيه : أنت مرفوض . أقسم برأس النبي الطاهر شفيع الأمة ، انك مرفوض رفضا باتا قاطعا جازما . اخرج منها يا ابليس))(3).

وشيخ التوحيد في الزيتونة يقرر طرد الطالب الجزائري (الحاج كيان) فيما بعد ، لأنه تجرأ فسأله سؤالا غير لائق في نظره أيضا . يقول الشيخ الزيتوني عن هذا الطالب الذي سمع صوته ولم يميزه من بين الطلبـة : ((من هذا المعتزلي الكلب . من هذا الكافر الجاحد . من هذا الباطني اللعين(..) سأطرده من جامع الزيتونة الأعظم وفروعه ، كل فروعه ، كل فروعه . أقسم بالله الناطق الفاتق . انه مطرود ، مطرود ، مطرود نهائيا))(4).

كما نجد أن مصطفى يتسلط على أصحابه ، ويحاول أن يفرض عليهم آراءه حتى في معرض النصح والارشاد ((جمع مصطفى أصحابة الستة ، قبل الغروب ، وأمرهم باتباعه الى المسجد ، لأداء صلاة المغرب ، وصلاة العشاء تردد بعضهم فهددهم بنظرات شزرة مخيفة ..))(5).

وتتحدث رواية ((العشق والموت))عن (الأستاذ الشرفي الوجمي) الذي يعرقل ((جميلة)) فـــي دراستهـــا(6).

كما يظهر ((الشيخ)) وهو الشخصية الدينية الأساسية في رواية ((اللاز)) الأولى بمظهر المتسلـــط الذي لا يقبل الرأي الآخر ، ففي النقاش المقتضب الذي دار بينه وبين زيدان والأوربيين الخمسة يبدو ((الشيخ))

(1) انظر ((العشق والموت في الزمن الحراشي))ص 107 .
(2) انظر ((الـــــلاز))ص 173 .
(3) رواية الزلـــزال ص 19 .
(4) رواية ((عرس بغل))ص 30 .
(5) رواية ((العشق والموت في الزمن الحراسي))ص 101 .
(6) انظر ================== ص 72 .

صارماً قاسياً، ولا يفتأ يردد طوال المناقشة ((لسنا في مجال مناقشة))[1]، ((لسنا بصدد مناقشة))[2] ((انه لامجال للنقاش))[3] الخ . .

وهكذا فان المنحرفة والتسلط، وعدم سماع الرأي الآخر من صفات الشخصية الدينية في روايات وطـــار ويبدو أن هم الروائي الأساسي بخصوص هذه الشخصية بالذات هو رصد سلبياتها وتعداد نقائصها التي تبرر عدم صلاحيتها للحياة، وعدم قدرتها على تقديم البديل الايجابي لنظام الحياة الفاسد كما تدعيه، لأن الحل الجذري الوحيد الذي يخلص المجتمعات العربية والانسانية كلها ـ حسب هذه الروايات ـ ليس هو المنهج أو الفكر الديني، وانما هو الاشتراكية العلمية لاغير ((مصير الانسانية جمعاء القرمطة))[4] . والغرض من عـــرض مثل هذه النماذج المنحرفة من الشخصيات الدينية في روايات وطار، والاعراض عن غيرها من النماذج السوينـــة التي تمثل الدين في حقيقته الايجابية هو تأكيد لهذه الفكرة .

ولا بأس أن نستعرض ولو بايجاز بقية هذه الصفات السلبية اللصيقة بكل الشخصيات الدينية في روايات وطار، ومنها البساطة في التفكير، والجهل بحقائق الأمور، والحماقة . يظهر هذا عند (عبد المجيد بو الارواح) كما يظهر عند (مصطفى) و (الحاج كيان) في بداية الأمر . بل ان بعض هذه الشخصيات الدينية يؤمن بالخرافة، كالشيخ ((بو الارواح)) والمسؤول السياسي في رواية اللاز الأولى[5] .

كما يظهر الحقد والكراهية والبخل والاثرة وخدمة مصالح البرجوازية، والأنانية والخيانة والعمالة للخارج عند الشيخ عبد المجيد بو الارواح و ((مصطفى)) خاصة .

ومن السمات الغالبة على الشخصية الدينية كذلك ((العقم)) الذي تتصف به كل الشخصيات الدينية بلا استثناء، وهو دلالة على عدم قدرتها على الحياة وعلى الاستمرارية في هذه الحياة . ومن هذه الصفات أيضا الشذوذ النفسي والخلقي والمرضي، والحساسية المفرطة تجاه المرأة ومعاداتها ((فعبد المجيـــــد بو الارواح)) يعاني من الصرع، ويزني بمحارمه، ولا يتورع عن قتلهن[6] . ومصطفى كذلك يعاني من نوبات صرع تنتهي بحالات شاذة من الاستمناء[7]، ومن حساسية مفرطة كذلك تجاه المرأة[8] . وشيخ التجويد في روايـــــة

---

(1) رواية ((الـــــلاز)) ص 222 .
(2) ========== ص 223 .
(3) ========== ص 223 .
(4) ((عرس بغـــــل)) 108 .
(5) ((الـــــلاز)) ص 173 .
(6) ((الزلـــــزال)) 177 وما بعدها .
(7) انظر رواية العشق والموت، ص 130 / 131 .
(8) =============== 171 / 172 .

(عرس بغل) يحاول أن يقيم علاقة مريبة مع أحد طلابه في المسجد، وبعد صلاة الصبح !! ((أذن لصلاة الصبح أقيمت الصلاة، بعد ها أمسك شيخ التجويد بيده وقاده الى سارية بزاوية مظلمة وراح يعلمه القراءات السبع يرتل آية على قراءة، ويطلب منه أن يقلده، في حين ظل يحتفظ بيده ويدلكها من حين لآخر(...) وكان الشيخ متعلقا به أقصى التعلق (...) حاول مرة أن ينزع يده من كف الشيخ فنهره قائلا:

- لا تقطع الصلة الروحية بيننا.

منذ ذلك اليوم، تعود أن يترك يده، غير مبال بأصابع الشيخ التي تواصل حركة مريبة))(1).

وكما يتضح شذوذ الشيخ (عبد المجيد) و (مصطفى) وانحرافهما النفسي، والخلقي، والجنسي في علاقتهما بالمرأة بصفة خاصة، فان (الحاج كيان) أيضا سرعان ما تنهار عزيمته وحماسه للدعوة الاسلامية أمام المرأة بعد أن ((كان تصميمه قويا))(2) في أول الأمر، والرواية تصف سقوطه وصفا كاريكاتوريا، يشبه وصف الشخصيات الدينية السابقة في روايتي (الزلزال) و (العشق والموت) وخاصة (عبد المجيد بو الارواح) و (مصطفى)، بل ان بعض المشاهد تكاد تتكرر في مثل هذه المواقف.

تقول رواية (عرس بغل) عن الطالب الجزائري، الذي أقحمته في ماخور لكي ينشر الدعوة الاسلامية !! ويساهم في ((استعادة مجد خالد، والزبير، وعقبة، وطارق، وصلاح الدين))(3)، تقول: ((شعر أولا بركبتيه ترتجفان، وبقلبه يهتز، وبفراغ مهول يحيط به، الا أنه سرعان ما صعد الدم الى رأسه، ولعبت صبابة رمادية على عينيه، وغشيت بصره، اعترته حماسة قوية))(4).

وبمثل هذه الطريقة وصفت رواية (العشق والموت) مصطفى وهو يستعد لالقاء درس في المسجد: ((مرر مصطفى لسانه على شفتيه مرات عديدة، امتص ريقه أكثر من مرة، قبل أن تتقلص عضلات وجهه وتحمر عيناه، ويصفر لونه، ويزرورق، وتنتفخ أوداجه))(5).

وكما يفشل مصطفى في النهاية، ويلوذ بالفرار، يستسلم الطالب الجزائري بسهولة تامة، بعد أن يلقي خطبة حماسية بالماخور أشبيهة بالخطبة التي ألقاها مصطفى في المسجد !! ((يا من هنا، يا اماء الله أيتها المسلمات، تعالين أحدثكن، أنا صوت الله، أنا صوت الهدى والرشاد. تعالين أفقهكن، وأحدثكن حديثا جميلا))(6).

---

(1) رواية (عرس بغل) ص 28.
(2) ============ 43.
(3) ============ 49.
(4) ============ 47.
(5) رواية ((العشق والموت في الزمن الحراشي)) ص 108.
(6) رواية عرس بغل ص 47.

((— يا اماء الله (...) أنا صوت الله ، صوت الاسلام ، صوت الامام حسن ...)) .[1]

((— ان النهضة الاسلامية ، يجب أن تكون من صنع جميع المسلمين والمسلمات ، لماذا لا تكن أنستن الدليمة ؟ !!

((— أيتها المرأة ، لقد خلقت لتكثري أمة محمد ، لتحمي الكون بالمسلمين ، فيتباهى بنا المختار يوم الدين)) .[2]

وعندما يثير انتباه من في الماخور تتعاون (العاهرات) على حمله الى احدى غرف الممهر وهو لا يزال يخطب :

— ((لقد وعد الله الشهداء بالجنة . لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون)) .[3]

وتهتف العنابية ، وهي احدى العاهرات :

— ((الى غرفتي . الى غرفتي . سأريه جنته . الى غرفتي . سيعرف رحمة ربه)) .[4]

أغلقت الباب وعادت اليه . كان مستلقيا مغمض العينين ، خائر القوى مهزوما وقالت له :

هيا حدثني عن القبور ، والآخرة ، والاسلام .

ويدور بينهما الحوار الكاريكاتوري التالي وهي في أحضانه ، تسقيه الكأس تلو الأخرى ، مما جعل الصفاء يتصاعد الى ذهنه ، والأشياء تظهر له على حقيقتها !!!![5]

— ((انك لا تطمعين في الاصغاء الى ما كنت أقول في البهو .

— أبدا لا . ما كنت تقول ايها الجميل ؟

— ان الأمة الاسلامية تدهورت .

— هذا صحيح .

— وأننا يجب أن ننهض أيضا .

— هذا صحيح . خذ هذا الكأس أيضا .

— هات . وأن نهوضنا يكون باتباع الامام حسن

(1) رواية (عرس بغل) ص 48 .

(2) ============ 49 .

(3) ============ 50 .

(4) ============ 50 .

(5) انظر رواية عرس بغل ص 62 .

ـ هذا صحيح . من هو الامام ؟

ـ صبي يدعو الى العودة الى الكتاب والسنة .

ـ ومن يعارضه في ذلك .

ـ جميع الناس .

ـ أهوه . ليس من حقهم انني لا أعارضه !

ـ وهل أنت مسلمة ؟

ـ وهل تراني يهودية أو ايطالية أو فرنسية أو أمريكية ؟

ـ لا وماذا تفعلين اذن ؟

ـ أشتغل . أبيع وأشتري ، ككل عبد الله .))(1)

ويستمر مثل الحوار داخل الفراش ، بين الداعية والعاهرة التي تقول له بعد أن شعرت بسيطرتها عليـــــه :

((اسمع . عندما تكونوا قفا في موضع . على حافة جرف مثلا ، ويهوي بك ذلك الجرف ، من تلـوم ؟ هل تلوم نفسك ، أو تلوم الجرف ، أو تلوم من جعله يهوي ؟ ماذا تقرأون في جامع الزيتونة ؟)).

يقتنع الطالب الداعية بهذه الفكرة ، ولا يجد ما يرد به ، ويفكر بينه وبين نفسه ، أن (الامام حسن)(2) ذاته لا يمكنه أن يقنع الضالات في المواخير(3) . يزيد بعدها كأسا أخرى من يد الغانية التي انسلت من الفراش لتعود له بملابس جديدة ، ويغادر رطا فرحا بهديتها ، بعد أن حددت له الأربعاء يوما أسبوعيا للقائهما وعندما يعترض (زمردة) طريقه يتحول ضعفه الشديد ، واستسلامه أمام العاهرة الى قوة جبارة يقضي بها على (الهني)(4) الذي اعترض سبيله : ((ارتفع سيف صلاح الدين ، كانت ارادة صلاح الدين وحده ، أقوى مـــن السيف والخصم . هوى السيف ، سبقته النار ، انطلقت النار من الصدر ، احمر السيف قبل أن يمتزج بالدم ، النار في صدر صلاح الدين .

هوى زمردة . . . انفرجت رجلاه في الدرج ، وانفتحت ذراعاه ، كان أشبه مايكون بجلد عنز مبسوط))(5).

---

(1) رواية (عرس بغل)ص 63/ 64 .

(2) المقصود حسن البنا ، الزعيم التاريخي للاخوان المسلمين .

(3) انظر (رواية عرس بغل)ص 64/ 65 .

(4) الفتى القوي الذي يسهر على حفظ النظام في الملاهي والحانات .

(5) رواية (عرس بغل)ص 67 .

وبهذه القوة الخارقة المنبعثة في الفتى، الذي كان قبل قليل خائرا مستسلما مهزوزا، يصمم الداعية على العودة الى الغانية، التي يشتد تعلقه بها: ((سأعود لزيارتها. سأقهر الجميع. زمردة والعين الزرقاء[1] والامام حسن[2]، وأبي الحسن الاشعري[3])).

وينتهي به الأمر كما عرفنا الى أن يتهم بالقتل فيحاكم ليقضي عشرين سنة في (كيان)[4]، ويعود بعد هذه المدة الطويلة التي لم يكن يظن أنه سيعود بعدها مجللا بالوقار والحكمة والمعرفة العلمية التي ستخلص البشرية!! ويقضي بقية عمره في الماخور الذي تملكه الغانية، التي أغوته من قبل يتعاطى الحشيش ويعيش تحت تأثيره ((ارادة عليا))[5]، حتى اذا ما زال عنه أثر الكيف انتبه الى ما فعله في نفسه، فغسل سرواله وتبانه وعاد الى الماخور يوزع الحكمة والحلوى على العاهرات! وعندما تريد احداهن أن تخلصه وتخلص نفسها من هذه الوضعية، فتعرض عليه مساعدته على الخروج من هذا الماخور للزواج بها وتكوين أسرة شريفة يقول لها في استسلام تام ورضى مطلق عن النفس وحكمته المعهودة: ((أنت تاجرة هنا أو هناك (...) في الماخور هنا أنت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط (...)، وأنت في الدار، وفي غمرة الحياة الزوجية مريض بالسرطان محكوم عليه بالسير نحو نهايته[6])).

والواقع أن رواية (عرس بغل) قد انتقدت وضع المرأة في الاسلام على لسان (الحاج كيان)، حتى وهو داعية متحمس لاقامة الدولة الاسلامية، على أساس الكتاب والسنة، حيث يقول: ((أن وضعها في الجنة غامض بل أشبه ما يكون بوضعها هنا[7]. هنا بضاعة تباع بالجملة والتقسيط، وهناك[8] بضاعة تعطى بالجملة والتقسيط. انه[9] يبشر المؤمنين بالحور العين، والكواعب الاتراب، ولا يبشر المؤمنات الا بقطع السكر، كل ما يتعلق بهن، يأتي دائما مرتبطا بالرجل. وقد تكون بضاعة بائرة، لأن بعض المؤمنين يشتغلون بالولدان المخلدين[10])).

---

(1) ((زمردة)) و((العين الزرقاء)) ((هوليان)) في الماخور.
(2) الامام حسن، المقصود حسن البنا.
(3) أبي الحسن الأشعري: الشخصية الاسلامية التاريخية المعروفة.
(4) كيان: عاصمة غويانا وهي مستعمرة فرنسية تقع في أمريكا الجنوبية.
(5) رواية (عرس بغل) ص 13.
(6) ========== 152.
(7) يعني الحياة الدنيا.
(8) ====== الآخرة.
(9) هكذا في الأصل، ولكن المعنى يقتضي أن يعود الضمير على الله سبحانه وتعالى.
(10) رواية عرس بغل ص 45.

نلاحظ من خلال السرد الروائي في رواية (عرس بغل) أن هناك مرحلتين في حياة الحاج كيان، مرحلة الدراسة بالزيتونة والاقامة بتونس في أحد مرافق الزيتونة الخيرية ، وهي المرحلة التي يتبنى فيها المنهج الاسلامي للنهوض بالمجتمع ، وينضم الى تنظيم سري للاخوان المسلمين ، ليساهم عمليا في الدعوة الى الأخذ بهذا المنهج ويمكن أن تسمى هذه الفترة القصيرة مرحلة ما قبل (كيان) أيضا .

أما المرحلة الأهم ، والأطول في حياة الحاج كيان فهي مرحلة ما بعد (كيان) ، التي يقتنع فيها بضرورة الأخذ بالمنهج الاشتراكي العلمي ، ويبحث عن بذور له في تاريخ المجتمع الاسلامي ذاته ، ويقيم طوال هذه الفترة والى نهاية الرواية بماخور كبير في الجزائر العاصمة ، تديره (العنابية) ، وهي الغانية التي أغوته من قبل وغيرت مسار فكره وحياته .

وتظهر شخصية الحاج كيان الدينية في المرحلة الأولى بصفة خاصة ، وان بقيت لها امتدادات في فترة ما بعد كيان .

ويمكن للقارئ أن يلاحظ بسهولة ، سواء عند الحاج كيان أو عند غيره موقف الكاتب من هذه الشخصيات الدينية ، ومن الأفكار التي تحملها من خلال التصوير الكاريكاتوري الاستعجالي المسطح ، الذي لا يراعي طبيعة النفس الانسانية ونوازعها الداخلية . فعبد المجيد بوالارواح ، والشيخ ، ومصطفى ، والحاج كيان ، في الفترة الأولى من حياته ، كلهم يتصرفون بشذوذ وحماقة تبعث على السخرية والاستهزاء ، بينما زيدان ، وجميلـــة والشريف ، وحمو ، والحاج كيان في مرحلة ما بعد كيان وغيرهم ممن يمثل اتجاههم ، يتصرفون بحكمة ، ورزانـــة ووقار . ونحن لا نلوم الكاتب على هذا ، ولكننا نؤكد هنا ما لاحظناه على بناء الشخصية الدينية ، وتصويرها في رواياته وطار ، وهو أن ادانة هذه الشخصية ليست مقنعة ، ولا تأتي من طبيعتها الداخلية بقدر ما هي ادانة خارجية، آتية من التأكيدات اللفظية غالبا . والأمر نفسه بالنسبة للشخصية الاشتراكية ، فايجابيتها لا تتحقق بتصويرها الفني ، وأفعالها المقنعة ، بل من تعاطف الكاتب معها ومساندته لها .

والواقع أنه اذا كان حب الكاتب لنماذجه الأدبية وتعاطفه معها عاملا ايجابيا ، بل وضروريا لنجاح العمل الأدبي ، فان الذاتية المفرطة أيضا ، والتمييز بين نموذج روائي وآخر يسيء الى هذا العمل لأن الكاتب سيعامل الشخصيات الروائية بدافع من هذه الذاتية ، ويميز بينها على هذا الأساس، كما هو الحال في نماذج وطار الروائية .

ان العمل الأدبي ، والرواية بالذات ، التي تتعدد فيها الشخصيات ، وتتناقض مصالحها وأهدافهـا وتتشعب مصائرها ، بحاجة الى أن يكون مؤلفها على قدر من الحياد ، ومقدرة على الافلات من سيطرة الـذات ومعرفة كبيرة بحياة الناس وطبائعهم ، حتى يستطيع أن يكتب عنهم جميعا ، دون أن يضطر لقمع نماذجـه

الروائية التي لا يتعاطف معها ، فيعدل معها ويصورها كما هي في واقعها ، وبهذا يكون العمل الروائي — بفضل نماذجه الروائية المقنعة — حياة زاخرة مليئة بالحيوية ، وسمفونية متجانسة لا يعلو فيها صوت على آخر ولا يظهر موقف الكاتب ، ويكتمل عند نموذج معين دون غيره ، بل يستخلص من العمل الأدبي بكل نماذجه الروائية السلبية منها والايجابية ، تماما كما تتم السمفونية بجماع الأصوات الموسيقية ، وتكتمل بها : ف((ليس هناك شخصية ايجابية أو سلبية ضمن النسيج الروائي أو المسرحي أو العالم القصصي ، لكن هناك شخصية مقنعة أو غير مقنعة ضمن النسيج الروائي ، واقناعها هو مصداق ايجابية الرواية ككل))(1) .

واذا كانت شخصية ((الحاج كيان)) في مرحلة ما قبل كيان شبيهة في بنائها ببقية الشخصيات الدينية عند وطار ، وهي التي أشرنا اليها سابقا — وخاصة في اندفاعها وحماسها الزائد الذي يصل الى حد الحماقة — فانها في مرحلتها الثانية — مرحلة ما بعد كيان — تبدو مستسلمة راضية بواقعها ، وتميل الى التأمل والتفكير النظري ، والهروب من واقعها المر بوا سطة الحشيش ، الذي لم يحدث أن تخلف الحاج كيان مرة عن موعد تعاطيه .

وصحيح أن الفرد — أي فرد كان — محكوم بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه ، ولكن هذا المجتمع لابد له لكي يتغير نحو الأفضل من طليعة تتكون من أفراده الواعين أكثر من غيرهم ، فللفرد كذلك تأثيره على المجتمع في ذات الوقت الذي يتأثر فيه بهذا المجتمع .

والانسان المسلم بالخصوص يملك المبرر الكافي ، والحافز القوي ، الذي يدفعه الى السعي الى ما هو أفضل ، مهما كانت الظروف المحيطة به ، لأنه يسعى لارضاء الله سبحانه عزوجل بعمله ، وليس يضيره أن لا تتحقق ثمرة سعيه في حياته ، لأنه سيجد في آخرته ما هو أفضل من ذلك وأبقى .

وبهذه الروح الاسلامية العالية في مواجهة الظروف الشاقة التي تحقق للمجتمع والفرد المسلمين سعادة الدنيا والآخرة ، وهما — أي الدنيا والآخرة — مرتبطان ببعضهما أشد الارتباط . فالنجاح الحقيقي في الدنيا نجاح في الآخرة ، والعكس أيضا صحيح ، فالفشل في الدنيا فشل في الآخرة ، قال تعالى ((ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا))(2).

ان ((الحاج كيان)) قد انتقل في المرحلة الثانية من حياته الى نظرة جديدة للحياة ، ومنهج يختلف تماما عن المنهج الذي كان يؤمن به في المرحلة الأولى من حياته ، وان اتفق معه في بعض المبادىء العامة وقد كانت هذه النقلة سريعة ومفاجئة ، ولعلها كانت هي السبب في انعزال (الحاج كيان) وتقوقعه على نفسه .

---

(1) محمد كامل الخطيب : حوار في علاقات الثقافة بالسياسة ص 117/ 118 .

(2) سورة الاسراء (72) .

وفي محاولة منه لاقناع نفسه بهذا المنهج الجديد ، الذي تبناه ، راح يبحث عن نوع من المصالحة بين المنهجين في التاريخ الاسلامي (ثورات الزنج والقرامطة).

والواقع أن المنهجين الاسلامي والاشتراكي العلمي مختلفان تماما ، وان اتفقا في بعض المبادىء العامة كما أسلفنا ، ولكل منهما طريقته في تنظيم حياة الناس واصلاحها .

وفيما يخص المنهج الاسلامي فان القرآن الكريم قد اشتمل على المبادىء الأساسية في تحقيق المساواة والعدالة ، والكرامة ، والحياة الفاضلة لجميع الناس ، دون تمييز بين أجناسهم وألوانهم وفئاتهم وأديانهم ، وترك للسنة النبوية ولاجتهاد العلماء بعد ذلك التطبيق العملي لهذه المبادىء ، وتجسيدها في واقع الناس وحياتهم بما يتناسب وظروف كل مجتمع ، هذه الظروف التي لاشك وأنها تتغير بتغير الزمان والمكان .

ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، وفي الصالحين من حكام المسلمين على مر الأزمان النموذج الأمثل في هذا المجال .

ومن هذا المنطلق فاننا نختلف مع المنهج الذي تقترحه رواية ((عرس بغل)) ، ولكننا ، مع هذا ، يجب أن نؤكد أنها قد صورت بطريقة فنية قيمة الانسان المتدنية ، وتدهورها الشديد في عالم بلا قيم ، عالم تحكمه القوة ، وتسيطر عليه المادة ، وقد استخدمت الرواية في هذا التصوير الفني أدوات فنية متنوعة ، كالوصف الحي والارتداد ، والحديث النفسي ، والحوار المشحون بالتوتر والقلق ، والتحليل النفسي ، واستلهام التاريخ وعناصر التراث الشعبي ، كالأمثلة ، والأغاني والأجواء الشعبية ، والصراع الدرامي التراجيدي ، وكشفت بهذه الأدوات الفنية المتنوعة المآسي والمصائر المحزنة ، التي ينتهي اليها أبطال الرواية ، بدءا بـ((الحاج كيان)) الذي ينتقل من طالب علم (بجامع الزيتونة) الى سجين منفي بمعتقل (كيان) الشهير . وعندما يعود الى الوطن ، بعد عشرين سنة من الابعاد والنفي ، يقضي بقية حياته في ماخور ، عالة على نسائه ، ولا يخرج الا الى مقبرة مهجورة يتعاطى فيها الحشيش ويعيش في الخيال ، حتى اذا ما زال عنه أثر الكيف عاد الى نفس الماخور من جديد .

وهذه المعاناة يعيشها ((حمود الجيدوكا)) كذلك و ((باباي البكسور)) و ((زمردة)) و ((العين الزرقاء)) و ((خاتم)) وأمثالهم ممن تستغل المواخير قوتهم وشبابهم ، حتى اذا ما لحقهم الكبر والضعف رموا بلا شفقة وتدحرجوا الى أسفل سافلين .

ونفس الشيء بالنسبة لنساء الماخور ((فرئيسة الملاح)) و ((علجية)) و ((الوهرانية)) و ((حياة النفوس)) وحتى ((العنابية)) كلهن ذقن مرارة اليتم والفقر والضياع في الصغر ، والمهانة والذل والوحدة في الكبر .

ولنستمع الى الحوار التالي الذي يدور بين رجل وامرأة ممن لقوا هذا المصير المحزن :

((- خمس سنوات وأنا مع العنابية . آخر الأمر أجبرتني على الخروج ، جوعتني ثم طردتني (...) .

- لو لم تكن سافلة بحق . كيف تطردني بعد العشرة الطويلة ؟ جوعتني وطردتني .

- أنا أيضا طردوني من هناك .

- هكذا اذن ياحمود الجيدوكا ، أنت والخدمات التي قدمتها . الأسود كنت تقذف بهم من صدورهم خارج الباب . لا أمان في دار الأمان .

اغرورقت عيناها ، تسابقت الدموع الى عينيها ، شهقت ، انفجرت بالعويل ، انتقلت العدوى اليه بسرعة ، خيل اليه أنه كان منذ دهر طويل يتهيأ للبكاء ، وأن اللحظة الحاسمة قد حانت . لم يبك سابقا اطلاقا الجيدوكا لم يعرف البكاء قبل ، كان ينتظر هذه اللحظة فليفعل))(2).

ان هذه الرواية - رواية عرس بغل - صرخة في وجه مجتمع بلا قيم ، وتعرية فاضحة لواقع هذا المجتمع الذي تحول أفراده الى سلع تباع وتشترى وترمى كبقية السلع الأخرى عندما لايعود لها نفع يذكر .

هـ - شخصية علي الحـوات :

ليس في رواية (الحوات والقصر)(3) شخصية دينية ، مثل الشخصيات التي أشرنا اليها في روايات (الزلزال) و (اللاز) و (العشق والموت في الزمن الحراشي) (عرس بغل) (فالحوات والقصر) رواية رمزية أسطورية في أحداثها وشخصياتها .

والواقع أن في روايات وطار السابقة كلها محاولة للاستفادة من التراث بجميع أشكاله ، وقد لاحظنا في رواية (عرس بغل) بالخصوص حضور التراث العربي الاسلامي ، وان كنا نختلف مع الكاتب في طريقة تناول وتوظيف هذا التراث . كما أن النقاد أثبتوا عناصر عديدة من الموروث الشعبي في بقية الروايات ((الأمثال والحكم الشعبية الجو الشعبي ، الشخصيات الشعبية ، الأغاني الشعبية الخ ...))(4) .

ولكن هذا التراث اذا كان قد انعكس بشكل عفوي في الروايات السابقة ، ودون الاعتماد على نوع معين من هذا التراث ، فان الكاتب قد حاول أن يبني ((الحوات والقصر)) على الأسطورة والتراث العالمي خصوصا واستعد لذلك باعادة قراءة التراث الاغريقي والروماني كما يقول ، قبل أن يبدأ كتابة هذه الرواية ، ويعتقد

(1) مثل شعبي معناه أنه من الصعب أن يتوفر الأمن للانسان حتى في الأماكن التي يظن فيها أنه آمن .

(2) ((عرس بغل)) ص 178/ 179 .

(3) ((الحوات والقصر)) ، الطاهر وطار ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط2 الجزائر 1984 .

(4) انظر الفصل الأول ص 63 والفصل الثاني ص 64 وما بعدها .

الكاتب أن ثمة مسحة من هذا التراث على الرواية (1) .

ولكن القارئ لرواية الحوات والقصر يدرك بسهولة العلاقة بينها وبين القصص الشعبي المحلي . والكاتب نفسه يؤكد هذا فيما بعد ، اذ يقول : ((هناك ما أعتقد أنه أكثر أهمية (. . .) وهو الذهنية الشعبية المتمثلة بالمبالغات والخرافات ، والتقديرات غير الموضوعية ، التقديرات الذاتية للأشياء ، والمعرفة غير الصحيحة والخاطئة للكون (2))).

أما الشخصية الأساسية في هذه الرواية فهي ليست شخصية دينية مثل شخصية ((عبد المجيد بو الارواح)) أو ((الشيخ)) أو ((مصطفى)) أو ((الحاج كيان)) أو غيرهم ، ولكنها شخصية أسطورية رمزية متماشية مع طبيعة الرواية ذاتها ، وما يهمنا من هذه الشخصية في بحثنا هو الجانب الديني في بناء هذه الشخصية بصفة خاصة ، وفي البناء العام للرواية كلها . ولعل التعرف على حياة (علي الحوات) من خلال الرواية يساعدنا على ذلك .

علي الحوات شاب طيب يتيم ، أخ لثلاثة أشرار هم : جابر وسعد ومسعود ، شذ عن اخوته ، وابتعد عن طريق الضلالة ، فلم يسرق يوما ، أو يكذب أو يعتد على غيره أبدا ، وكان قدوة ونموذجا في الاستقامة لسكان قريته . مهنته صيد الحوت ، يذهب الى الوادي باكرا ، ولا يعود الا بعد غروب الشمس ، وربما قضى الليل هناك ، لايتوقف عن الصيد الا ليشوي سمكة لغدائه أو عشائه ، وعندما يعود الى القرية يوزع صيده على سكانها فرحا مسرورا بعمله هذا .

ارتكب اخوة (علي الحوات) جرائم قتل وسرقة ونهب فظيعة ، أبانوا بها عن طبيعة الشر فيهم ، وسكنوا الغابة لبث الرعب في نفوس الناس ، بينما عاد هو بكيسين كبيرين من السمك ووزعهما على سكان القرية ، وأكد بذلك طبعه الخير الذي عرف به .

سمع ((علي الحوات)) من رفقائه الصيادين أن الملك تعرض لمحاولة قتل من مجهولين ملثمين ، فقرر أن يخرج عن طبيعة قريته المحافظة ، ونذر (لجلالته) أحسن سمكة يصطادها احتفاء بنجاته من أهوال الليلة الليلاء التي مر بها (جلالته) ، وتحقق نذر علي الحوات . فقد اصطاد سمكة تزن سبعين رطلا لم ير أحد مثلها في الوادي من قبل . وفي اتجاهه الى القصر بهذه الهدية العجيبة ، مر بالقرى السبع التي تختلف في طبائعها ، وفي موقفها من القصر ، وتحمل أهوال التفتيش المضنية في مراكز الحراس السبعة

(1) فيصل دراج : حوار في علاقات الثقافة والسياسة (مقابلة مع وطار) ص 98 .
(2) ================================ ص 98 .

من أجل أن يحتفي بسلامة (جلالته) ، ويوصل اليه هديته بهذه المناسبة ، ولكنه لم يحظ بمقابلة الملك وعوقب بدل أن يجازى ، فحزت يده اليمنى حتى المرفق ، ومع هذا فقد قرر مدفوعا بفضل الخير الذي جبل عليه أن يصطاد باليد الواحدة التي بقيت له سمكة أجمل ، يجدد بها مرة أخرى النذر الذي قطعه على نفسه (لجلالته) ، ويتمكن بهذه المناسبة من رؤيته ، التي حرم منها في المرة الأولى ، لأسباب حرص أن يخفيها عن غيره ويبقيها في صدره ، ليبرهن على أنه العبد الأوفى ، والأكثر طاعة لسيده ، ولكنه يفشل في الوصول الى الملك للمرة الثانية ، وتقطع يده اليسرى ، ويعاود الكرة ليقطع لسانه ، ثم لتفقأ عيناه ، كل ذلك بسبب طبيعته الخيرة واصراره على أن يعبر للملك عن فرحه وسروره بنجاته . وبعد أن فقئت عيناه - في آخر محاولة له لمقابلة الملك - وشعر بأن جلاديه يحاولون اخراجه ((لمس بمرفقه موضع القلب من صدره ، وود لو كان[1] في امكانه أن يقول لهم : الا هذا لن تنالوه مني ، انه الموضع الوحيد الذي لن تقووا على تشويهه[2])) .

هذه القسوة الفظيعة التي يقابل بها (علي الحوات) الطيب ، تدفع سكان القرى الذين تعلقوا به وأحبوه الى أن يثأروا له . فاتحدوا جميعا بدافع هذا الحب المشترك لعلي الحوات ، وقضوا على القصر الذي لم يجدوا فيه سوى الأشرار الثلاثة ، اخوة علي ، الذين قتلوا الملك واستولوا على القصر ، وتسلموا مقاليد الحكم فيه .

هذا تعريف مختصر بحياة (علي الحوات) البطل الأساسي في رواية الحوات والقصر ، ومن خلال هذا التعريف نلاحظ الجانب الديني في بناء هذه الشخصية ، سواء في الاعتقادات والصفات الخلقية أو في الافعال والتصرفات ، وحتى اسم علي فان له دلالة دينية ، وقد سبق وأن أشرنا الى أن وطار يختار أسماء نماذجه بدقة فلا يخل أي اسم عنده ، لشخصية أساسية أو ثانوية من دلالة معينة مقصودة . على أن الدلالة الدينية في اسم ((علي)) لا تقتصر على التسمية فقط ، بل تتعداها الى الفعال والسجايا ، وقد قال وطار أنه كان يضع في ذهنه شخصية الامام علي رضي الله عنه - وما اشتهر به من صفات ومواقف - وهو يكتب هذه الرواية[3] .

والواقع أن القارئ ، رغم ملاحظة الكاتب هذه ، لا يمكنه أن يعثر على علاقة وطيدة بين سيرة الامام علي رضي الله عنه ، وشخصيته الدينية الفذة وبين هذه الرواية ، اللهم الا ما كان من بعض الملامح العامة التي يمكن أن توجد عند كل المتدينين المخلصين في دينهم ، ومنها الاستقامة الخلقية كعدم السرقة أو الكذب أو الاعتداء التي اشتهر بها علي الحوات من بين سكان قريته ، والاحسان الى الخير ، فقد كان يوزع

(1) الأصح (وود أن لو كان) .

(2) رواية ((الحوات والقصر)) ص 264 .

(3) من محاورة مع الطاهر وطار أجراها عبد العالي رزاقي في مجلة الجيل ، نيسان أبريل 1988 ص 91 .

ما يصطاده من حوت على المحتاجين ، وطاعة أولي الأمر الذين يعتقد في صلاحهم ونفعهم للرعية . وعلى هذا الأساس كان تعلق علي الحوات بالملك ، وحبه له وحرصه على الاحتفاء بنجاته . ومن صفات (علي الحوات) الدينية كذلك أنه يقوم بواجب السعي والأخذ بالأسباب كما يقتضي الدين ، ومن أجل ذلك فانه يمتهن صيد السمك ، وهو معروف بمهنته هذه ، وتسميته مستمدة منها . وفي مهنة صيد السمك صفة الصبر، وانتظار الغيب ، والايمان بالقضاء والقدر ، و((علي الحوات)) يؤمن بهذا كله . يقول مخاطبا زملاءه الصيادين بشأن السمكة العجيبة التي اصطادها: ((دعوني معها أرجوكم . دعوني معها ، هنالك شيء تديره الاقدار ينبغي أن نساعد جميعا على تحقيقه))[1].

ومن هذه الصفات كذلك الايثار، والتحمل الشديد للأذى ، والاصرار على تحقيق الهدف مهما كانت الصعوبات ، وهي من صفات المؤمنين المخلصين في ايمانهم . وقد رأينا أن (علي الحوات) قد قطعت يداه ، وقص لسانه ، وفقئت عيناه في سبيل تحقيق مقصده الخير، ولم ييأس في النهاية رغم كل هذا التنكيل الذي لحق به بل أصر على عدم الاستسلام ومواجهة اخوته الأعداء بقلبه العامر بحب الخير للناس جميعا ، ولاخوته الأشرار انفسهم الذي بقي رغم كل ما عاناه منهم يحتفظ لهم بواجب الحب الذي تحتمه قرابة الأخوة .

ومن العناصر الدينية في الرواية كذلك : الأنبياء والرسل ، والعلماء والحكماء ، والجنة ، والرعية الصابعة ، والنذر الخ . . . ويتردد العدد سبعة كثيرا في الرواية ، مثل القرى السبع التي يقطعها ((علي)) قبل أن يصل الى القصر . ولعلها ترمز الى فئات المجتمع المحلي أو الانساني الذي لا تتحقق له السعادة والرخاء بغير اتحاد وتعاون بين هذه الفئات فيه . كما يذكر العدد (تسعة وتسعون)[2] الذي له مكانة خاصة في الديانة الاسلامية .

ولكن كل ما ذكرناه لايجعل من شخصية ((علي الحوات)) شخصية دينية كما أسلفنا ، لأن في الرواية توظيفا للتراث الاغريقي الروماني ، الذي تتعارض بعض القيم والعناصر فيه مع القيم والمبادىء الاسلامية ، مثل صراع الآلهة ، والسجود لغير الله ، وتأليه البشر ، مثل (قرية الأباة) ، وهي احدى القرى السبع في رواية ((الحوات والقصر)) .

ولعل طريقة العيش النموذجية التي يعرفها سكان هذه القرية ، ونظام الحكم فيها ترمز الى الاشتراكية العلمية ، وسكان هذه القرية يسعون الى تعميم هذا النظام على القرى الباقية عن طريق المساعدات الثقافية ، والطبية ، والعسكرية لهذه القرى التي تمثل كما أسلفنا اتجاهات المجتمع أو أنظمته المختلفة سواء

(1) رواية الحوات والقصر ص 25 .

(2) أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون .

كان هذا المجتمع مجتمع شعب أو أمة محددة أو المجتمع الانساني كله .

وقد وظفت رواية ((الحوات والقصر)) في بنائها وسير أحداثها التراث الشعبي المحلي كذلك . وربما كان هذا التراث هو الغالب على الرواية ، ومن عناصر هذا التراث أن هيكل القصة أو الاطار العام لسير أحداثها مستمد من القصص الشعبي المحلي المتداول في الجزائر وبقية الدول العربية ، فالصراع الذي يقوم بين بطل خير ، بريء ومحبوب شعبيا ، وبين غيره من الاشرار ، ومصارعته للأهوال المختلفة في سبيل تعميم الخير كل هذا معروف في التراث الشعبي العربي ، وحتى صراع الاخوة الأعداء بالشكل الذي نراه في الرواية موجود في هذا التراث ، ومتداول في القصص الشعبي بكثرة .

ومن هذه العناصر ما أشار اليه الكاتب نفسه ، كالأعاجيب والأفعال الخارقة التي تحفل بها الرواية والذهنية الشعبية التي تتضح في الخرافات والمبالغات والتقديرات غير الموضوعية ، والمعرفة غير الصحيحة والخاطئة للكون ، والأجواء الشعبية بصفة عامة التي تظهر في المواقف والتصرفات ، وفي طريقة التفكير والكلام وفي الأماكن (القرية وساحاتها ، الغابات والوهاد ، الشعاب والوادي) ، ووسائل النقل (الحصان والبغل والحمار) ، والتسميات (جابر ، سعد ، مسعود ، علي) ، والأسلحة (السيف ، النشاب ، القوس ، السهم) والآلات الموسيقية (الرباب ، الطبل ، الناي) ، وأدوات الكتابة (الرقاع والقلم والدواة) الخ ...

أشرنا فيما سبق الى دور التراث المحلي والعالمي في بناء رواية ((الحوات والقصر)) ككل ، وفي بناء شخصية ((علي الحوات)) خاصة . ويجب أن نشير في الأخير الى أن العناصر الايجابية في التراث المحلي الذي يغلب على الرواية مستمدة من قيم الدين الاسلامي كذلك ، ومع هذا فاننا نؤكد ما قلناه من أن ((علي الحوات)) ليس شخصية دينية كبقية الشخصيات الدينية السابقة ، فالجانب الديني عند هذه الشخصية لم يرق الى منهج متكامل مع الناس ، والعيش في الحياة على أساس ديني ، والرواية في النهاية تصب في اتجاه وطار وايديولوجيته التي يؤمن بها ، ويعمل على نشرها في كل أعماله الأدبية والروائية خاصة ، وهي الاشتراكية العلميـــة .

وعلى كل فقد وظف وطار في رواية (الحوات والقصر) التراث المحلي والاسلامي ، والانساني ، وحاول الاستفادة منه في ايجاد المعادل الفني للواقع الذي حاول تعريته من وجهة النظر التي يتبناهـــا .

الخاتمـــــة :

ان أهم النتائج التي توصلنا اليها في هذا البحث تتلخص فيما يلـــي :

(1) ـ أسهم وطار في ارساء دعائم الفن الروائي في الجزائر ، وأعطى للرواية العربية نكهة محليـــة جزائرية ، بفضل موهبته وخبرته اللغوية والفنية وتجربته في الحياة . ولكن هذه المؤهلات الهامة لم تبلـــغ مداها الكامل في أدب وطار ، لأنها صبت داخل قالب ايديولوجي لا يتناسب مع شخصية المجتمع الجزائـــري العربي المسلم ، الذي تعبر روايات وطار عنه .

والواقع أن وطار وأمثاله من الأدباء خاصة ، والفنانين والسياسيين الذين أخذوا هذه الوجهـــة ليسوا نسيج وحدهم ـ كما يقال ـ فلظاهرة الانسلاخ من الذات هذه جذورها في المجتمع العربي الاسلامي ذاته ، الذي عانى من قرون التخلف والاستعمار والغزو الثقافي الغربي والشرقي على السواء .

وقد أدت هذه العوامل كلها الى اهتزاز ثقة الانسان العربي المسلم بدينه الاسلامي ، الذي هو منهج متكامل للحياة .

(2) ـ تظهر الشخصية الدينية في روايات وطار غاية في السلبية . اذ لا تقتصر هذه الروايات على نقد الشخصية الدينية ، بل انها تعمد الى الالغاء الكلي لأي وجود ايجابي لهذه الشخصية في الحاضر ، ولأي احتمال لهذا الوجود في المستقبل كذلك .

فالحديث ينصب في أدب وطار وفي رواياته أساسا على عدم صلاحية هذه الشخصية للحياة ، وعلى ضرورة استبدالها بنموذج لانسان جديد ، تقترحه الايديولوجية المتبناة ، لا يربطه بالدين ـ في أحسن الأحوال ـ الا الاحترام البعيد الذي لا يقيم أي علاقة بين الايمان بهذا الدين ، وبين الحياة عامة .

(3) ـ كان من نتائج غلبة الطابع الايديولوجي أن ظهرت المباشرة والتقريرية أحيانا ، في روايات وطار وخاصة في رواية "اللاز" الثانية ((الموت والعشق في الزمن الحراشي)) .

ولم تفلح الاشكال الرمزية ـ التي حاول المؤلف التنويع والتجديد فيها سواء في هذه الرواية المذكورة أو فيما تلاها من روايات ـ في اخفاء الطابع الايديولوجي السياسي ، الذي يغلب على أعماله الأدبيـــة والروائية منها على الخصوص .

(4) كان لهذه الرواية أثرها في تصوير العلاقات والمشاعر الانسانية داخل العالم الروائي ، فلم تظفر في هذا العالم بمستوى رفيع من الصراع الدرامي ، الذي ينتجه تصارع القيم والعواطف ، وتداخلها ، وتنازعها

في النفس الواحدة ولم ينفذ الكاتب الى نفوس شخصياته الروائية والدينية منها على الخصوص، ولم يتعمق أسرارها بسبب تعاطفه الواضح مع النماذج الروائية التي تمثل اتجاهه ، وقسوته البالغة على النماذج التي تخالف هذا الاتجاه .

(5) — لوطار مقدرة كبيرة على الاحكام الخارجي لأعماله الأدبية . فهو — بحق — مهندس معماري فني يخطط بدقة واحكام لرواياته ، ويطيل النظر في الشكل السردي المناسب لكل موقف ، بحيث يصعب أن نتصرف بالزيادة أو النقصان في أعماله الأدبية دون أن يؤثر ذلك على البناء الفني للعمل الأدبي كله .

ولعل السبب في قلة رواياته — نسبيا — يعود الى هذا التحري الدقيق الذي يفرضه وطار على نفسه في كل ما يكتب ، وقد اكتسب نتيجة هذا الجهد المضني الذي يبذله في كل أعماله الأدبية أسلوبه الخاص به هذا الأسلوب السهل الممتنع ، الذي ينساب في عفوية، ويفهم في يسر وسهولة حتى لدى القارئ العادي ، دون أن يفقد فنيته وخصوصيته ودلالته على صاحبه .

وقد ساعده رصيده من التراث العربي الاسلامي ، واطلاعه على الأدب العربي والعالمي ، وكتابته للقصة القصيرة ، والمسرحية قبل الرواية على ألكتابة بلغة روائية فنية ، فتح بها الطريق أمام غيره من الروائيين . فهو يجيد استخدام اللغة بأشكالها المختلفة ، ويفكر في العبارة وفي الكلمة ذاتها قبل أن يثبتها .

كما أنه قد استطاع أن يفجر طاقة الدارجة الجزائرية ، ويعبر بها عن الشخصيات الشعبية العديدة في رواياته ، ويرتفع بها في نفس الوقت الى الفصحى دون أن يشعر القارئ بحواجز تذكر بين اللغتين ، لأن المؤلف قد وضع يده على الصلة القوية التي تربط الدارجة الجزائرية بالعربية الفصحى ، وأرجع بحسه اللغوي المرهف معظم التعابير والكلمات الدارجة ، التي استعملها الى أصلها العربي الفصيح .

(6) يكثر الحوار بأشكاله المختلفة في روايات وطار ، ويجري في عفوية ويسر واحكام ودقة ، ولكن هذا الحوار — ان كان ينقل القارئ الى جو المتحاورين وخاصة الشعبيين منهم — فانه يحافظ على وتيرة واحدة — تكاد تكون رتيبة — في سيره ، فلا يتوتر ، ولا تشتد معه الانفاس ، أو تحتدم فيه المشاعر الا في أحيان قليلـــة .

(7) حاول وطار الافادة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والسيرة النبوية ، وحياة الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم ، ولكنه ركز في محاولته هذه على المفارقة الكبيرة بين ما تحمله هذه الآثـــار الشريفة من معان سامية، وبين ما تهدف اليه الشخصية الدينية في رواياته من أغراض أنانية . واقتصر استعمال الآيات القرآنية الكريمة بالخصوص على السخرية من مواقف الشخصية الدينية وتصرفاتها وسوء نواياها ومقاصدها ولا نحسب أن في مثل هذا الاستشهاد العكسي الساخر استفادة من الطاقة الفنية في هذه النصوص الكريمة والمواقف الدينية والانسانية الرائعـــــة .

(8) — من مهارات وطار الفنية ، قدرته على الوصف الدقيق، وانتباهه لتفاصيل الأشياء الموصوفة ، ولكن هذا الوصف غالبا ما يتركز على الأشياء المادية ، ولا يقيم علاقة انسانية قوية لهذه الموصوفات بالأشخاص الذين يتعاملون معها .

وليس للمكان في روايات وطار خصوصية تذكر ، فالعلاقة ضعيفة بينه وبين الاشخاص الذين يقيمون فيه أو يترددون عليه . ولعل من أسباب هذه الظاهرة أن معظم أبطال روايات وطار يعانون من عدم الاستقرار ويغيرون أماكنهم باستمرار ، ولكن القارئ لا يشعر بأنهم يفتقدون هذا المكان ، أو يحنون الى الاقامة فيه .

ومع أن معظم روايات وطار تدور حوادثها في الريف ، الا أن الطبيعة بمظاهرها المختلفة لم تحظ بعناية الكاتب ، ولم توصف الا في مقاطع متناثرة ، لا صلة لها وثيقة بأحداث الرواية ، ومشاعر أبطالها .

(9) استغل وطار خبرته بالثقافة الشعبية في ابداعه الروائي ، وقد اكتسب هذه الثقافة من علاقته بالوسط الشعبي نفسه ، الذي نبع منه وترعرع فيه ، ولكن محاولته لاخضاع هذه الثقافة لرؤيته الفكرية قد حد من عفوية وطلاقة نماذجه الشعبية . كما أنه قد اضطر الى تغييب هذه النماذج أحيانا ، أو الى التفسير المباشر لتصرفاتها ومواقفها لهذا السبب نفسه .

(10) — لا يظهر تأثر وطار واضحا بأي من الروائيين العرب ، الذين سبقوه في الكتابة ، كما يظهر تأثيره في جيل السبعينات من الروائيين الجزائريين . لقد استفاد وطار من الرواية العربية دون شك ، ولكن اعتمد في كتابته الأدبية أساسا على تجربته الشخصية ، ورؤيته في الحياة . كما استفاد من الرواية العالمية ويمكن أن نلحظ تأثره بهمنغواي في عنايته الفائقة بأسلوبه ، وبدستيوفسكي في محاولة تعمق مشاعر أبطاله وتعقد تصرفاتهم ومواقفهم . ومع هذا فان روايات وطار لم تستفد كثيرا من ثراء الرواية العالمية ، وعمقها وحسها الانساني الرفيع ؛ لأنها بقيت محكومة برؤيته الايديولوجية .

(11) — يلاحظ في أدب وطار تنوع انتاجه الروائي ، اذ لا تكاد رواية من رواياته أن تشبه الأخرى ويعود هذا التنوع — في رأيي — الى حرص وطار على ألا يكرر نفسه ، وأن يقدم الجديد في كل عمل روائي ينتجه .

والواقع أنه كان يمكن لوطار أن يقول الكثير في النهج الواقعي الكلاسيكي الذي انتهجه في أول رواية له وأثبت فيه مقدرة معتبرة ، وأن يستفيد في ذلك من انجازات الرواية العالمية ، التي لاحظنا من قبل تأثره بها ولعل مرحلة السكوت الطويلة التي يمر بها وطار تعود في جانب منها الى هذا التعجل في التجديد وفي كل رواية من رواياته التي كتبها (1) .

---

(1) صدر لوطار أخيرا رواية بعنوان ((تجربة في العشق)) باليونان .

(12) وأخيرا فانه رغم اخلاص وطار لفنه ومجتمعه ، فقد فشل ما تنبأ به رواياته للمجتمع الجزائري وهذا الفشل في الحقيقة لا يدل على فشل الكاتب بقدر ما يدل على فشل المنهج الايديولوجي الذي راهن عليه هذا المنهج الذي بدأ ينهار تباعا حتى في البلدان التي وقعت فيها محاولة تطبيقه ، لأن حاجة الإنسان ليست هي المادة فقط ، التي يفسر بها هذا المنهج كل شيء ، ولكنها حاجة ماديةوروحية في آن واحد .

(13) وفي آخر هذا البحث لابد من طرح السؤال الذي كان يدور في ذهني قبل اعداد هذا البحث ولزمني طوال فترة اعداده ، ولا يزال الى اليوم يلح علي ، وهو : هل سيعود وطار ليعبر بفنه الروائي عن شخصية مجتمعه وأمته العربية الاسلامية ؟

ان صعوبة هذه العودة لاتخفى على أحد ، فوطار نموذج للطاقات الفنية الهامة التي تضيع من المجتمع الجزائري والعربي ككل ، بسبب الانهزام الداخلي ، وانحسار الروح الاسلامية في النفوس ، ونقص الايمان بانبعاث الحضارة العربية الاسلامية من جديد . وهو رمز لكثير من الأدباء والمثقفين الذين لا يرون في غير الاشتراكية العلمية حلا لأزمة المجتمع العربي الاسلامي الراهنة . ولكن قوة الارادة لدى وطار ، والعناد ، والبحث المستميت عما يعتقد أنه الحق تجعلني شخصيا أومن بامكانية عودة وطار .

واذا كان وطار يأخذ بالمنهج الاشتراكي العلمي لحد الساعة فلأنه يؤمن حقا بأن من ورائه نفع لمجتمعه وأمته . ولكني أعتقد أن وطار لايضحي بالحقيقة التي هي هدفه ، ويضفي طابع القداسة على هـــذا الاجتهاد البشري ، الذي يثبت يوما بعد يوم فشله وعدم صلاحيته لأهله أنفسهم ، الذين نبع من ظروفهم وخبروه في حياتهم لمدة طويلة .

ان وطار فنان أصيل ، وجزائري عنيد في الحق ، ولا يمكننا الا أن نراهن على ايمان هذا الفنان وأصالته وعناده وقدرته على المواجهة - ولو كان ذلك مع نفسه - متى ما ظهر له الحق . ولهذا كله فسيعود وطار ليكمل الابداع الحقيقي ، الذي لم يقل فيه كلمته الأخيرة بعد .

المصادر والمراجع

المصادر : (روايـات) .

(1) الطاهر وطار ، الحوات والقصر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 2 ، الجزائر 1984 .

(2) الطاهر وطار ، الزلزال ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ط 1 ، 1974 .

(3) الطاهر وطار ، عرس بغل ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1982 .

(4) الطاهر وطار ، العشق والموت في الزمن الحراشي (اللاز ، الكتاب الثاني) ، دار ابن رشد للطباعة والنشر ، ط 1 ، بيروت 1980 .

(5) الطاهر وطار ، اللاز ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 3 ، الجزائر 1981 .

المراجـــــــــع :

أ — الروايات :

(1) اسميداني الهاشمي ، المضطهدون .

(2) الأعرج واسيني ، نوار اللـــوز .

(3) بقطاش مرزاق ، طيور في الظهيرة (الجزء الأول والثاني) .

(4) بوجدرة نور الدين ، الحريـــق .

(5) حوحو أحمد رضا ، غادة أم القرى .

(6) ديب محمد ، ابن الفقير ، الثلاثية .

(7) دستيوفسكي ، الجريمة والعقاب .

(8) الشافعي عبد المجيد ، الطالب المنكوب .

(9) منيع محمـــد ، صوت الغرام .

(10) همنغواي أرنست ، الشيخ والبحر ، لمن تقرع الأجراس ، وداع السلاح .

ب — المؤلفات والبحوث :

(1) الابراهيمي محمد البشير ، آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي ، الجزء الأول ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 1 ، الجزائر 1398 هـ — 1978 م .

(2) الابراهيمي محمد البشير ، عيون البصائر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 .

(3) ابن باديس عبد الحميد ، ابن باديس : حياته وآثاره ، اعداد وتصنيف عمار الطالبي ، دار اليقظة العربية ، ط 1 ، بيروت 1388 هـ — 1968 م .

(4) الأعرج واسيني ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986م .
(5) الأعرج واسيني ، تطور ملامح البطل في الرواية الجزائرية ، رسالة دكتوراه ، جامعة دمشق 1984/ 1985م .
(6) بامية عايدة أديب ، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 — 1967) ، ترجمة محمد صقر ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، بدون تاريخ .
(7) ابن نبي مالك ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر (دون مكان ولا تاريخ) .
(8) ابن نبي مالك ، في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق ، 1398 هـ — 1972م .
(9) ابن نبي مالك ، وجهة العالم الاسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، 1402 هـ 1981م .
(10) بيكر كارلوس ، ارنست همنغواي ، (دراسة في فنه القصصي) ، ترجمة د . احسان عباس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1959م .
(11) الجندي أنور ، شبهات التغريب في غزو الفكر الاسلامي ، المكتب الاسلامي ، دمشق ، 1398 هـ 1978م .
(12) خوري الياس ، الذاكرة المفقودة ، (دراسات نقدية) ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط 1 ، بيروت 1982م .
(13) دراج فيصل ، حوار في علاقات الثقافة والسياسة ، دار الجليل ، ط 1 ، دمشق 1984 .
(14) دي فوتو برنار ، عالم القصة ، ترجمة د . محمد مصطفى هدارة ، عالم الكتب ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة ، القاهرة 1969م .
(15) ركيبي عبد الله ، تطور النثر الجزائري الحديث ، 1830 — 1974) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، دار نافع للطباعة ، مصر 1976م .
(16) روابنية الطاهر ، اتجاهات الرواية العربية الحديثة في بلدان المغرب العربي (1945 — 1975) رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1985/ 1986 .
(17) زيغور علي ، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 1 بيروت ، فبراير 1982 .
(18) سعد الله أبو القاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية ، (1930 — 1945) ، الجزء الثالث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1975م .

(19) سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن 10 الى 14 هـ ـ 16 الى 20 ميلادي)
الجزء الأول والثاني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 .
(20) سعدي عثمان ، عروبة الجزائر عبر التاريخ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، الجزائر 1982 .
(21) شكري غالي ، أدب المقاومة ، دار الآفاق الجديدة ، ط2 ، بيروت 1972م .
(22) العالم محمود أمين ويمنى العيد ونبيل سليمان ، الرواية العربية بين الواقع والايديولوجية ، دار الحوار ط1 ، سوريا 1986م .
(23) عبد الله محمود حسن ، الواقعية في الرواية العربية ، دار المعارف ، مصر 1971م .
(24) عطية أحمد محمد ، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة ، مطبعة وزارة الثقافة ، دمشق 1977م .
(25) الغزالي محمد ، كيف نفهم الاسلام ، دار الكتب ، الجزائر ، 1987م .
(26) غفار محمد ، الاتجاه الوطني في الرواية الجزائرية المعاصرة المكتوبة باللغة العربية (1947 ـ 1985)
رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، 1406 هـ ـ 1986م .
(27) الكيلاني نجيب ، الاسلامية والمذاهب الأدبية ، مؤسسة الرسالة ، ط 4 ، بيروت 1405 هـ ـ 1985م .
(28) لنتون رالف ، الانتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث ، ترجمة عبد المالك الناشف ، المكتبة المصرية
بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ، بيروت ، 1967 .
(29) المبارك محمد ، الأمة والعوامل المكونة لها ، دار الفكر ، دمشق ، (دون تاريخ) .
(30) مرزاق هداية ، الشخصية الروائية عند وطار ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1986/ 1987م .
(31) مصايف محمد ، الرواية العربية الجزائرية الحديثة ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، 1983م .
(32) ميد مرغريت ، الثقافة والالتزام ، ترجمة خير الدين عبد الصمد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق
1967م .
(33) النساج سيد حامد ، بانوراما الروايـة العربية الحديثة ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، ط 1
بيروت 1982 .
(34) النصير ياسين ، الرواية والمكان ، وزارة الاعلام والثقافة ، العراق ، 1981م .
(35) هوارة سعيدة ، الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار ، رسالة ماجستير ، جامعة
الجزائر 1984/ 1985 .

ج ـ الدوريات والنشرات :

(1) مجلة الثقافة (الجزائر) ، نوفمبر 1974 .

(2) مجلة الجيل (اليونان) ، نيسان أبريل 1988 .

(3) مجلة الطريق (آب أغسطس) ، 1981 عدد خاص .

(4) مجلة العالم (انجلترة) العدد 314 .

(5) مجلة المجاهد الأسبوعي (الجزائر) ، العدد 931 .

(6) مقتطفات من منهج الصومام ، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (1954 ـ 1962) ، وزارة الاعلام والثقافة ، الجزائر 1979 م .

فهرس الموضوعات

فهرس الروايات

فهرس الشخصيات الروائيـــــة

محتوى البحث